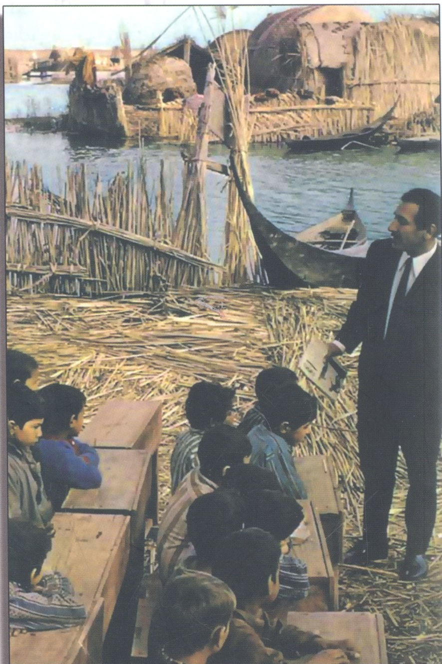
المعرفة

106

العدد (١٠٦) محرم ١٤٢٥هـ مارس ٢٠٠٤م



في الحوار مع الطفل

قل له : من فضلك . .

عبدالله القرعاوي:

فشلت في جمع «التحويشة»!

عبدالله الزيد:

لا نريد صناديق للأدباء!

الحجامة

تعالج ٨٠ عرضًا ومرضًا

العراق..

...ارات بمداد « الأهوار »

بنتل

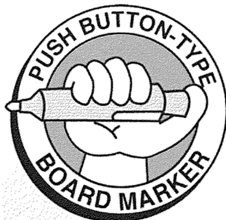
ماكسفلو .. للسبورة البيضاء

MAXIFLO White Board Marker

حبر سائل يتدفق لآخر قطرة

خال من الزايلين والتليونين





الضغاط

Pentel®

من رسائل « السيّاب » أثناء مرضه

أختيّ الكريمتين آمال و[illegible]

سررت برسالتكما التي لمست فيها روحيكما الشاعرتين وعواطفكما الأخوية. وكم تمنيت لو أنها كانت أطول لأستمتع بهذه المتعة التي حرمني القدر من كل متعة سواها: متعة القراءة والحلم.

أكثر ما يضايقني في مرضي أنه سيتركني رهين محبس البيت لا أغادره بعد عودتي إليه من الدائرة القريبة كل القرب من داري والجزيرة بسيارات تنقل موظفيها. وإذا كان الأمر كذلك فمن أين تأتي التجارب لكتابة قصائد جديدة؟

(أم البروم) نُشرت في ديوان «المعبد الغريق» الذي صدر منذ مدة طويلة وصدر بعده ديوانان آخران: «منزل الأقنان» و«أزهار وأساطير». لم يُرسل الناشر إليّ حتى الآن النسخ المخصصة لي من كل ديوان وإلا لأرسلت إليكما نسختكما.

ما زالت صحتي تتحسن في بطء شديد. وسأكون في بغداد حالما أصبح قادراً على ارتقاء سلّم الطائرة.

أرجو نشر قصيدتي في مجلة «بغداد» لأنها - كما علمت - تمنح مكافأة طيبة عن كل قصيدة تنشر فيها. تفيدني المكافأة أجرةً للطائرة على الأقل.

أحس بأجراس خافتة، أجراس سُكْر وزهر، تقرع في نفسي، مبشّرةً بميلاد قصيدة.. هذه الليلة أو غداً. وسيكون ميلادها نعمة تنزلها السماء عليّ.

كم أحن إلى جلسة معكما ومع الأخوين خالد علي مصطفى ورزيد الطاهر في جمعية الكتّاب والمؤلفين، أقرأ لكم وأسمع منكم.

وفي الختام أتمنى لكما كل خير وسعادة.

أخوكما

بدر شاكر السياب

لندن ١٩٦٤م

أخذاً عن موقع www.jehat.com

المعرفة

مجلة شهرية تصدر عن
وزارة التربية والتعليم

المملكة العربية السعودية

تأسست عام ١٣٧٩ هـ في عهد وزير المعارف صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز
وأعيد إصدارها عام ١٤١٧ هـ في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز

العدد (١٠٦) - محرم ١٤٢٥ هـ - مارس ٢٠٠٤م

إدارة النشر



ردمد: ٦٢٠٠-١٣١٩

البند الأول :	المواد المنشورة في هذه المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي وزارة التربية والتعليم.	البند الثاني :	تبويب الموضوعات والمقالات في هذه المجلة يخضع لاعتبارات فنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الحصة الأولى

خلال أقل من شهرين (٩ ذو القعدة - ٣٠ ذو الحجة) انتهى عامان .. الأول ميلادي والثاني هجري، وأيًا كان نوع العام الفارط فإنه محسوب علينا ومحسوبون عليه أيضًا، بنجاحاتنا وأخطائنا، لكن اللحظة التي نشعر فيها بانقضاء العام نتنفس «الصعداء» ونعلق «السعداء» إلى العام الجديد، نصحو صباح هذا العام الجديد ونهتم بنظافتنا أكثر.. وبابتسامتنا أكثر... وبأحذيتنا أكثر، وكأننا سنطأ أرضًا جديدة ما ونضغط على فرشاة الأسنان بقوة أكثر عسى أن تخرج من بين أسنانها أسنانًا تعبر عن أمنياتنا المنظورة وغير المنظورة بعام لم يتحول إلى «معجون» بعد، لازال أكثر نظافة وابتسامًا وأوسع بالاً، وما إن تخرج بسيارتك التي هي الأخرى فرحة جذلى لأنك تمسكت بها رغم ظهور «حسناوات» جدد، وما إن تصل إلى أول إشارة مرور حمراء تحاول تنظيم تنفس الشارع حتى يخرج السائق المجاورة رأسه ورقبته ونصف كتفيه من نافذة سيارته المرتعدة ويبصق على الأرض بكل قوة وبموسيقا مصاحبة صاخبة فتتحسر وتنكمش إلى داخلك.

الأعوام مثل البشر.. هناك عام مكرر، وهناك عام ثقيل الدم، وهناك عام ملقوف، وهناك عام بطيء وآخر سريع، وهناك عام مسرور مليء بالحيوية.... على كل «عام» يجب أن نتمسك بتفاؤلنا رغم كل نشاز، وحياة القص واللزق واللون « الأحمر» الذي يظهر في أوقات غير مناسبة ـ أحياناً ـ !. المعرفة

المراسلات

باسم: رئيس التحرير
ص.ب ٧ ٢٣٠٠٠ - الرياض ١١٣٢١
هاتف: ٤٠ ٤٠ ٤١٩ فاكس: ٤٧ ٤٧ ٤١٩
فاكس مجاني: ٢٢٧٧ ١٢٤ ٨٠٠
Letters should be sent to:
Editor-in-chief
P.O.Box: 7 Riyadh 11321
Tel: 419 40 40 Fax: 419 47 47
Free Fax: 800 124 2277
info@almarefah.com

الأسعار

السعودية ١٠ريالات، الإمارات ١٠ دراهم،
الكويت ٨٠٠ فلس، قطر ١٠ ريالات،
البحرين ١٠٠٠فلس، سلطنة عمان ١٠٠٠ بيسة،
اليمن ١٢٥ ريالاً، سوريا ٦٥ ليرة،
الأردن ١,٢٥ دينار، لبنان ٣٠٠٠ ليرة،
مصر٥ جنيهات،السودان ١٥٠ دينارًا ،
المغرب ١٥ درهمًا.

الاشتراكات

سعر الاشتراك داخل السعودية للأفراد (١٠٠) ريال وللمؤسسات (٢٠٠) ريال.

سعر الاشتراك للدول العربية ٥٠ دولارًا شاملاً أجرة البريد.

سعر الاشتراك للدول الأخرى ٦٠ دولارًا شاملاً أجرة البريد.

للاشتراك

الرياض: هاتف: ٤٧٢٧٨٥٨-٤٧٢٧٨٤٦
فاكس مجاني: ٨٠٠١٢٤٢٢٧٧

Subscriptions@rawnaa.com

للإعلان

الرياض:٤٧٢٧٧٩٢ ـ ٤٧٨٥٣٢٢ ـ فاكس: ٤٧٢٧٨١٨
جدة: ٦٤٢٦٧٧٨ ـ ٦٤٢٧٨٨٩ فاكس: ٦٤٢٨٧٠٠
Advertising@rawnaa.com

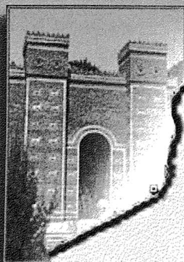
روناء للإعلان والتسويق

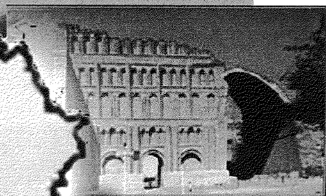
ص . ب ٢٦٤٥٠ الرياض ١١٤٨٦
ص . ب ٤٠٧٠٣ جدة ٢١٥١١

الوطنية للتوزيع



العراق.. أرض أول من كتب











العراق أو «العراك» بلد قُدّ من صلابة وثورة وعصيان وحزن وثقافة ممتدة ... هذا البلد المتناقض مشقوق إلى قطعتين في كل شأن من شؤون الحياة ومناحيها، فبينما هو كما يقول العراقيون - مهبط سيدنا آدم عليه السلام أبي «الإنسانية» إلا أن المجتمع العراقي يمر على هذه «الإنسانية» أو هي تمر عليه عبر تاريخه البعيد مرور الكرام، وبينما هو مصدر أول قانون بشري منظم ومتكامل فإن القانون في آخر الصف مطرود منبوذ إلا وقت حاجة السلطة إليه. حتى أسماء العراقيين قوية رنانة تترك وقعًا في الأذن والمخيلة، إلا أن ترنيماتهم تدخل من سم الخياط، دقيقة رقيقة تصطاد الأنفس والأنفاس ثم تشردها في باحات الولع والوله والحزن.

عراق الحضارات الأولى، وعراق أبي الأنبياء الخليل، عليه السلام، وأبي حنيفة وابن حنبل والرشيد والمأمون. عراق الشعراء من المتنبي إلى الجواهري والسياب ونازك والبياتي.

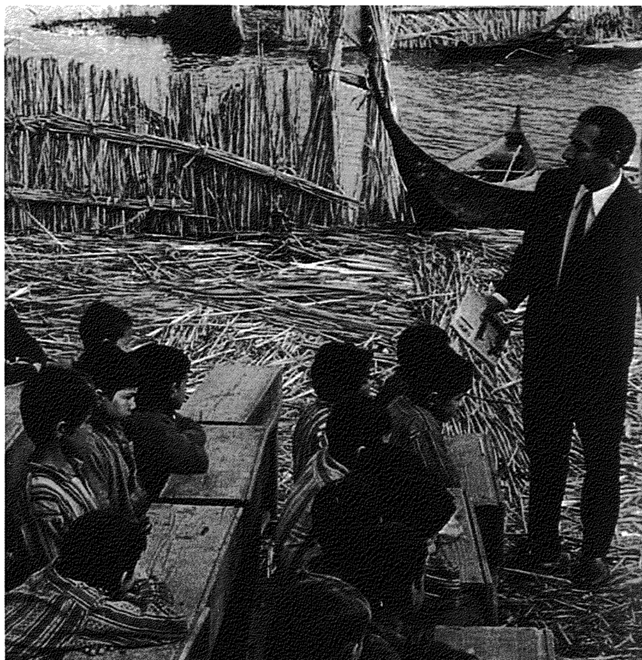
عراق السياسيين من الحجاج إلى صدام، عراق البناء والعمارة من حدائق بابل إلى الملوية والمستنصرية. عراق العلم من أول كتاب للإنسان إلى «أسلحة الدمار الشامل» سيظل هذا العراق شاغل الناس والعالم و«الأمم المتحدة»، ومعظم صفحات مجلة المعرفة لهذا العدد - رغم عدم رضى بعض قرائنا الأعزاء عن الملفات الطويلة للمعرفة لكن «العراق» بتاريخه الطويل يستحق ذلك..أليس كذلك؟!

هذا العراق الممتد تحتًا وفوقًا - هذه الأيام - عاصمة للعالم فمنه ستخرج واحدة من أخطر الانتخابات في تاريخ العراق والولايات المتحدة الأمريكية والعالم، ومنه ستخرج استراتيجيات السياسة الدولية لأهم بؤرة جغرانفطية في العالم الحديث، ستخرج يد تصفصف كفتي التوازن السياسي نفطي في العالم، ومنه ستخرج الكرة الأرضية ويداها على رأسها من شدة الصداع.. هكذا علمنا التاريخ وهكذا علمنا العراق. المعرفة

الحرب أنهكته والعقوبات دمرته ولكن .. هناك رمق!

التعليم في العراق

أحمد أبوزيد محمد - الرياض



كـان النظام التـعليمي في العـراق من أكثـر النظم تقدمًـا في العـالم العربي قبل عام ١٩٩٠. بيد أن هذا النظام تدهور تدهورًا كبيرًا نتيجة الحروب التي تورط فيها النظام السابق وما أعقبها من فرض عقوبات دوليـة على البـلاد مما أدخلهـا في دائرة الإهمـال والانعـزال وأورث مشكلات ضخمة ما زالت البلاد تعانيها في الوقت الحالي. وقد تفاقمت الأوضاع نتيجة أعمال التدمير والنهب والتعطيل لمؤسسات الدولة، والتي وقعت منذ شـهر مـارس ٢٠٠٣م في أعقـاب سـقوط العـاصـمـة بغداد وانهيار النظام السياسي ودخول القوات الأمريكية والبريطانية للبلاد.

ويأمل المجتمع الدولي بعد أن يستتب الأمر في العراق ويؤول الحكم ومقاليد السلطة لحكومة وطنية عراقية منتخبة أن يتحرك العراق بسرعة لإعادة بناء النظام التـعليمي وتأهيله وتجديده. وهناك أسـبـاب كثيرة تدعونا إلى التفاؤل. أولها ما يتميز به العراق من تاريخ ثقافي عريق يمتد عبر قرون من الزمن.

والسبب الثاني أن العراق كان يعيش قبل عقد مضى حالة من الانتعاش الكبير في مجال التعليم، لم تدمرها الأحداث الأخيرة، ولكنها أضعفتها. والسبب الثالث أن الحكومة التي كانت تستعدي التبادل الحر للأفكار والمعرفة قد تمت الإطاحة بها. والسبب الرابع لهذا التـفـاؤل يكمن فـيما يمتلكه العراق من موارد الثروة، وليس من المحتمل أن يقوم ثانية باستخدامها للأغراض العسكرية بعد أن مر بتـجارب الحروب والنزاعات المريرة. وهذه الموارد الهائلة يجب ألا تبدد على الآلة والمغـامـرات العـسكرية بل ينبـغي تخصيصها لتحسين حياة الشعب العراقي. فقد حان وقت الطموح لتطور العراق التعليمي والثقافي.

ومما لا شك فيه أن كلاً من وزارة التربية والتـعليم ووزارة التـعليم العـالي والبـحث العلمي سيواجهان تحديًا كبيرًا للعودة إلى الظروف الطبيعية في مرحلة ما بعد الحرب، وبالتالي إعادة البناء التدريجي وتجديد نظام التعليم بكامله على المستوى الوطني.

وهـذه المهـمـة سـتكون أقل كلفـة في المحافظات الثلاث في شمال العراق حيث تعـرض نظام التـعليم إلى أضـرار أقل في مرافق البنية التحتية وخدمات التعليم، وحيث تولت منظمـة اليـونيـسكو مع صندوق اليونسيف تنفيذ برنامج التعليم هناك بصورة مشتركة، فشهدت المؤسسات التعليمية تطورًا كبيرًا، كما تم تزويدها بالمواد التعليمية على جميع مستويات التعليم وزادت قدرة الأفراد على الوصول إلى التـعليم. وقد طرأ تطور على المرافق التـعليمية بسبب توفر عنصر الدفع النقدي للصرف على عملية البناء

والشراء محليًا، بينما اختلف الأمر في منطقتي وسط وجنوب العراق، حيث كان تزويد المعدات يتم عن طريق الأمم المتحدة في إطار برنامج «النفط مقابل الغذاء»، ولذلك نجد أن حالة معظم المدارس في منطقتي الوسط والجنوب كانت متدنية بسبب النقص في المخصصات التي يحتاج إليها قطاع التعليم وسيطرة الحكومة العراقية السابقة على تنفيذ البرنامج في ١٥ محافظة تغطي منطقتي الوسط والجنوب مع دور رقابي فقط للأمم المتحدة في توزيع المواد المشتراة.

وعلى أية حكومة عراقية مركزية قادمة أن تسعى لسد الفجوة القائمة في قطاع التعليم في محافظات العراق الثماني عشرة سواء من حيث البنية التحتية أو التأثيث أو توفير المعلمين والكتب والمستلزمات المدرسية. ونتوقع أن ينصب جهد المسؤولين في البلاد على تطوير النظام التعليمي من حيث المناهج وتوفير المعامل والمؤسسات التعليمية المختلفة، بل وإعادة بناء بعضها، وتوسيع رقعة المستفيدين، ونعني بهم المستحقين للالتحاق بالهيكل التعليمي، وتعويض ما فات العراقيين من متابعة ومواكبة للخصخصة العلمية في الدول المتقدمة.

وسنعرض النظام التعليمي القائم حتى الآن في العراق - والذي يشابه كثيرًا مثيله في معظم الدول العربية - والذي نتوقع أن لا يتغير في هيكله العام في المدى القريب لاستقراره منذ زمن طويل وتمشيه مع برامج التعليم العالمية التي تدعو لزيادة مرحلة التعليم الأساسي الإلزامي لأطول فترة ممكنة وتناغمه مع برامج «التعليم للجميع» التي تتخذها منظمة اليونيسكو شعارًا عالميًا لها.

السياسة التعليمية

ينص الدستور العراقي المؤقت لعام ١٩٧٠م أن الدولة تضمن حق التعليم المجاني في جميع المستويات - الابتدائي والمتوسط والثانوي والجامعي - لجميع المواطنين.

والتعليم الابتدائي إلزامي ومحو الأمية الشامل هدف أساسي، وتعتبر الحكومة مسؤولة عن وضع السياسات التعليمية والإشراف عليها وكذلك تمويل التعليم وتطوير وتنفيذ البرامج التعليمية.



هيكل النظام التعليمي

تمتد الدورة التعليمية الرسمية في العراق إلى ١٢ سنة منها ٦ سنوات إلزامية لمرحلة التعليم الابتدائي، الذي يبدأ من عمر ست سنوات، يتبعها ٣ سنوات للمرحلة المتوسطة، ثم ٣ سنوات لمرحلة التعليم الثانوي، الذي ينقسم إلى ثانوي عام علمي أو أدبي وثانوي مهني صناعي أو زراعي أو تجاري. وهناك أيضًا معهد المعلمين ومدة الدراسة فيه ٥ سنوات بعد التعليم المتوسط.

ويمكن للطلاب الذين ينهون المرحلة الثانوية ويحصلون على مؤهلات الحد الأدنى للمتابعة أن ينضموا مباشرة إلى الجامعات أو المعاهد الفنية التي تمتد الدراسة فيها لمدة أربع سنوات كحد أدنى. ويستطيع طلاب معهد المعلمين وكذلك طلاب الثانوي المهني بأنواعه الذين يحصلون على درجات ممتازة في الامتحانات النهائية أن يلتحقوا بالكليات والجامعات لمتابعة تعليمهم العالي.

التعليم ما قبل الابتدائي

تقوم رياض الأطفال أو مرحلة ما قبل المدرسة بخدمة الأطفال من عمر ٤ إلى ٥ أعوام. وقد التحق ما مجموعه ٦٨٣٧٧ طفلاً بهذه المرحلة عام ٢٠٠١ - ٢٠٠٢م (بعدد متساو من الأطفال الذكور والإناث) بانخفاض ٧٦٠٠٦ أطفال عن عام ١٩٩١ - ١٩٩٢م. إن نسبة الالتحاق الإجمالية (مجموع الملتحقين مقارنة بمجموع إعداد الأطفال من عمر ٤ إلى ٥ إعوام) تأرجحت حول ٧٪ خلال هذه الفترة، كما انخفض عدد رياض الأطفال من ٥٨٠ إلى ٥٦٦ روضة.

التعليم الابتدائي

بلغ عدد طلاب المرحلة الابتدائية على مستوى الدولة في عام ٢٠٠٠ - ٢٠٠١م ما مجموعه٤,٠٣١,٣٤٦ طفلاً أو طالبًا، وسجلت نسبة الذكور في هذا العدد ٥٥,٩٤٪، بينما بلغت نسبة الإناث ٤٤,٠٦٪. وبلغ عدد مدارس المرحلة الابتدائية في كامل العراق ١١٧٠٩ مدارس يعمل فيها ١٩٠٦٥٠ معلمًا.

ويعاني التعليم الابتدائي الظروف الاقتصادية الصعبة التي تحياها العائلات الفقيرة مما يؤدي إلى عدم إرسال أطفالها إلى المدرسة أو إلى تسرب الأطفال من المدرسة في مرحلة مبكرة. علاوة على ذلك، هناك إحباط بين المدرسين بسبب ضعف الرواتب، ونقص شديد في الكتب المدرسية والوسائل التعليمية والتعلمية، وضعف في الحوار والاتصال بين المدرسين والآباء.

ومن أبرز مشكلات التعليم الابتدائي أيضًا ارتفاع نسب الإعادة للسنة الدراسية، ويعزى هذا لأسباب مختلفة أهمها نقص المعلمين المؤهلين وسوء أوضاع المدارس وعدم توفر الكتب والمواد التعليمية وعمل الطلاب لزيادة دخل الأسرة وازدياد كثافة الطلاب في الفصول.

وقد استطاعت وزارة التربية والتعليم في عام ٢٠٠٠م توفير ما يقارب ٢٥٪ فقط من الكتب المدرسية المطلوبة في المدارس الابتدائية والثانوية، كما تمت طباعة ٢٥٪ في الأردن وتلبية ٥٠٪ من الاحتياجات بإعادة استخدام الكتب المستعملة من قبل طلاب في السنوات السابقة، ووفقًا لوزارة التربية والتعليم فقد اشترك العديد من الطلاب في كتاب واحد.

التعليم الثانوي

يتكون التعليم الثانوي من مرحلتين تمتد كل منها إلى ثلاثة أعوام. تشكل الأعوام الثلاثة الأولى المرحلة المتوسطة التي تؤدي إلى بكالوريا من المستوى الثالث، وتشكل الأعوام الثلاثة المتبقية المرحلة الإعدادية التي تؤدي إلى بكالوريا من المستوى السادس.

وقد أدت العقوبات التي فرضت على العراق إلى انخفاض الاقتصاد بشكل سريع وخفضت دخل الأسرة كذلك. فقام بعض الآباء بإبقاء أطفالهم خارج المدرسة أو سحبوا كبار السن منهم والذين تسمح أعمارهم بالمشاركة في أعمال تدر دخلاً لزيادة دخل الأسرة.

وتدرس بعض المدارس في العراق المرحلة المتوسطة فقط وبالتالي على الطلاب إتمام دراستهم الإعدادية (المرحلة الثانوية الثانية) في مدرسة أخرى. وتدرس معظم المدارس المرحلتين المتوسطة والإعدادية، ويختار الطالب بعد السنة الأولى في المرحلة الإعدادية بين الدراسة العلمية أو الأدبية.

بلغ مجموع المسجلين في المدارس الثانوية لعام ٢٠٠٠- ٢٠٠١م في العراق ١٢٩١٣٠٩ طالبًا منهم ١٠٦٣٨٤٢ (نسبة الذكور ٦١,٢٪ ونسبة الإناث ٣٩,٨٪) في وسط وجنوب البلاد، و٢٢٧,٤٦٧ طالبًا (نسبة الذكور ٥٧,١٪ والإناث ٤٢,٩٪) في الشمال.

ازداد عدد الطلاب الملتحقين بالمدارس الثانوية في كامل البلاد بنسبة ٢٢٤٪ من ٣١٥٦٠٠ في عام ١٩٧١- ١٩٧٢ إلى ١٠٢٣٨٤٢ في عام ١٩٩٠ - ١٩٩١م. وبقي الالتحاق في الوسط والجنوب ثابتًا في التسعينيات، ووصل إلى ١٠٦٣٨٤٢ فقط في عام ٢٠٠٠- ٢٠٠١م. وبالنظر إلى معدل النمو السكاني المرتفع، يتضح أن نسب الالتحاق بالتعليم الثانوي كانت منخفضة. ويمكن أن نأخذ بعين الاعتبار في هذا الوضع تأثير الظروف الاجتماعية والاقتصادية المعاكسة والصعوبات داخل نظام التعليم نفسه.

وقد أدت العقوبات التي فرضت على العراق إلى انخفاض المستوى المعيشي بشكل سريع وخفضت دخل الأسرة، فقام بعض الآباء بإبقاء أطفالهم خارج المدرسة أو سحبوا كبار السن منهم والذين تسمح

العراق حقائق وأرقام

الاسم الرسمي للبلاد: جمهورية العراق.

رئيس البلاد: لا يوجد حاليًا رئيس للبلاد بعد الإطاحة بنظام الرئيس صدام حسين. وتسيطر الولايات المتحدة الأمريكية على البلاد، وتم تعيين مجلس للحكم من أقطاب المعارضة السابقة للنظام للمساعدة في إدارة شؤون البلاد بالتنسيق مع القوات الأمريكية والحاكم الأمريكي، بول بريمر، وذلك إلى أن يتم تسليم السلطة إلى قيادة عراقية وطنية لم يتحدد كيفية اختيارها بعد، في ظل غياب كامل لأي دور للأمم المتحدة.

مساحة البلاد: ٤٣٧٠٧٢ كيلو متر مربع.

تعداد السكان: ٢٤,٦٨٣,٣١٣ نسمة وفق تقديرات عام ٢٠٠٣م.

معدل النمو السكاني: ٢,٨٪.

معدل المواليد: ٣٣,٧ لكل ألف نسمة.

معدل وفيات الأطفال: ٥٥,٢ لكل ألف نسمة.

العاصمة: بغداد، ويصل تعداد سكانها



أعمارهم بالمشاركة في أعمال تدر دخلاً لزيادة دخل الأسرة.

ويلاحظ أن نسب التسجيل في التعليم الثانوي في شمال العراق كانت أكثر إرضاء، فقد ازداد المجتمع الطلابي بواقع ٧٨,٥٪ من ١٢٧٤١٣ طالبًا في عام ١٩٩٦- ١٩٩٧م إلى ٢٢٧٤٦٧ طالبًا في عام ٢٠٠٠- ٢٠٠١م. وشهدت هذه الفترة قدرًا من الاستقرار فتمكنت العائلات من الاستقرار وعاد النازحون إلى قراهم. وبعد إقرار برنامج النفط مقابل الغذاء في عام ١٩٩٧م تم توفير مزيد من الأموال لإنشاء المدارس وتوفير المواصلات للطلاب من المناطق النائية وللطلاب الفقراء في الأحياء شبه الحضرية وشراء الوسائل التعليمية مما أدى إلى تخفيف الأعباء المالية على الأهالي.

وينبغي أن نذكر أن معدل التسجيل الإجمالي في التعليم الثانوي قد انخفض إلى ٣٨,٣٪ في عام ١٩٩٩- ٢٠٠٠م في وسط وجنوب العراق مقارنة بـ٤٧٪ عام ١٩٩٠- ١٩٩١م.

سجلت نسب الإعادة للسنة الدراسية عام ١٩٩٩- ٢٠٠٠م ما مقداره ٣٤,٤٪ للمرحلة المتوسطة و٢٢,٤٪ للمرحلة الإعدادية في جنوب ووسط العراق، بينما كانت نسب الإعادة للمرحلتين المتوسطة والإعدادية في عام ٢٠٠٠- ٢٠٠١م في شمال العراق ٢٤,٨٪، و٢١,٧٪ على التوالي.

بلغ مجموع عدد معلمي المدارس الثانوية في عام ٢٠٠٠- ٢٠٠١م في العراق ٧٣٩٨٩

٦,٧٧٧,٣٠٠ نسمة وهي أكبر مدن البلاد.

أكبر المدن: الموصل (١,٧٩١,٦٠٠)، البصرة (١,٣٧٧,٠٠٠) إيربيل (٨٦٤,٩٠٠)، كركوك (٧٥٥,٧٠٠).

عملة البلاد: الدينار العراقي، بالإضافة إلى التعامل حاليًا بالدولار الأمريكي في رواتب بعض العاملين.

لغة البلاد: اللغة الرسمية العربية بالإضافة إلى الكردية في الشمال.

التركيبة العرقية: ٧٥٪ - ٨٠٪ من السكان عرب، ١٥٪ - ٢٠٪ أكراد، ويشكل الأشوريون والتركمان وآخرون ٥٪.

معدل معرفة القراءة والكتابة: ٥٨٪ من السكان (وفق تقديرات عام ١٩٩٥م).

الناتج المحلي الإجمالي: ٥٩ بليون دولار أمريكي (تقديرات عام ٢٠٠١م).

معدل التضخم الاقتصادي: ٦٠٪.

أهم المحاصيل الزراعية: القمح، الشعير، الأرز، الخضراوات، التمور، القطن.

الثروة الحيوانية: الماشية والأغنام.

القوى العاملة: ٤,٤ مليون عامل (وفق تقديرات ١٩٨٩م).

أهم الصناعات: الصناعات البترولية والكيماوية، النسيج، مواد البناء، تعليب الأطعمة الغذائية.

الموارد الطبيعية: البترول، الغاز الطبيعي، الفوسفات، الكبريت.

أهم الصادرات: البترول الخام بـ١٥,٨ بليون دولار أمريكي (وفق تقديرات ٢٠٠١م).

أهم الواردات: الأغذية، الأدوية، المنتجات المصنعة بمقدار ١١ بليون دولار أمريكي (تقديرات ٢٠٠١م).

أهم الشركاء التجاريين: الولايات المتحدة، إيطاليا، فرنسا، إسبانيا، أستراليا، الصين، روسيا (عام ٢٠٠٠م).

الموقع الجغرافي للبلاد: تضاريس البلاد جبال في الشمال الشرقي وصحراء في الغرب ووادٍ خصب لنهري الفرات ودجلة.

يحدها شرقًا إيران، وغربًا سوريا والأردن، وشمالاً تركيا وجنوبًا السعودية والكويت ■

* **المصدر:** موسوعة Time Almanac 2004.



معلمًا منهم ٦٢٨٤٠ في الوسط والجنوب و١١١٤٩ في الشمال. ويلاحظ وجود تدن في نوعية المدرس سواء من حيث التأهيل أو بسبب تقلص رواتب المدرسين المؤهلين الشهرية بما يقارب ٩٩٪ مما يساوي (٥٠٠ إلى ١٠٠٠ دولار أمريكي) إلى (٥ إلى ٤٠ دولارًا أمريكيًا). وقد ترك عدد كبير من المدرسين ذوي الخبرة التعليم الثانوي للبحث عن فرصة عمل ذات دخل أفضل في مكان آخر سواء داخل البلاد أو خارجها.

وقد دعم من تبقوا في العمل رواتبهم بإعطاء دروس خصوصية للأطفال الذين يستطيع آباؤهم الدفع أو بالعمل بعد الدوام المدرسي بوظائف بديلة، وهذا بالطبع يؤثر في نوعية التدريس.

وبعد سنين من العزلة يحتاج أساتذة التعليم إلى فرصة لتحديث معرفتهم في مجال تخصصاتهم وتحسين نوعية برامج التدريب قبل وفي أثناء الخدمة. وتدعو الحاجة إلى إحضار خبراء من الخارج فقد كان المدربون المحليون معزولين عن التطورات الدولية وبحاجة إلى تدريب تحديثي وإنعاشي، وسيتطلب ذلك عقد المؤتمرات وحلقات الدرس والتبادل وبرامج التبادل المعرفي والمنح على المدى المتوسط.

يتلقى طلاب المرحلة المتوسطة ٣٤ حصة صفية أسبوعيًا وتشمل التربية الإسلامية واللغة العربية واللغة الإنجليزية والعلوم (فيزياء وكيمياء وأحياء) والتاريخ والجغرافيا والاجتماعيات والرياضيات والتربية الفنية والتربية الرياضية العسكرية. وتتلقى الطالبات دروسًا في التربية الأسرية. وتضاف بعض المواد الاختيارية في المرحلة الإعدادية كاللغة الكردية وعلم الاجتماع والاقتصاد والتربية الوطنية. وتستثنى الصفوف المسائية من التربية الرياضية والتدريب العسكري، وتنظم نشاطات غير صفية على مستوى المدرسة.

ويواجه التعليم الثانوي مشكلات عدة تحتاج إلى بذل جهود ضخمة من قبل أي حكومة عراقية قادمة وكذلك من قبل المجتمع الدولي. وأهم هذه المشكلات تهدم البنية التحتية للمدارس والمؤسسات التعليمية وتدني ونقص المعلمين المؤهلين، وتخلف المنهج الدراسي عن تطورات المناهج العالمية ونقص الكتب والوسائل التعليمية. ويكفي أن نعرف أن بعض المواد في التعليم الثانوي كان يتوفر لها كتاب واحد فقط يتم استخدامه من قبل خمسة أو ستة طلاب وذلك على حد ما صرحت به وزارة التربية والتعليم في يناير ٢٠٠٣م.

التدريب الفني والمهني

يعتبر التدريب المهني أحد فروع نظام التعليم الثانوي ولكنه بإدارة منفصلة، ويمتلك الطلاب العراقيون حق اختيار التعليم الثانوي المهني مباشرة بعد المرحلة المتوسطة عوضًا عن الاستمرار في

التعليم الأكاديمي العام. وتهدف المراكز المهنية إلى منح الطلاب المهارات المهنية والفنية لتحضيرهم إلى الانخراط في أنواع المهن المختلفة بعد التخرج. تمتد مرحلة التدريب المهني إلى ثلاثة أعوام وتفضي إلى الامتحانات العامة. ويستطيع الطلاب أصحاب أفضل علامات (أعلى ١٠٪) مواصلة دراستهم في الكليات الفنية.

وبلغ مجموع الملتحقين في المراكز المهنية لعام ٢٠٠٠ـ ٢٠٠١م ما جملته ٦٥٧٥٠ طالبًا منهم ٦١٨٦١ طالبًا في الوسط والجنوب و٣٨٨٩ طالبًا في الشمال، على الرغم من أن هذا العدد وصل إلى ١٢٤٤٩٧ طالبًا في الوسط والجنوب فقط في عام ١٩٩١ـ ١٩٩٢م مما يعني انخفاضًا في التسجيل بنسبة ٥٠٪ في المراكز المهنية. وكان الفرع التجاري أكثر الفروع تضررًا حيث بلغ الانخفاض ٧٨,٤٪ بينما كانت نسبة الانخفاض في الفرع الزراعي ٣٨,٣٪ وفي الفرع الصناعي ٣٧,٨٪ في فترة عشرة أعوام، كما انخفض عدد المعاهد من ٢٧٨ إلى ٢٣٦ خلال الفترة نفسها.

وزادت أعداد المتسربين الكبيرة ونسب الرسوب المرتفعة الوضع سوءًا، فقد تسرب ١٢٠٤ طلاب من المراكز المهنية خلال السنة الدراسية ٢٠٠٠ـ٢٠٠١م ورسب ١٠٩٧٦ طالبًا. وقام ما مجموعه ٤٠٤٣ طالبًا بالتسجيل في البرامج المهنية في شمال العراق في عام ٢٠٠١ـ ٢٠٠٢م بزيادة مقدارها ٢٤٪ منذ عام ١٩٩٦ـ ١٩٩٧م. ولا تتوفر أية بيانات عن توزيع الجنس في هذا النوع من التعليم.

رغم أن الطلاب لديهم حرية الاختيار بين فروع التعليم المهني الرئيسة الأربعة، فإن هذا الحق غير قائم دائمًا من الناحية العملية إما بسبب عدم احتواء كل مدرسة مهنية على جميع الفروع، وإما بسبب التوزيع الجغرافي للمدارس وإما لتوفرها في أماكن وانعدامها في أخرى.

ويعزى انخفاض التسجيل في المدارس المهنية إلى تأثير العقوبات السلبي في البنية التحتية والبرامج المتخلفة وفقدان الكوادر المؤهلة وقلة فرص العمل للخريجين.

تدريب المعلمين

منذ عام ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥م، بدأت وزارة التربية والتعليم بترفيع دور المعلمين إلى معاهد تدريب المعلمين، وتقبل هذه المعاهد خريجي المرحلة المتوسطة للدراسة لمدة ٥ سنوات تتوزع بين ٣ سنوات للتعليم العام وسنتين للتخصص. ويمكن للطلبة أن يختاروا التخصص في الدراسات الإسلامية واللغة العربية واللغة الإنجليزية والرياضيات والعلوم والتربية البدنية والفنون الجميلة، ويستطيع الطلبة إكمال دراستهم في الكليات الجامعية.

بالإضافة إلى معاهد تدريب المعلمين، تأسست في العراق معاهد تدريب معلمين مركزية، وهذه المعاهد تقبل خريجي المستوى الإعدادي للمدارس الثانوية «صف ١٢»، ويتلقى فيها الطالب دراسة تخصصية لمدة سنتين.

وقد ازداد عدد هذه المعاهد بصنفيها في منطقتي الوسط والجنوب من ٣٥ في أواسط التسعينيات إلى ١٣٩ في العام الدراسي ٢٠٠٠ـ ٢٠٠١م، إذ جرت محاولة لتخريج معلمين لتغطية التوسع الحاصل في المدارس.

تقوم كليات التربية والتعليم في الجامعات بتدريب المعلمين المحتمل التحاقهم بسلك التدريس للمرحلة الثانوية، وبعض الخريجين من هذه الكليات فضلوا أن يدرسوا في المرحلة الابتدائية على المرحلة

> أما أبرز مشكلات المعلمين فتتلخص في تدني رواتب المعلمين مما يؤدي إلى تثبيط همم الطلبة المحتملين لمتابعة وإكمال تدريبهم في التعليم، ونقص المعلمين خصوصًا في اللغة الإنجليزية والرياضيات وفرار معظمهم للقطاع الخاص حيث الرواتب الأعلى

الثانوية، لأنهم يفضلون أن يعملوا في منطقة جغرافية قريبة من منازلهم حيث لا توجد أحيانًا مدارس ثانوية.

ومن أجل تشجيع الطلبة للحصول على مؤهل معلم مدرسة ابتدائية، بالرغم من الصعوبات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، تأسس نظام الكلية المفتوحة للتعليم في العام الدراسي ١٩٩٨- ١٩٩٩م، وذلك لتوفير برامج التعليم للمناطق النائية حتى الدرجة الجامعية في التعليم ودورات التدريب في أثناء الخدمة للمعلمين.

في شمال العراق، قامت اليونيسكو بعقد عدد متنوع من دورات التدريب في أثناء الخدمة لمعلمي مختلف مراحل التعليم الثانوي، ومعظم مراحل التعليم العالي وذلك ضمن مهماتها في إطار برنامج النفط مقابل الغذاء. وقد استفاد من هذه الدورات أكثر من ١١ ألف معلم ومشرف ومدير في مواضيع متعددة (أساليب التعليم، والإدارة، والمهارات الأساسية في اللغة الإنجليزية والحاسوب... إلخ)، وذلك خلال عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٢م. وقد استهدفت هذه البرامج المعلمين في كل المدن والريف عبر رزم التعليم الذاتي، مقترنًا مع متابعة مباشرة في مراكز تدريب المعلمين.

يستطيع العراق أن يفاخر بامتلاك أقدم الجامعات في العالم، ونعني بها الجامعة المستنصرية، التي تم تأسيسها عام ١٢٨٠م. ومع أن نشاط الجامعة قد توقف، إلا أن هناك جامعة تحمل الاسم نفسه لا تزال قائمة إلى اليوم.

وفي شهر ديسمبر عام ٢٠٠١م، تلقى ٢٣٨ من كبار المعلمين في منطقتي الوسط والجنوب تدريبًا في أثناء الخدمة عبر منحة سهلت اليونيسكو عملية الحصول عليها من وقف تديره الأمم المتحدة، يتلقى تبرعات من دول عدة من بينها هولندا والنرويج.

أما أبرز مشكلات المعلمين فتتلخص في تدني رواتب المعلمين مما يؤدي إلى تثبيط همم الطلبة المحتملين لمتابعة وإكمال تدريبهم في التعليم، ونقص المعلمين خصوصًا في اللغة الإنجليزية والرياضيات وفرار معظمهم للقطاع الخاص حيث الرواتب الأعلى. علاوة على ذلك، لا يتوفر للمعلمين الوقت أو الطاقة الكافية أو مصادر التمويل لتطوير أنفسهم مهنيًا، ولا يتاح لهم بسبب ظروف العراق امتلاك سبل الاتصال مع زملاء أجانب ولا إمكانية الوصول إلى مصادر الكتب والدوريات الحديثة ووسائل الحاسوب والإنترنت التي تساعد على التطور المهني.

التعليم غير الرسمي

يقصد بالتعليم غير الرسمي مراكز محو الأمية. وقد أطلقت الدولة عام ١٩٧٨م حملة شاملة للقضاء الإجباري على الأمية، حيث توجب على كل مواطن في الفئة العمرية ما بين ١٥ سنة إلى ٤٥ سنة أن يلتحق بمراكز محو الأمية لإنهاء الصف الرابع من تعلم القراءة والكتابة والحساب. وكان نتيجة هذه الحملة أن انخفضت نسبة الأمية في الفئة العمرية من ١٥ سنة إلى ٤٥ سنة من ٤٨٪ عام ١٩٧٨م إلى ١٩,٩٪ في عام ١٩٨٧م، وبسبب فعالية هذه الحملة منحت اليونيسكو خمس جوائز للعراق. وفي الوقت الحاضر، تصل نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة من الرجال ٧١٪ ومن النساء ٤٥٪.

وقد أسست مدارس خاصة كثيرة في إطار الحملة المذكورة وتأسست «مدارس شعبية» كانت تعنى بمنع الشباب من سن ١٥ سنة إلى ٣٥ من العودة إلى الأمية، وتأسست «مدارس الشباب» للأطفال الذين يتسربون من المدارس بين عمر ١٠ سنوات إلى ١٥ سنة والذين لا يمكن قبولهم في المدارس الابتدائية.

ونتيجة الحصار والصعوبات المالية، تباطأت الحملة بصورة كبيرة في أوائل التسعينيات، وانخفضت بصورة حادة أعداد مدارس الشباب



والمدرسين والطلاب في التعليم غير الرسمي بين السنوات الدراسية (١٩٩٠ - ١٩٩١م)، (١٩٩٨- ١٩٩٩م)، وانخفض عدد المسجلين في دورات التعليم غير الرسمي من ٩٤٣٢ إلى ٣٨٨ فقط، بينما انخفض عدد المدارس التي تعطي هذه الدورات من ١١٢ مدرسة إلى ٤ فقط.

جاهدت وزارة التربية والتعليم كثيرًا في كفاحها لمحو الأمية وخصوصًا بين الفتيات. وأنشأت الوزارة في عام ١٩٩٤ - ١٩٩٥م بالتعاون مع اليونيسكو والاتحاد العام للمرأة العراقية برنامجًا للتعليم غير الرسمي للبنات من سن العاشرة فما فوق، ويغطي هذا البرنامج نشاطات أساسية لمحو الأمية والأشغال اليدوية والرعاية الصحية وتصنيع الأغذية... إلخ.

وفي عام ١٩٩٥م، تم تنظيم ١٢١٧ برنامج تدريب استفادت منه ١٨٨٨٤ فتاة وامرأة (بينهن ٧٠٠٠ في الفئة العمرية من العاشرة إلى ١٧ سنة وهي الفئة العمرية المستهدفة من البرنامج).

ولا شك أن هناك حاجة ماسة الآن لبرنامج تأهيل وإعادة بناء للمعاهد والمرافق اللازمة لتقديم التعليم غير الرسمي وكذلك للمعلمين في هذا المجال. ويجب توفير مصادر التمويل اللازمة ووسائل التعلم بالإضافة إلى إطلاق حملة وطنية لتسهيل وتشجيع الأميين على الانخراط في برامج معرفة القراءة والكتابة خاصة وقد فات البلاد الكثير بسبب الظروف التي مرت بها، حتى إن الأمية أصبحت منتشرة لا بين الكبار ولكن بين من هم في سن التعلم والدراسة بسبب ارتفاع نسب التسرب من التعليم وتدهور الظروف الاقتصادية بسبب الحروب المتكررة التي ضيعت ثروات البلاد.

التعليم العالي

يستطيع العراق أن يفاخر بامتلاك أقدم الجامعات في العالم، ونعني بها الجامعة المستنصرية، التي تم تأسيسها عام ١٢٨٠م. ومع أن نشاط الجامعة قد توقف، إلا أن هناك جامعة تحمل الاسم نفسه لا تزال قائمة إلى اليوم.

وتتكون مؤسسات التعليم العالي في العراق من ١٩ جامعة (منها ٣ في الشمال) و٩ كليات فنية (في الوسط والجنوب) و٣٨ معهدًا تقنيًا (منها ١١ في الشمال).

بلغ مجموع الملتحقين بالتعليم العالي للعام ٢٠٠١-٢٠٠٢م في جميع أنحاء العراق ٣١٧٩٩٣ طالبًا منهم ٢٩٧٢٩٢ في الوسط والجنوب و٢٠٧٠١ في الشمال، وبلغ عدد الأساتذة ١٤٧٤٣ معلمًا منهم ١٣١٦٧ في الوسط والجنوب و١٥٧٦ في الشمال.

دراسة «البكالوريوس» في العراق تحتاج إلى ٤ سنوات ماعدا في الطب البيطري والصيدلة وطب الأسنان فهي تحتاج إلى ٥ سنوات، أما الطب البشري فيحتاج إلى ٦ سنوات. ودرجة الماجستير تتطلب من ٢ إلى ٣ سنوات من الدراسة، وتحتاج درجة الدكتوراه من ٣ سنوات إلى ٨ سنوات. أما المعاهد الفنية فتمنح درجة الدبلوم العالي من خلال ما تقدمه من دورات قصيرة المدى.

يتم قبول الطلبة في الجامعات العراقية على أساس شهادة الثانوية العامة أو ما يعادلها. وهناك طلب كبير على كليات الطب

والهندسة والعلوم، أما كليات الدراسات الإنسانية فليس لها اعتبار كبير. وتحتوي كل الجامعات على كليات تربية لتخريج المعلمين وخصوصًا للمدارس الثانوية. ولغات التدريس هي العربية والإنجليزية في الوسط والجنوب، والفرنسية في جامعة الموصل فقط، واللغتان الكردية والإنجليزية في الشمال، وفي بعض الأحيان، يدعى أساتذة من بغداد للتدريس في جامعات الشمال.

تبدأ السنة الأكاديمية في شهر أكتوبر من كل عام، وتمتد إلى ثلاثين أسبوعًا وتقوم الدولة بتمويل الجامعات، باستثناء الكليات الخاصة، ومع ذلك، ونتيجة الظروف الصعبة التي سادت خلال السنتين الماضيتين في الوسط والجنوب، يطلب من الملتحقين الجدد دفع ما قيمته ١٢ دولارًا أمريكيًا كرسوم تسجيل.

أهم جامعات البلاد هي جامعة التكنولوجيا (بغداد)، جامعة المستنصرية، جامعة بابل، جامعة الكوفة، جامعة البصرة، جامعة الموصل، وجامعة ذي قار، وفي محافظات الشمال هناك جامعة صلاح الدين، وجامعة دهوك، وجامعة السليمانية.

تحاول المنظمة الدولية أن تضطلع بالقيام بدور فعال في مرحلة إعادة إعمار العراق وقيام حكومة وطنية منتخبة في البلاد ، لكن هذا الدور ما زال يصطدم برفض الولايات المتحدة أن يتولى غيرها مسؤولية إدارة البلاد

وتتضمن المشكلات والقضايا الكبرى لمؤسسات التعليم العالي ما يلي:

- عدم كفاية البنية التحتية والتسهيلات، كالمختبرات والمكتبات.
- عدم كفاية المعدات، في كليات الهندسة والعلوم والمعاهد الفنية.
- الحاجة إلى إنشاء قنوات اتصال بين الكليات في العراق والجامعات الأجنبية.
- ضعف العلاقة بين التعليم العالي وخريجيه وسوق العمل.
- الحاجة إلى مراجعة شاملة لأنظمة الإدارة للتعليم العالي، بما في ذلك تكييف المناهج ومحتويات الفصول الدراسية لمواكبة تغيرات الحالة الاجتماعية والاقتصادية في البلاد. ويجب وضع خطة استراتيجية للتأكد من أن الجامعات ستؤدي دور الوسيط في عملية التحول الديمقراطي، وضمان وصول الجميع إلى مواقعهم حسب جدارتهم، ووفق أسس مهنية وليس أسس سياسية.
- تخفيض الدعم الحكومي للطلبة، وتشجيع القطاعين العام والخاص على الاضطلاع بدورهم في دعم التعليم العالي، والتعجيل بإجراء مشروعات وإصلاحيات اقتصادية لتخفيف الضغوط التي يعيشها المجتمع وتؤثر في تطوره العلمي.

دور اليونيسكو في العراق

حاولت الأمم المتحدة، قبل غزو القوات الأمريكية للعراق وإسقاط حكومته، أن تجد السبل الفعّالة والمجدية لمساعدة الشعب العراقي في تحقيق أهدافه. وتحاول المنظمة الدولية أن تضطلع بالقيام بدور فعال في مرحلة إعادة إعمار العراق وقيام حكومة وطنية منتخبة في البلاد، لكن هذا الدور ما زال يصطدم برفض الولايات المتحدة أن يتولى غيرها مسؤولية إدارة البلاد بعد أن خاضت حربًا منفردة بعيدًا عن الشرعية الدولية في العراق، ولم يساندها في ذلك إلا بريطانيا.

وقد وقع على عاتق اليونيسكو مسؤولية واضحة، وإن كانت مشتركة بالطبع مع آخرين، في الإشراف على تحسين أوضاع المؤسسات التعليمية والثقافية في العراق، وذلك في إطار برنامج «النفط مقابل الغذاء» وقد استطاع برنامج اليونيسكو أن يحرز

النتائج التالية:

- إصلاح/ بناء ١٥٧ مدرسة ثانوية و٨٩ مرفقًا للتعليم العالي.
- تأمين نقل زهاء ٢٠ ألف تلميذ في المناطق الريفية إلى المدارس وتوزيع عربات على المؤسسات التعليمية تفوق قيمتها الإجمالية ٦ ملايين دولار.
- تدريب ١١ ألفًا من معلمي الثانوية و١٨٠٠ من أعضاء هيئات التدريس بالتعليم العالي.



- توزيع ١٥٢ ألف مكتب مدرسي.
- توزيع كتب مدرسية على المدارس الثانوية تبلغ قيمتها الإجمالية ١,٥ مليون دولار وتوفير معدات لطباعة ما يزيد على مليونين من الكتب المدرسية.
- إجراء دراسة استقصائية لسوق العمل من أجل تحديد الاحتياجات والاتجاهات الراهنة في المجالات العمالية.
- تنفيذ مشروع لإنتاج الخرائط المدرسية المستخدمة في التعليم الثانوي.
- تقديم الدعم لوضع السياسات وإعداد خطة استراتيجية مدتها ثلاث سنوات.
- إنشاء ثلاثة مراكز للموارد المتعددة الوسائل توفر وثائق ومواد في مجالات التربية والعلم والثقافة وغيرها من المجالات التي تندرج في اختصاص اليونيسكو.
- في أعقاب النزاع، حثت اليونيسكو بقوة على الإسراع في إعادة تشغيل المؤسسات التعليمية وإتمام السنة الدراسية ٢٠٠٢- بداية ٢٠٠٣م، التي انقطعت نتيجة النزاع في منتصف شهر مارس ٢٠٠٣م، وذلك لإيجاد إحساس بعودة الأوضاع إلى طبيعتها وإحياء الأمل في المستقبل. وقدمت اليونيسكو كل ما سهل تنظيم امتحانات نهاية العام الدراسي في شمال العراق، وكل ما يلزم لتنظيم امتحانات نهاية العام الدراسي في الوسط والجنوب.
- بحثت اليونيسكو مع معهد الولايات المتحدة للسلام ومركز تسوية النزاعات الدولية في جامعة كولومبيا إمكانات إعداد برامج ترمي إلى بناء التوافق وتحسين نوعية التعليم العالي في العراق.
- تبحث اليونيسكو حاليًا مع عدة شركاء مسألة تجديد التعليم العالي في العراق، ونذكر في هذا المجال مبادرة صاحبة السمو الشيخة موزة بنت ناصر المسند من قطر، المبعوثة الخاصة لليونيسكو للتعليم الأساسي والعالي، من أجل دعم إنعاش التعليم العالي في العراق.

وقد وقع كل من صاحبة السمو والمدير العام لليونسكو في ٢٣ يونيو ٢٠٠٣م، على مذكرة تفاهم لإنشاء صندوق دولي لترميم التعليم في العراق، مع تبرع حكومة قطر بمبلغ أولي قدره ١٥ مليون دولار. وسيكون الصندوق مفتوحًا لمانحين آخرين.

*** مراجع البحث:**

١- دراسة تحليلية لأوضاع التعليم في العراق ٢٠٠٣م، اليونسكو.

٢- تقرير المدير العام عن المؤسسات الثقافية والتعليمية في العراق، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، ٢٠٠٣م.

هناك أطراف تحاول عرقلته :

البحث العلمي والإصلاح الجامعي

أسعد الخفاجي . أمريكا*



* رئيس تحرير المجلة العلمية العراقية ، أستاذ جامعي في الولايات المتحدة .

يشمل التعليم العالي في العراق جميع المعاهد العليا (سنتان) والكليات (أربع سنوات وأكثر) فوق المرحلة الإعدادية. والتعليم الجامعي يتخصص بالتعليم في الكليات. وقد تأسست المعاهد الفنية والكليات في العراق مع نشوء الدولة العراقية كمملكة مستقلة عام ١٩٣٢م. وفي الثلاثينيات تأسست في العراق كليات الطب والهندسة والعلوم والحقوق والزراعة والتجارة. وقد توحدت تلك الكليات الموجودة في العاصمة العراقية في عام ١٩٥٩م لتصبح أول جامعة عراقية، سميت بجامعة بغداد.

وكان لرئيس الجامعة، الذي يتمتع بدرجة وزير، قدر معين من الاستقلالية في صنع القرارات التي تخص التعليم العالي. ومنذ عام ١٩٧٠م ألحق قطاع التعليم العالي بجميع مفاصله التدريسية والإدارية بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي، فاقدًا بذلك آخر بقايا الاستقلال الأكاديمي، وهكذا خضع هذا القطاع كلية لسيطرة الحكومة. واستثني من تلك السيطرة جزء ضئيل منه، كان يغذي بعض الجهات الحكومية بالموارد البشرية المطلوبة، كوزارة الدفاع ووزارة النفط والمعادن ووزارة الصناعة والتصنيع العسكري ومنظمة الطاقة الذرية. وقد خضعت الفروع الطبية والهندسية والعلمية المتعاونة والمرتبطة بتلك الجهات الحكومية لتعليمات خاصة في سياسات القبول والمناهج كانت تصدر إليها من تلك الوزارات والجهات الرسمية.

فشل التعليم العالي في العهد السابق

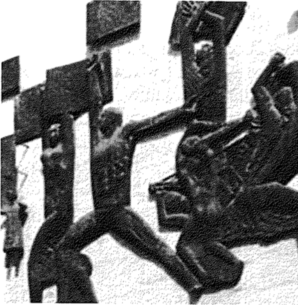
من المعروف أن قطاع التعليم العالي ينهض بمتطلبات أساسية تصب في خدمة المجتمع عبر الجهود التي يقدمها لإشاعة المعرفة العلمية والتكنولوجية بشقيها النظري والعملي التطبيقي، وتوظيفها لتحقيق أهداف اجتماعية واقتصادية أساسية كالتعاون والتفاعل الحيوي المتبادل مع قطاعات الصناعة والزراعة والتجارة والصحة والتربية وغيرها من قطاعات الدولة المختلفة من خلال رفدها بالموارد البشرية الكفؤة، والقيام بالأبحاث العلمية والتكنولوجية الاستراتيجية.

يتطلب التعليم العالي، لكي يستطيع النهوض بواجباته، ركيزتين أساسيتين: الأولى وتشمل الموارد البشرية والمادية كالتخطيط والرقابة والموارد المالية الثابتة، بالإضافة إلى الحوافز للتطوير الأكاديمي والبحث العلمي وتوفير الخدمات والموارد التي تشمل الأبنية والقاعات والمختبرات والمكتبات ووسائط النقل. والثانية وتشمل الاستقرار المادي والنفسي للدارسين والهيئة التدريسية والإداريين على حد سواء، وهذا يستلزم بالضرورة ضمان حرية المجتمع الأكاديمي (المؤلف من الهيئة التدريسية والفنيين المساعدين والطلاب والجهاز الإداري) وسيادة المناخ الديمقراطي المستقل فيه. ونعني بذلك استقلال مؤسسات التعليم العالي عن الدولة وغيرها من قوى المجتمع المتداخلة، وحرية صنع القرارات المتعلقة بسير العمل الداخلي فيها وبماليتها وإدارتها، وإقرار سياساتها في التعليم والبحث العلمي وغيرها من الأنشطة ذات الصلة. أما الحرية الأكاديمية فتعني حرية أعضاء الهيئة التدريسية، فرديًا أو جماعيًا، في متابعة المعرفة وتطويرها وتحويلها، من خلال البحث والدراسة والمناقشة والتوثيق والإنتاج والخلق والتدريس وإلقاء المحاضرات والكتابة والتأليف والنشر.

ويمكن إرجاع فشل التعليم العالي في ظل النظام التوتاليتاري السابق في تأدية دوره المطلوب إلى أسباب فشل السياسة المركزية المتسلطة والمتحجرة وغير المرنة إجمالاً، وغياب حالات التخطيط العلمي السليم وعدم منح المجتمع الأكاديمي القدر الكافي من الحرية في التعليم والتعلم والبحث العلمي والأداء

الإداري، إضافة إلى انخفاض المستوى العلمي والقيادي اللازم لأعضاء المجتمع الأكاديمي، كذلك افتقار الموارد الضرورية لتطوير المناهج والأساليب والوسائل التعليمية بما يتلاءم ومتطلبات العصر الحاضر. أضف إلى ذلك غياب الحرية الأكاديمية والسيطرة المطلقة على مفاصل وعناصر القطاع.

لقد أدت السياسة الحكومية المركزية الخاطئة بالتعليم العالي، شأنه شأن باقي المؤسسات والنشاطات الاجتماعية والثقافية، إلى التدهور التدريجي وفقدان القدرة على مواكبة التطور العالمي، كحتمية تأريخية لعصر تقنية المعلومات والعولمة والثورة التكنولوجية. ونتج هذا التدهور بالدرجة الأولى عن هجرة الكوادر التدريسية ذات الاختصاصات الحيوية كالطب والعلوم والهندسة والاقتصاد إلى الخارج، في الوقت الذي أحجمت الدولة فيه عن إرسال الطلبة في بعثات علمية إلى الخارج لتعويض المفقود من أعضاء الهيئة التدريسية.



على الضد من ذلك راحت تقضي على التقاليد والمعايير الأكاديمية العتيدة التي كان العراق يتميز بها لحد السبعينيات من القرن الماضي، مثل عدم اعتماد الخريجين من حملة الشهادة الجامعية الأولية (البكالوريوس) كأعضاء في الهيئة التدريسية وتعيينهم بدلاً من ذلك بوظائف فنية مساعدة لمدة أقصاها خمس

مستقبل البحث العلمي في العراق

متي ناصر مقادسي . بغداد*

بصورة عامة فإن القاعدة العلمية المادية للبحث العلمي في العراق ضعيفة جدًا تاريخيًا، وفي العقدين الأخيرين لم يجر عليها أي تطور بخصوص الجامعات. أما المنشآت الصناعية الأخرى فقد تدمرت وتبعثرت ولم يبق منها إلا الأرض المخربة أيضًا.

بالنسبة إلى الجامعات العراقية فإن المختبرات البحثية فيها قليلة جدًا وقديمة. ولهذا فالإمكانات البحثية فيها محدودة جدًا حتى في جامعة بغداد والجامعة التكنولوجية وجامعة المستنصرية وجامعتي الموصل والبصرة.

لهذا فهي تحتاج إلى جهود مضنية وتوفير الأموال اللازمة لتأسيس مختبرات بحوث متقدمة، هي في أمس الحاجة إليها.

فضلاً عن ذلك فإن البحث العلمي والتكنولوجي في عصرنا لا يحتاج إلى قاعدة

جامعة بغداد-كلية العلوم قسم الفيزياء.

سنوات، يبعدون بعدها من حقل التعليم، ما لم يطوروا أنفسهم بالحصول على شهادة أعلى (الماجستير أو الدكتوراه). وانتهى العمل بتلك القاعدة الأكاديمية التي حفزت المساعدين من حملة البكالوريوس على الحصول على الشهادات العالية من جهة، وحافظت على المستوى العلمي الأكاديمي، من جهة أخرى. كذلك قاطعت الجامعات العراقية في ظل ذلك النظام، لأسباب أمنية مفتعلة، التعاون مع الجامعات الخارجية التي كانت تستعين بها في تقييم البحوث الأكاديمية وبحوث الدراسات العليا، بالإضافة إلى بحوث ترقية أعضاء الهيئة التدريسية. ولم تعد الجامعات الأجنبية المعروفة، بالمقابل، تعترف بالشهادات الممنوحة من الجامعات العراقية، كما هي الحال في السابق.

ولعل التدخل الحكومي السياسي في عملية قبول الطلبة في الجامعات العراقية في ظل النظام السابق هو أخطر عامل ساعد على تدهور التعليم العالي وفقدانه السمعة والرصيد العلمي على المستويين العربي والدولي. ففي بداية كل عام دراسي، كانت عمادات الكليات العراقية تتسلم ثلاث قوائم بأسماء الطلبة

ولعل التدخل الحكومي السياسي في عملية قبول الطلبة في الجامعات العراقية في ظل النظام السابق، هو أخطر عامل ساعد على تدهور التعليم العالي وفقدانه السمعة والرصيد العلمي على المستويين العربي والدولي

المقبولين في فترات زمنية على التتابع. تتضمن القائمة الأولى أسماء الطلبة المقبولين دون شروط! فأما أن يكون الطالب من هذه القائمة الخاصة ابن وزير أو قائدًا حزبيًا أو ما شابه ذلك، فيعفى في هذه الحالة من كل شروط القبول. وتضم القائمة الثانية أسماء الطلبة العرب المتعاونين مع النظام، الوافدين عن طريق المنظمات الحزبية المرتبطة بالحزب الحاكم. ولا تنطبق على أسماء هذه القائمة

علمية بحثية واسعة وقابلة للتطور الدائم بما يستجد من أجهزة متقدمة فقط، ولكن في الوقت نفسه بحاجة إلى ورش تقنية متقدمة عالية الدقة وتعمل بالعقول الإلكترونية. وهذا ما هو موجود في جامعات العالم المشهورة. إن كليات جامعات العراق العريقة، ولتكن كلية العلوم في جامعة بغداد مثلاً، تفتقر إلى ورشة فنية صالحة بجميع أقسامها العلمية التسعة، فكيف يتوفر البحث المنتج؟! ونحن نعرف أن أكثر الفتوحات العلمية تظهر من الجامعات ومراكز البحوث المرتبطة فيها.

إن مستقبل الأبحاث في العراق لا يكون بأحسن مما كان ما لم تدرس حالة القاعدة المادية، وتوضع خطة شاملة تبنى على أساس حاجة البحث العلمي المتكامل والشامل وترصد لها الأموال اللازمة.

في مثال (وإن كان كارثيًا) كيف يمكن أن تنفذ أعلى درجات الأبحاث العلمية إن توفرت القيادة المتجاوبة مع مطالب العلماء؟ عندما كانت حمى تطوير أسلحة الدمار الشامل في سباق مع الزمن أوائل الحرب العالمية الثانية بين الدول المتحاربة، قدم مجموعة علماء في أمريكا، ومن بينهم أينشتين طلبًا إلى الرئيس روزفلت لتخصيص الأموال اللازمة والأجهزة، وإطلاق حرية عملهم دون روتين حتى يمكن أن يحققوا إنتاج القنبلة الذرية، وفعلاً قدم لهم كل ما كانوا

سوى بعض الشروط الأكاديمية السهلة. وتسد القائمة الثالثة الشاغر المتبقي في المقاعد الدراسية، وتتضمن أسماء الطلبة العراقيين من عامة الشعب الذين يخضعون لأقسى وأصعب الشروط الأكاديمية إضافة إلى الشروط السياسية كالانتماء الجبري للحزب الحاكم، على سبيل المثال. ومن الطريف في الأمر أن طلابًا معروفين من القائمة الخاصة، مثل عدي صدام حسين ومحمد ميشيل عفلق وغيرهما بالمئات، تخرجوا في كليات الطب والهندسة والعلوم والقانون، دون أن يعرفوا، على الأقل، أين تقع بنايات الكليات التي تخرجوا فيها بامتياز! ومن أسباب الخراب النفسي والعلمي والمادي الذي لحق العملية التعليمية وأصاب كبد المجتمع الأكاديمي ما كان يحصل للعديد من الطلبة والأساتذة كل يوم من عمليات الملاحقة وإلقاء القبض والفصل والسجن والإعدام بحجة الانتماء إلى طوائف سياسية وإثنية لم يحبذها النظام.

إزاء مليار ونصف المليار من الدولارات التي خصصت لتأهيل عدد من الشرطة العراقيين، قرأنا في الصحف أن عشرين مليون يتيمة فقط خصصت لرعاية العلماء العراقيين!!

آفاق الإصلاح الجامعي المنشود

لايشك أحد اليوم، وبعد انتهاء العهد السياسي السابق، في ضرورة وأهمية إخراج قطاع التعليم العالي من دائرة الفشل المزمن الذي آل إليها منذ حوالي نصف قرن من الزمن. ومن الجدير بالذكر أنه يمكن اشتقاق عناصر الإصلاح المطلوب للتعليم العالي من ظروف وأسباب الفشل السابق نفسها. ومن الطريف ذكره في هذا المجال أن أحد الإعلاميين ذا الصلة بالتعليم اقترح على حكومة العهد الجديد أن تعكس اتجاه كل خطوة قام بها النظام السابق فيما يخص التعليم العالي، حينئذ سوف نرى أعظم إصلاح للتعليم يشهده العراق! ونعتقد أن في هذه الطرفة الكثير من عناصر الحقيقة. فلا نجد أي مبرر مثلاً

يطلبون دون إبطاء، واستطاعوا أن ينتجوا ما أنتجوه قبل غيرهم. ويجب أن نذكر أنهم ندموا وأصبحوا رسل سلام، وقام أوبنهايمر وجماعة معه تطوعًا وليس تجسسًا أو لأغراض مادية بإعطاء أسرار القنبلة الذرية إلى الاتحاد السوفيتي حفاظًا على السلام العالمي، وعرض نفسه للإعدام بغية إيجاد التوازن ومنع استعماله مرة أخرى.

البحث والتكنولوجيا الآن في سباق مع الزمن، وعليه فالعراق بحاجة ماسة إلى إعادة شاملة وبرنامج محسوب ماديًا وزمنيًا حتى يستطيع استيعاب العقل العراقي وعبقريته، واستغلال القابليات المختلفة في البحث العلمي والتقني في إطار «انفجار المعلومات».

وكلنا أمل أن تكون للعراق إدارة مخلصة وحريصة تتابع الأبحاث العلمية، وتحقق متطلباتها اليومية والاستراتيجية، فتستجيب لطموح العلماء بإنشاء قاعدة علمية مادية، تستجيب هي الأخرى بدورها إلى كل ما يمكن أن يطلب منها في ميادين البحث والتطوير، وطبيعية الجامعات، وهي أم العلماء ومستهل الفتوحات العلمية، ليست كافية لسد الحاجة الكاملة للوطن، ولا بد من تأسيس مراكز بحوث تقوم بتلبية الأبحاث الميدانية المباشرة. وبالرغم من أن مراكز البحوث التي سندرجها قد يكون قسم منها قد أنشئ وموجودًا، ولكن العهد السابق لم يعط أي اهتمام لبحوث متقدمة جدية مفيدة بل عدها واجهة للدعاية لا بد منها، لأنها

لخطوة النظام السابق في تأميم الكليات الأهلية مثل جامعة الحكمة أو المدارس الثانوية المتميزة ككلية بغداد على سبيل المثال. كذلك ابتعاد قطاع التعليم العالي العراقي تمامًا عن التعاون مع الجامعات الخارجية في إعداد المناهج والبحوث العلمية والإيفادات والبعثات والنشر والمشاركة في المؤتمرات ، للأسباب الأمنية إياها. ثم ما الحكمة في منع الأساتذة من السفر في أثناء عطلهم الصيفية للراحة والاستجمام؟ وما الداعي لتوقف استيراد الكتب والمعدات التدريسية المحدثة سنويًا، في الوقت الذي استمر فيه استيراد المرمر الإيطالي للقصور الرئاسية والأسلحة باهظة الثمن؟ من أخطر ما قد يحيق بالتعليم العالي في هذه المرحلة أن يصار إلى تشويه التراث التعليمي الصادق الذي حاول الحكم السابق أن يبقيه في ثلاجة لعبته السياسية. فللعراق تراث وتقاليد أكاديمية يتميز بها على صعيد المنطقة العربية والعالم. وما يخشاه الحريصون على هذا التراث العراقي أن تتدخل المعايير السياسية (الخارجية) ذات النفوذ محليًا، المعروفة بتحيزاتها وانتماءاتها المعروفة في عرقلة التطور الأكاديمي الحقيقي الذي يعكس طموحات ومصالح أبناء وبنات الشعب العراقي. ويؤمن المصالح الوطنية الحالية والمستقبلية للبلاد بعيدًا عن الاعتبارات الأنانية المعروفة لمنظومة العولمة كالبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية سيئي الصيت!

إن مؤشرات المرحلة الحالية تؤكد بما لا يقبل الشك أن تلك الاعتبارات حقيقية وملموسة وليس وهمًا ناتجًا مما يتهمنا به الآخرون من تبني نظريات المؤامرة! وإزاء مليار ونصف المليار من الدولارات التي خصصت لتأهيل عدد من الشرطة العراقيين. قرأنا في الصحف

لم تكن تحوي أحدث الأجهزة وتقنيات البحث المتطورة، فضلاً عن أن الحكم المستبد والمبذر للأموال لم يكن بحاجة إلى استثمار شئ من أبحاث هذه المراكز أو أن يربطها ببرامج صناعية تطورية.

ومما يجدر ذكره هنا أن مجلس البحث العلمي الذي تأسس في العراق في سنة ١٩٨٠م، وكان يضم عددًا من مراكز البحوث، وحاول جاهدًا تطوير أبحاثه، وعقد مؤتمرات علمية دولية استفاد منها كثير من علماء العراق، ولكن مع هذا كان مقيد الصرف على القاعدة المادية العلمية المطلوبة، وفي سنة ١٩٨٩م تم إلغاؤه وبعثرة أجهزته بحجة أنه لم يستطع أن يقدم ما هو مطلوب منه، بدلاً من أن يدرس السبب وتوضع خطة وبرنامج لكل مركز بعدئذ لتنفيذه، بعد إطلاق يد الباحثين والمركز بتوفير المستلزمات المادية للتنفيذ. فكيف نطلب من مركز بحوث تحقيق عمل دون أن تتوفر له المستلزمات اللازمة؟

ومن المراكز التي نرى ضرورة إنشائها أو تطوير أعمالها هي:

*** مراكز بحوث علمية للتقنيات الحديثة**

وهذه قد تتضمن بحوث الكهروبصريات، والإلكترونيات، والبوليمرات، والمواد المتراكبة، والاتصالات، والتوصيلية الفائقة في درجات الحرارة العالية والتقنية الحياتية وغيرها من التقنيات الحديثة، ولسنا بصدد مناقشة أهمية هذه، حيث إن كل

أن عشرين مليون يتيمة فقط خصصت لرعاية العلماء العراقيين!! فأين هي ياترى حصة الجامعات ومؤسسات البحوث من المليارات التي تنهال على العراق منذ شهر سبتمبر الماضي؟ وهل نصدق أن الأطراف السياسية التي تحابي طرفًا معينًا في الشرق الأوسط سوف تتحمل أن ينهض العراق بعلمائه وقدراته الاقتصادية الهائلة لكي يأخذ نصيبه من التطور والتقدم العلمي والتكنولوجي دون تفعيل تلك (الاعتبارات) وجعلها جدارًا يمنعه من القيام بتلك النهضة؟ ولدينا أكثر من دليل على ذلك التخوف، منها، على سبيل المثال، عدم الاعتراض على تدمير المفاعل النووي تموز قبل عشرين عامًا المخصص للأغراض السلمية البحتة وللبحوث العلمية والتقنية المتطورة.

إزاء تلك المعطيات لابد من ذكر بعض المقترحات التي نراها أساسية لإصلاح الواقع المريض للتعليم العالي في العراق. ولا ينبغي أن نغفل شروط الحالة الشاذة والمعقدة القائمة في هذا البلد الممزق فعليًا على كل الأصعدة.

ولانستغرب من حقيقة أن العهد السابق كان يعلم بنهايته الحتمية هذه. لكن الذي ينبغي الإشارة إليه أن ذلك العهد قد برع في جعل البلاد تعيش في قوقعة محكمة محصنة ضد أي تغيير محتمل. وبين ليلة وضحاها وجدت مؤسسات التعليم العالي نفسها بلا قيادة، بلا سياسة، بلا خطة عمل. ومع دخول قوات أجنبية إلى العراق ووضع مقاليد السلطة الجديدة بيد الاحتلال الأجنبي، ويضمن ذلك قطاع التعليم العالي، نرى اليوم فراغًا مخيفًا في ذلك القطاع، يشمل جميع مستويات القيادة والمجتمع الأكاديمي على وجه الخصوص. وقد أبدع النظام السابق في عزل كل العناصر الجامعية الكفؤة المناوئة والمعارضة للخط السياسي الصدامي، إما بتصفيتها جسديًا، أو بنفيها إلى الخارج، أو نقلها إلى قطاعات لاشأن لها بالتعليم، مما جعل هذا القطاع الحيوي بعد تغيير النظام خاويًا وخاليًا من أية خطة طارئة للعمل، بغض النظر عن صدقيتها أو فاعليتها.

يتعين على الحكم الحالي المؤقت والحكومات المنتخبة القادمة أن تنظر إلى التعليم العالي كونه من المجالات الحيوية التي يتقدم بها المجتمع وتزدهر البلاد

قارئ في هذا العصر يلمس ويعيش ويستخدم هذه التقنيات ويلاحظ التطور النوعي الدائم في إنتاجها.

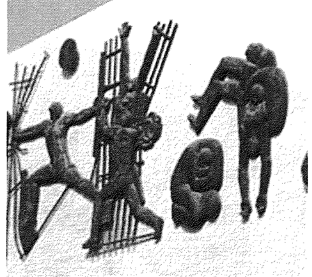
لذا تكون الحاجة ملحة لتأسيس مراكز بحوث تلاحق التطورات السريعة، وتتعاون مع المؤسسات والمصانع التي قد تنتج أجهزة ذات علاقة بالأبحاث.

*** مراكز البحوث الطبية**

العراق بحاجة إلى كثير من الأجهزة الطبية الحديثة والمتطورة ذات التقنيات الدقيقة والتي بدونها لا تثمر البحوث الطبية، وبسبب الرواتب القليلة جدًا للأطباء ضعف البحث العلمي كثيرًا، وبرغم التحسن ما زال راتب الطبيب لا يتجاوز ١٥٠ دولارًا في الشهر، فكيف تنمو الأبحاث، أو يندفع في الخدمة، ناهيك من البحوث وتطوير الحالة العلمية المادية. يكفي أن نضرب مثلاً: خريجو إحدى السنين (١٩٩١م) من الأطباء ٨٦٤ طالبًا من جميع كليات الطب، هرب منهم خلال سنة تخرجهم ٦٩٠ طبيبًا وهكذا باقي الدورات التي قبلها وبعدها، حيث كان راتب الطبيب لا يتجاوز ما يعادل دولارين في الشهر (٣٠٠ دينار عراقي) في سنة ١٩٩٤م.

مما سبق يبدو أن العراق بحاجة إلى ثورة ناهضة في النشاط الطبي لإرجاع الأمور إلى حالتها الطبيعية، حتى يأخذ العلماء الأطباء بأيديهم المسؤولية - فضلاً عن عملهم الروتيني اليومي - لأبحاث تتناول الحالة المرضية العامة

اجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا. ومع الاهتمام بعناصر التحديث والتطوير التي يجب توفرها، نجد أن التعليم العالي يستلزم بالدرجة الأولى أن يعيد تركيب البنية التحتية المجتمعية، بالالتفات صوب القيم الاجتماعية الجيدة. وأول ما يجب العناية به من أدوات الإصلاح الجامعي هو الالتزام الكامل بكافة بنود الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٨م، وإعلان ليما بشأن الحرية



الأكاديمية واستقلال مؤسسات التعليم العالي الصادر عن المنظمة العالمية للخدمات الجامعية في ديسمبر عام ١٩٨٨م والذي أكد على «التنمية الكاملة للشخصية البشرية وإحساس الإنسان بكرامته» وتعزيز واحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية والسلم والتعليم بما يمكن جميع الأشخاص من المشاركة بفعالية في بناء مجتمع حر يقوم على المساواة، ويشجع على التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الأمم وجميع المجموعات العنصرية أو العرقية أو الدينية، كما يشجع على التفاهم المتبادل والاحترام والمساواة بين الرجل والمرأة، والمساواة الاجتماعية والسلم والتطور المتكافئ لكل الأمم وحماية البيئة، كما ينبغي لكل دولة أن تكفل الحق في التعليم دون تمييز من أي نوع فيما يتعلق بالعنصر أو اللون او الجنس أو اللغة أو الدين، أو المعتقد السياسي أو غيره من المعتقدات، أو الأصل القومي أو الاجتماعي، أو الوضع الاقتصادي، أو حالة الميلاد أو غيرها. ■

والأمراض الخطيرة، التي يعانيها الشعب العراقي بسبب ظروف الحياة الصعبة، وإطلاق حرية حركتهم في توفير المستلزمات الضرورية ذات التقنية العالية لعملهم.

*** مركز بحوث النفط**

يدرس ويبحث في إنتاج كل ما يمكن استخلاصه من هذه المادة مثل البتروكيماويات، والنايلون، والبلاستك، والأسمدة، والأدوية، والأصباغ، والمبيدات، والمطاط الصناعي وغيرها، فضلاً عن أهمية تطوير إنتاج الزيوت والمشتقات النفطية الأخرى، حيث إن المشتقات الحالية لا تنافس مثيلاتها الخارجية.

*** مركز البحوث الحيوانية**

هذا الموضوع لم يعط أهمية خاصة طيلة السنين السابقة، ولم تتبع أبدًا الطرق العلمية الحديثة في تطوير تكاثر الأبقار والأغنام وزيادة عطائها، ونعتمد على استيراد العجول، بينما العراق مؤهل للتربية والتكاثر، وهكذا بالنسبة لباقي الفقرات. إن الوضع رديء إلى درجة أن السوق المحلية مليئة بالحليب والأجبان المستوردة، والمنتج المحلي لا يفي بـ١٠٪ من الحاجة الوطنية. ولهذا فالعراق يفتقد الأمن الغذائي من هذه الناحية.

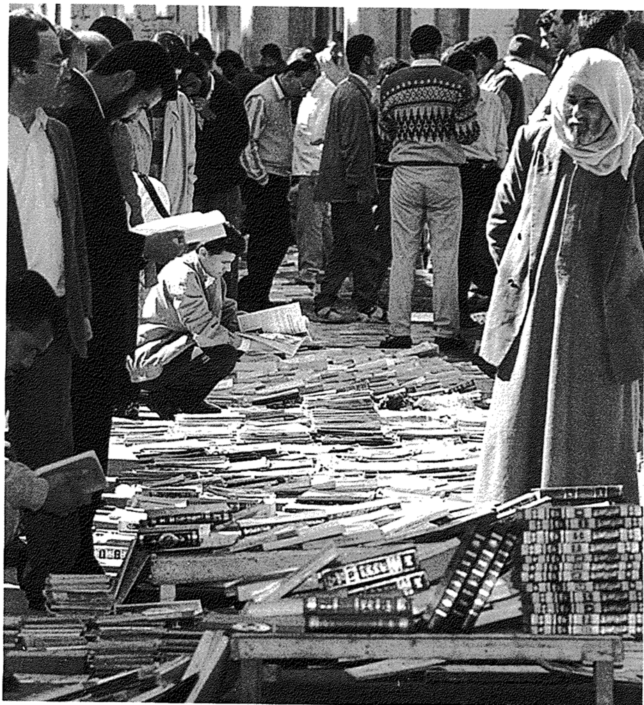
كما تتوجب الضرورة الاهتمام بالمراكز الآتية:

* مركز بحوث الموارد المائية.
* مركز بحوث الفضاء.
* مركز بحوث الطاقة المتجددة.
* مركز بحوث البيئة وحمايتها. ■

سبعة أنساق في منظومة مقترحة

فلسفة الثقافة والتربية البديلة في العراق

ميثم الجنابي . موسكو



*استاذ في العلوم الفلسفية والإسلاميات الجامعة الروسية ، موسكو .

يشكل ميدان التربية والتعليم في ظروف العراق المعاصرة الميدان الأكثر يقينًا لتحقيق فكرة الثقافة البديلة. والقضية هنا ليست فقط في أن العقود الثلاثة الأخيرة من حكم الدكتاتورية وحروبها المستمرة قد انهكت المجتمع عبر عزلها جيلين على الأقل عن العلم والمعرفة، بل ولتشويهها بنية المعرفة وأصولها من خلال سيطرة الهامشية الاجتماعية والسياسية على مقاليد الحكم، والتحكم المفرط للأيديولوجية البعثية الفجة في كل شيء.

وبما أن الثقافة هي الميدان الأكثر رقة وشفافية، من هنا خرابها الفظيع في ظروف العراق الحالية. وهو خراب يمكن ملاحظته بوضوح في تشوه المدرسة وبنيتها التربوية والتعليمية. بينما تشكل المدرسة العمود الفقري للثقافة والعلم والمعرفة، إذ لم تكن «إنجازات» المرحلة الدكتاتورية في هذا الميدان في الواقع سوى استنزاف الطاقات العلمية والثقافية الهائلة المتراكمة في العراق حتى ١٩٦٨م (عام اغتصاب البعث الصدامي للسلطة). وهو حال يمكن ملاحظته بالعين المجردة دون الرجوع إلى الإحصاءات المخزية التي تشير إلى مستوى الهبوط المثير الذي وصلت إليه المدرسة العراقية في جميع المجالات والمستويات، بدءًا من «تربيتها» للجهل وانتهاء بالحالة المزرية للمعلم والمعلمة (راتب يومي بقدر خمس سنتات!) مع ما يرافق ذلك من هبوط أخلاقي ومعنوي وتربوي وعلمي. وهو واقع لا معنى لتناوله بإسهاب، وذلك لأنه لا يحتوي في حد ذاته على ما يستحق التأمل والفحص والتدقيق. بمعنى أن كل ما فيه هو نتاج لسياسة التخريب التي ميزت تاريخ ونموذج التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية في العراق. فقد كانت هذه التوتاليتارية والدكتاتورية خروجًا صارخًا على حقائق التاريخ والعقل والمنطق. وهو أمر جلي للغاية في طبيعة وكيفية انهيارها وزوالها وكذلك في «ديمومة» الإدانة الأخلاقية والتاريخية لها في الذاكرة العراقية، ما يخفف بدوره من «مهمة» إعادة بناء التربية والتعليم من الناحية المعنوية، ولكنه يثقلها من الناحية المادية.

فمن الناحيتين المعنوية والسياسية ينبغي رمي كل «تجارب» التوتاليتارية والدكتاتورية إلى المزبلة. وهو فعل لا يتصف بالتشفي السياسي، بقدر ما ينبع من إدراك طبيعة هذه «التجارب» التي لم تكن في الواقع سوى ممارسة الجهل والتجهيل والتخريب المادي والمعنوي لأسس وأصول التربية والتعليم المتراكمة في العراق والعالم والتاريخ. أما من الناحية المادية، فإن القضية أشد تعقيدًا بسبب الخراب الهائل للبنية التحتية في العراق بشكل عام وفي ميدان التربية والتعليم بشكل خاص. وبما أن حالة التربية والتعليم هي معيار حقيقي لمستوى تطور المجتمع والدولة والثقافة والعلم والمعرفة، فإن مؤشراتهما في ظروف العراق الحالية بعد سقوط الدكتاتورية تشير إلى مدى الخلل

البنيوي الهائل فيهما، إذ كل ما في العراق مشكلة. ومفارقة الدكتاتورية البائدة في العراق هي تحويلها كل شيء في الوجود والحياة إلى معضلة، بحيث جعلت من المدرسة معضلة أيضًا. مع أن المنطق والأخلاق والحقيقة يفترض أن تكون المدرسة ميدانًا لحل المشكلات الصغرى والكبرى التي تواجه الدولة والمجتمع.

وهو واقع يفترض بدوره صياغة فلسفة جديدة للتربية والتعليم في العراق تعيد بناء المؤسسة التعليمية بشكل عام والمدرسة بشكل خاص، بوصفها مقدمة الوحدة الضرورية للتربية والتعليم والعمود الفقري للتطور اللاحق. وهنا تجدر الإشارة إلى أن أية فرضية علمية تتعلق بتأسيس البدائل المحتملة لحالة التربية والتعليم الملموسة في العراق، تستلزم بالضرورة الانطلاق من



إمكاناته الواقعية وتحديد الغايات الكبرى منها. وفيما بين المقدمات الواقعية والغايات الكبرى ينبغي إرساء أسس ما يمكن دعوته بمنظومة الرؤية العقلانية للبدائل.

فالمقدمات الواقعية للمدرسة العراقية الحالية ضعيفة للغاية. إنها تعاني خللاً بنيويًا شاملاً في التركيبة والآلية والمنهج، والشيء نفسه يمكن قوله عن بنيتها التحتية سواء ما يتعلق منه بالأبنية والتجهيزات أو الكفاءات. وهو خلل عريق نتاج مرحلة كاملة مما سمّيته بسياسة التخريب والتجهيل. إلا أن العراق يمتلك طاقات كبرى وإمكانات هائلة لتجاوز هذا الخلل البنيوي من الناحية المادية. وهو تجاوز قابل للتحقيق السريع في حال تحديد الغاية الكبرى من المدرسة باعتبارها أساس التنمية الشاملة والرقي الحضاري، مما يفترض بدوره أن تحصل على الحصة الكبرى إلى جانب الصحة من ميزانية الدولة. والسياسة العقلانية بعيدة المدى في ظروف العراق الحالية تفترض من الدولة أن توجه ما لا يقل عن ٢٥٪ من ميزانيتها السنوية لمدة ١٧ عامًا للتربية والتعليم والصحة، من أجل رؤية نتائجها المباشرة في تخريج شريحة اجتماعية كبرى تنهي المدرسة بجميع مراحلها من الابتدائية حتى الجامعية ضمنًا.

وهي مهمة قابلة للتحقيق بما في ذلك نتائجها المرجوة في حال استناد التربية والتعليم إلى منظومة متجانسة من الأنساق التربوية والتعليمية تشكل صلب ما سميته بمنظومة الرؤية العقلانية في فلسفة التربية والتعليم البديلة في العراق. وفيما لو اختصرنا الفكرة الجوهرية لهذه الفلسفة، فمن الممكن وضعها بعبارة «تربية التعليم وتعليم التربية في جميع الأنساق الضرورية للمدرسة البديلة في العراق». وهي فلسفة تفترض بدورها تجانس الأنساق ووحدتها، أي جعل الأنساق منظومة والمنظومة أنساقًا متوحدة في الآلية والغاية. وهذا هو الأسلوب الذي يمكنه أن يصنع شخصية متكاملة ذاتيًا بالمعنى الفردي والاجتماعي والقومي.

وتنبع ضرورة الأنساق المتجانسة من إدراك قيمة الأوزان الداخلية، أي من إدراك قيمة الاعتدال بالنسبة لكل فعل إصلاحي كبير. فالأنساق المتجانسة في التربية والتعليم هي أسلوب ضمان



تربية الروح العقلاني المعتدل. وهي الشرط الضروري لتطور الدولة والمجتمع وتراكم الثقافة والمعارف. والمدرسة هي ميدان اختبارها الدائم وتحقيقها الملموس في الأجيال.

فالاعتدال هو الصيغة المثلى للواقعية والعقلانية. أما التربية والتعليم فإنهما بحاجة دائمة إلى وحدة الاعتدال والعقلانية بوصفها أسلوب تراكم وتكامل المعرفة والإبداع، كما أنها أسلوب تأسيس وإعادة إنتاج المدارس الفكرية. وفي هذا يكمن الشرط الضروري لترسيخ وتهذيب الأساليب الواقعية والعقلانية لقطع دابر الراديكالية بمختلف أصنافها. إنها تقطع الطريق على قطاع الطرق، بما في ذلك ميدان المعرفة والتربية. وبهذا تشكل المقدمة الضرورية لتراكم شروط الاجتهاد والإبداع.

إن إدراك الأهمية العلمية والعملية «لتجفيف» منابع الراديكالية، فيما يتعلق بمهمة ترسيخ الأسس العقلانية والواقعية في ميدان التربية والتعليم في العراق المعاصر، تتضح من معايشة وملاحظة أثرها التخريبي الهائل بهذا الصدد. فقد أدت الراديكالية هنا إلى تخريب شامل لحقيقة وأسس وبنية التربية والتعليم، ما يفترض بدوره صياغة رؤية شاملة ومنظومة متكاملة من حيث أنساقها لإعادة الحياة لهما.

وسوف أتناول هنا فقط أنساق المنظومة المقترحة (وهي سبعة) ومبادئها الأساسية في منهج التربية والتعليم. وهي رؤية تتوجه صوب تربية الشخصية وتكاملها الذهني والمعرفي والحسي، بوصفها المقدمة الضرورية لصنع مقوماتها الجوهرية في الإبداع الحر والمسؤول. وليست هذه الرؤية المقترحة سوى نموذج فكري عام لإعادة بناء منهج التربية والتعليم للمدرسة الابتدائية من الصف الأول إلى السادس، باعتبارها أهم وأخطر المراحل الجوهرية في التربية والتعليم.

التربية العقلية:

وهي مقدمة وأساس التربية والتعليم، انطلاقًا من كونها المقدمة الجوهرية للكينونة الإنسانية والتطور العلمي والتقني والازدهار الحضاري. أما المبادئ الأساسية التي ينبغي إدراجها في مناهج التربية والتعليم فهي:

* وحدة الشكل والمضمون في التربية والتعليم.

* أولوية وجوهرية العقل والعقلانية في الكلمة والعبارة والتحليل والرؤية والمواقف.

* ترسيخ الرؤية النقدية (وحدة الماهية والسببية والكيفية العلمية في النظر إلى الأشياء والظواهر من خلال الطرح الدائم للأسئلة الثلاثة: ما هو؟ لماذا؟ كيف؟

* تعزيز الفردانية وتأسيس الفردية الاجتماعية.

التربية الروحية:

وهي الحلقة الثانية المكملة للتربية العقلية، إذ فيها ومن خلالها يجرى تجسيد وتحقيق التربية العقلية، انطلاقًا من أن الميدان الحقيقي للعقل هو الفعل الاجتماعي. وهو فعل يستحيل التحقق منه والبرهنة عليه وكشف السبل المتنوعة أمامه دون بناء الشخصية الأدبية أو الأخلاقية. وهي شخصية قابلة للتكامل المتجانس مع التربية العقلية في حال استنادها إلى المبادئ التالية وهي:

* ترسيخ أهمية القيم الأخلاقية.
* تأسيس القيم الأخلاقية العملية.
* ربط القيم العقلانية والعملية بالتراث القومي والإسلامي والعالمي.
* ربط القيم الأخلاقية بفكرة الحق والحقوق.

التربية الحقوقية:

لا يمكن ربط التربية العقلية والروحية في تنشئة الشخصية الاجتماعية دون تحصينها بفكرة الحق والحقوق. فهي الوحيدة القادرة على أن تعطي لأقوالها وأفعالها وتفكيرها بعدًا متلازمًا بين الحقيقة والحق. وهي المقدمة لتكامل الشخصية المتنورة والفاعلة. أما أهم مبادئها الأساسية فهي:

* التأسيس العقلاني والأخلاقي لفكرة الحق الطبيعي والاجتماعي والأخلاقي.
* الحقوق هي الشرط الضروري للوجود الإنساني الحق.
* الحقوق هي محور وجود الفرد والمجتمع والدولة والقيم.
* ربط الحقوق بالواجبات.



التربية الجمالية:

إن تأسيس الأنساق العقلية والروحية والحقوقية في التربية الذهنية والنفسية الاجتماعية للفرد والجماعة هو المقدمة القادرة على استيعاب منظومة التربية الجمالية، خصوصًا أنها أكثر الصيغ فاعلية في تجانس المكونات الحسية والنفسية والعقلية للفرد. وفيها ومن خلالها يمكن تنسيق التربية الذاتية ودفعها صوب الفعل الاجتماعي الحر. وذلك لأن أهمية وقيمة الجميل والجمال بالنسبة للذهنية والعقل تقوم في قدرتها على مشاهدة وتتبع وإنتاج التجانس الضروري في كل شيء. فالجمال هو الثمرة الدائمة لإدراك وتحقيق النسبة المعقولة والضرورية للوجود. ومهمة التربية الجمالية تكمن في قدرتها على تهذيب وشحذ هذه «النسبة» المثلى في القول والفعل والإبداع. من هنا قيمتها وفاعليتها الجوهرية بالنسبة لتكامل الشخصية وتحررها وتطوير ملكة الإبداع فيها. أما أهم مبادئها الأساسية فهي:

* التأسيس الدائم لفكرة الجميل وتحقيق نماذجها العملية في المواقف الفردية والجماعية تجاه جميع نواحي الحياة.
* غرس مبدأ «الحياة هي الجمال، والجمال هو الحياة».
* الربط الدائم بين الجمال الدنيوي والأخلاقي.
* غرس فكرة الجمال والجميل في العقول والأفئدة (الأبعاد العقلية والوجدانية للجمال) وجعلها أسلوبًا لتحقيق الحرية انطلاقًا من أن الجمال هو الحرية والحرية هي الجمال.

تربية الحرية:

إن الحرية هي الغاية الفعلية من تطوير الشخصية وتكاملها الذاتي. فهي القوة القادرة على ضم الأنساق العقلية والروحية والحقوقية والجمالية في فعل واع. كما أنها النسق المنسق للإحساس والعقل والحدس في الكلمات والمواقف والأفعال، وبالتالي في الإبداع ككل. أما أهم مبادئها الأساسية فهي:

* حرية تذلل فكرة وممارسة وقواعد المنع والزجر.
* الحرية الفردية.

* تربية فكرة الإخلاص للحق والحقيقة والنظام.

* حرية الإبداع غير المتناهي.

تربية الروح المبدع:

إن تحقيق الأنساق الآنفة الذكر في رؤية منظومية للتربية والتعليم في كل من المنهج والتطبيق يؤدي إلى صنع أسس ما يمكن دعوته بذهنية الخيال المبدع، بوصفها الغاية الفعلية من مشروع التربية والتعليم. وليس المقصود بذهنية الخيال المبدع هنا سوى تهذيب الاستعداد الفعلي والقدرة الواقعية عند الفرد من أجل تكامل الشخصية الاجتماعية والإبداعية. بمعنى العمل من أجل إرساء الشروط الضرورية الفاعلة في اتجاه تكامل الشخصية الاجتماعية وروحها المبدع.

إن مضمون ذهنية الخيال المبدع المشار إليه أعلاه يضع إشكالية الإبداع في صلب مهماته العملية؛ وذلك لأن ذهنية الخيال المبدع بوصفها استعدادًا فعليًا وقدرة واقعية على تهذيب الاستعداد الفعلي والقدرة الواقعية عند الفرد من أجل تكامل الشخصية الاجتماعية والإبداعية، هي الأسلوب الضروري لتحقيق فكرة وخيار الاجتهاد الدائم. والمقصود بالاجتهاد الدائم هنا هو الاستجابة العقلانية والإجابة الواقعية عن الإشكاليات الفعلية التي تواجه مهمات التقدم الاجتماعي والتطور المتجانس للدولة والأمة. وفي ميدان التربية والتعليم لا يعني هذا سوى تحقيق الغاية الكبرى من التربية والتعليم، ألا وهي إيجاد النسبة الحية بين الخيال والحقيقة. فهما الوجهان المتداخلان لحرية الإبداع المقيدة بالبحث والاجتهاد الدائمين عن سبل وأشكال تمثل الحق والحقيقة في نماذج غير قابلة للحصر.

أما أهم مبادئها فهي:

* الروح المبدعة هي «الأنا المبدعة».

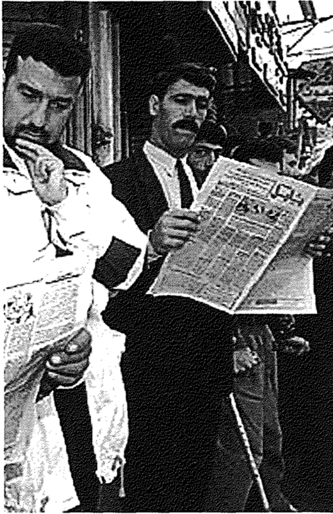
* «الأنا المبدعة» هي سبيكة الحقيقة والخيال.

* الحقيقة والخيال هما وحدة الماضي والحاضر والمستقبل.

* تنمية روح الالتزام بالإشكاليات المعاصرة والبحث المبدع في المستقبليات.

التربية الثقافية ـ القومية:

وهي إيصال أنساق التربية والتعليم تلقائيًا إلى



إدراك قيمة الأبعاد الوطنية والقومية في الشخصية الفردية والاجتماعية. وهي تربية ينبغي أن تندمج فيها الرؤية المضمونية والمنهج بالشكل الذي يجعل من التربية القومية تربية للروح الثقافية. أما أهم مبادئها الأساسية فهي:

* العراق هو كينونة تاريخية ثقافية وليس تجمع أعراق.

* القومية العربية متفتحة من حيث مكوناتها الجوهرية، جذورها التاريخية في مناطق العالم العربي المعاصر، وأنها قومية ثقافية وليست عرقية.

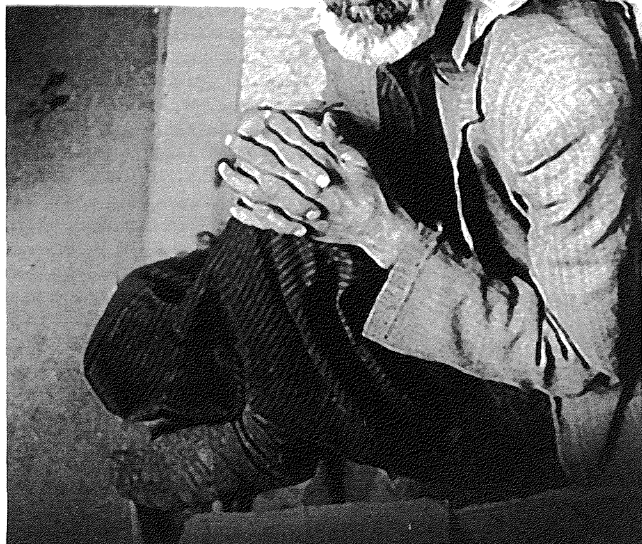
* إن صورتها المتكاملة في التراث الإسلامي، وقيمتها في قدرتها على تمثل حقائق التاريخ العالمي والمساهمة في إبداعه.

* القومية القوية هي القومية المتحررة في إبداعها المادي والأدبي، وقوتها على قدر مساهمتها في الإنتاج والعلم والتقنية والأدب والفن. ■

أقل ما يمكن أن يقال عنها .. متناقضة !

الشخصية العراقية

الحارث عبدالحميد الأسدي - العراق*



*عميد مركز البحوث النفسية ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي .

إن من أصعب الأمور على الكاتب أن يجيز لنفسه تناول موضوع خطير وكبير مثل الشخصية العراقية، خصوصًا إذا كان هو عراقيًا، ولد وترعرع وعاش على أرض العراق وعلى مدى خمسة عقود من الزمان، لم يغادره إلا طلبًا للعلم والمعرفة ولعدد محدود من السنين، فعاش الوطن بسرائه وضرائه، وأفراحه وأتراحه، وأحزانه وآلامه، وشهد التغيرات تلو التغيرات، وتعلم الصبر والمثابرة بعد دراسة تاريخ هذا البلد العزيز وحضارته الشامخة، وصار بحكم ويلات الزمن وضغوطه مُعلمًا لشيء واحد يعلو صوته فوق كل الأصوات، ذلك هو حب العراق.. أرضًا وناسًا وتاريخًا وحضارة.

لكن ما يهون المصاعب في الكتابة عن الشخصية العراقية، ويذلل بعض تداعياتها، أن يكون الكاتب باحثًا ودارسًا، يتحرك في مساحات الزمان والمكان بشفافية الباحث وموضوعيته، والتزامه بالمنهجية العلمية التي لا مفر منها، وهو يتناول بالبحث والدراسة هذا الموضوع الحساس والمثير. وهذا ما أدعيه في الكتابة عن الشخصية العراقية في مجلتنا الغراء والشجاعة: المعرفة.

لقد كثرت في الآونة الأخيرة، الطروحات والمقالات والتحليلات التي تتناول المجتمع العراقي والفرد العراقي، وهي في مجموعها، محاولات جادة ووجهات نظر تعبر عن آراء كتابها، وبغض النظر عن صوابها أو خطئها. وهذا يذكرني بالكم الهائل من الكتابات والتصريحات التي ظهرت بعد نكسة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م والتي تجاوزت في أحكامها أنظمة الحكم السائدة في ذلك الزمان إلى تناول الشخصية العربية ومدى مصداقيتها ووعيها وإرادتها وقدرتها على المقاومة والصمود والدفاع عن الأرض والكرامة.

إن المحرك الأساس، عراقيًا وعربيًا ودوليًا لهذه الكتابات والطروحات، هو سقوط النظام السياسي السابق في العراق والذي كان يتسم بالدكتاتورية والقسوة والاستبداد، هذا من جهة، والاحتلال الأمريكي - البريطاني للعراق، من جهة أخرى، لكن من المحزن، إن بعض هذه الكتابات، صارت تطلق على الشخصية العراقية والفرد العراقي والمجتمع العراقي، مسميات وألقابًا وكنى، مستمدة من نظرية هنا أو هناك، أو تحليل نظري - أكاديمي هنا أو هناك، فيها الكثير من التجني والحيف، بل السادية أحيانًا. فمن «العراقوية» إلى «ثقافة الهزيمة»، ومرورًا بـ«القابلية للاستعمار» أو حتى الانفصال بين الأمة وروحها، وأزمة الهوية والمواطنة والانتماء.

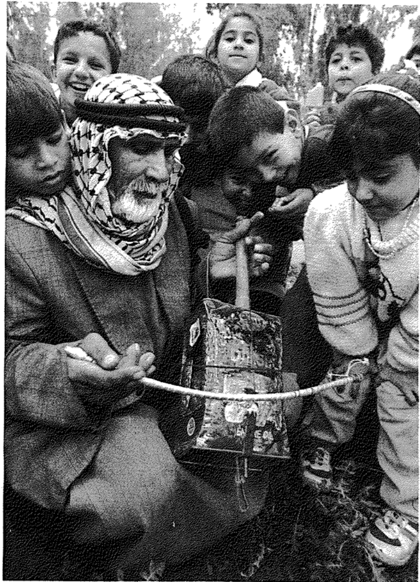
في هذه المقالة، سنحاول بجدية ومنهجية ومرونة وعقلانية أن نتناول أبعاد الشخصية العراقية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، دون أن نخوض معركة الجدل مع الآخر في هذا القول أو ذاك. وحتى نكون أكثر مصداقية في تعرضنا لهذه الشخصية العراقية، أجد من الأهمية بمكان، استعراض بعض الأسس النظرية لمعنى الشخصية عمومًا، سماتها وخصائصها، وعلاقة ذلك بالثقافة والبيئة والحضارة التي تعيش فيها تلك الشخصية.

وبعد تناول الشخصية العراقية تحديدًا، على مستوى منظومة القيم والأعراف المجتمعية، نعرج على التغيير في الشخصية العراقية، ماضيًا وحاضرًا، ثم نخرج بعد ذلك بعدد من الاستنتاجات المنطقية حول هذه الشخصية وآفاقها المستقبلية.

الشخصية في منظور علم النفس

يحتل موضوع «الشخصية» مكانة خاصة وحيوية في دراسات علم النفس وفلسفته، ذلك العلم الذي يدرس السلوك والعقل والطبيعة البشرية. وتتعدد التعاريف لمفهوم الشخصية بتعدد المدارس السايكولوجية والمنظرين الكبار فيها، وتتباين النظريات في علم نفس الشخصية حسب المفكرين والعلماء الذين أبدعوا في دراساتهم وبحوثهم النظرية والميدانية. إن هذا التباين الذي يصل أحيانًا إلى درجة التناقض بين هذه المدرسة أو تلك في دراسة الشخصية، لا يعني نكوصًا أو خطأً أو حتى خللاً في الطروحات أو التنظير، بل على العكس من ذلك، يشير إلى خطورة موضوع الشخصية وأهميته وحساسيته ودقته، الذي لا يمكن أن تستوعبه نظرية واحدة، جامعة، مانعة في كل أبعادها وآفاقها. وإن الاختلاف في وجهات النظر ينبئ بالقدرة العالية لدى المنظرين والعلماء في تناول أبعاد الشخصية في بيئاتها ومجتمعاتها، مما يوجد لدى الباحث النبيه، نزعة الفضول للتفكير والتمعن والتدقيق والتمحيص في جميع الأبعاد، بل في إضافة أبعاد جديدة تساهم في تكوين الصورة الأكثر عمقًا ومعرفة في دراسة الشخصية الإنسانية.

وتعرف الشخصية عمومًا على أنها: مجموعة الخصائص والمميزات لأنماط التفكير والعواطف والسلوك، التي تحدد أسلوب الفرد (الإنسان) الشخصي في التفاعل مع البيئات المادية والاجتماعية.(1) لذلك فإن إحدى المهام الأولية لعلم نفس الشخصية هي توصيف الفروقات الفردية بين الناس، أي الطرائق المختلفة التي يتباين فيها الأفراد عن بعضهم البعض.



إن اتخاذ منهج واحد دون غيره في الحكم على شخصية فرد ما، أو تحديد ملامح للشخصية في مجتمع ما، يعد أمرًا فيه شيء من التعسف العلمي أو المعرفي. وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه بعض الكتاب الذين تناولوا حديثًا وعبر مواقع الإنترنت والصحف العربية، تحليل الشخصية العراقية، من واقع منظور السمات للإنسان (البورت) أو من خلال البيئة الاجتماعية حصرًا (الوردي) أو حتى عبر منظور الحاجات لدى الإنسان (ماسلو). فعلى سبيل المثال لا يعد منهج «السمة» نظرية للشخصية بحد ذاته، وإنما اتجاه عام، أو مجموعة من الطرائق والأساليب لتقييم خصائص

ثابتة للأفراد. يذكر أن سمات الشخصية، لا تدلنا على أي شيء بخصوص العمليات الديناميكية للأداء الوظيفي للشخصية عبر الزمان والمكان. لذلك فإن البحث الحقيقي والكامل عن الشخصية ودراستها، يهدف إلى تجميع وتوليف العوامل العديدة التي تؤثر في تفاعلات الأفراد في البيئات المادية والاجتماعية، فضلاً عن التطور البيولوجي ومستويات التعلم والتفكير والعاطفة والدافعية والتفاعلات الاجتماعية. وبالرغم من تعدد النظريات في الشخصية، فإن ثلاثة مناهج فكرية في الشخصية، هيمنت على تاريخ علم نفس الشخصية في القرن الماضي، وهي منهج التحليل النفسي، والمنهج السلوكي، والمنهج الظاهراتي. بيد أن هذه المناهج بثقلها النظري والتجريبي، لا تجيب عن جميع الأسئلة الخالدة في ذهن الإنسان، والتي تبدأ منذ الطفولة وتستمر حتى الممات: من أنا؟ من نحن؟ أشرار أم طيبون؟ سعداء أم تعساء؟حياديون أم متطرفون؟ نشطون أم كسالى؟ ما مصيرنا؟ وغير ذلك من هذه الأسئلة التي تدور في الذهن بشكل دائم ومستمر.

ولم يقتصر البحث والدراسة في علم نفس الشخصية على المناهج الثلاثة التي سبق ذكرها، بل ظهرت نظريات متعددة وكثيرة وخصوصًا في النصف الثاني من القرن العشرين، حاولت جاهدة أن تجعل لها رصيدًا في سبر أغوار الشخصية ومكنوناتها وعلاقتها مع البيئة والجماعة والمجتمع. ومن هذه النظريات غير ما سبق ذكره: منظورعلم النفس الفردي(أولر) ومنظور السمات للأنسان (البورت)، ومنظور الحاجات لدى الإنسان (ماسلو)، والمنظور الوجودي للإنسان (وانكر وآخرون)، والمنظور الاشتراكي للإنسان (مكارينكو وآخرون).

وضمن محاولات كاتب هذه المقالة في توظيف الفكر الإسلامي الحنيف لفهم الإنسان والشخصية، وقواه وقدراته وطاقاته، الظاهر منها والكامن، فقد تناول في أكثر من مقالة على مدى السنوات الخمس الماضية، موضوع الشخصية ضمن إطار عام شامل، أطلق عليه «النظرية السايكولوجية في الإسلام» وقد لاقت هذه المحاولة النظرية الجديدة الكثير من الثناء والنقد والاعتراض خلال المدة المذكورة من قبل علماء النفس والمفكرين والمثقفين العرب، لكنها في المحصلة، أثبتت وجودها من حيث إنها سلطت الضوء في محاولة

صحيح أن المرحوم الوردي ضخم كثيرًا من فكرة الازدواجية في الشخصية وهي فكرة يمكن تعميمها على البشر . لكنه أصاب عندما ربط فكرة الازدواجية في الشخصية العراقية بعوامل أخرى وصراعات تاريخية قائمة . مما أنتج سمات وصفات في الشخصية العراقية . أقل ما يمكن أن يقال عنها . التناقض

نادرة للجمع بين العلم والدين، على موضوع النفس الإنسانية ومشكلاتها وآفاقها وجوهرها بضوء الفكر الإسلامي المتفتح الذي يتميز أصلاً بالعلمية والعقلانية والمرونة، فيما لو قرأ قراءة صحيحة ودقيقة ومعاصرة.

ولا يمكن لأي دارس أو باحث في موضوع الشخصية الإنسانية أن يبقى يدور في حدود الفرد الإنساني على الرغم من أهمية ذلك، بل يجد الباحث نفسه مندفعًا إلى التعمق في المسائل الفلسفية والاجتماعية والدينية عمومًا، من أجل الوصول إلى حقائق معرفية صائبة حول الشخصية.

أما إذا أراد الباحث أن يتعمق في دراسة الشخصية ضمن مجتمع ما، وهذا ما نحاول أن نقوم به هنا، تصبح المسألة أكثر تعقيدًا وتركيبًا، إذ إن دراسة التاريخ والحضارة والثقافة لذلك المجتمع، تعد أمرًا ضروريًا وأساسيًا في صياغة طبيعة الشخصية معرفيًا وسلوكيًا فضلاً عن الدراسة الموضوعية للعوامل العديدة والمتناثرة عبر القرون التي تؤثر شعوريًا ولا شعوريًا في بناء لبنات وأسس الشخصية المطلوب دراستها.

من خلال ما تقدم نستنتج أن للشخصية مفهومًا في علم النفس، يختلف عن مفهومها في علم الاجتماع أو علم الحضارة(٢)، فعلم النفس ينظر إلى الإنسان بوصفه فردًا قائمًا بذاته، لذا فهو يدرس الشخصية الإنسانية من

حيث كونها مجموعة الصفات الخاصة التي تميز أي فرد عن الآخر، ولذلك فهو يهتم بالفروق الفردية بين الناس بشكل متميز. لكن علماء الاجتماع يضيفون إلى ذلك أن الشخصية في كثير من وجوهها، ممثلة للمجتمع، وهم اليوم يجمعون على أن الفرد والمجتمع، ما هما إلا وجهان لحقيقة واحدة. أو كما قال (كولي): إن الفرد والمجتمع توأمان يولدان معًا[٣].

وهذا يعني أن شخصية الإنسان، تسبك في قوالب يصوغها المجتمع الواحد، متشابهين في كثير من صفاتهم الشخصية، لكنهم يتفاوتون عادة في بعض الصفات العامة تفاوتًا يجعل لكل فرد منهم، الشخصية الخاصة به، وعلى الرغم من ذلك فهم يتشابهون في الخطوط الرئيسة لتلك الصفات.

من الجدير بالذكر، أن عددًا غير قليل من الكتاب والأدباء والمؤرخين والمستشرقين حاولوا دراسة الشخصية العراقية والمجتمع العراقي. وهم دون شك، أضافوا إلى المعرفة أشياء كثيرة ومثيرة حول الموضوع وإن قدموا كمًا كبيرًا متباينًا ومتناقضًا أحيانًا عن هذه الشخصية. لكنهم أرادوا أن يؤدوا دور الطبيب في التشخيص للداء ومعالجته، دون التعرف على الأعراض الحقيقية التي سببت المرض. وهذا يعني أنهم يمارسون دور الطبيب دون أن يعرفوا شيئًا عن علم الطب. أما الدراسة الحقيقية للشخصية والمجتمع، فهي دراسة المرضى على ضوء علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الحضارة، والتوصل إلى تشخيص العلة لمعالجتها، بعد الاتفاق المسبق على الطريقة الصحيحة التي يتم فيها الفحص لأعراض المرض ومداخلاته من أسباب ودوافع ومحركات.

نظريات الثقافة والشخصية

انطلاقًا من الحقيقة التي لا غبار عليها والتي تنطوي على أن العراق كان مهدًا لأولى الحضارات في العالم (حضارة وادي الرافدين)، إذًا فهو من أوائل البلدان التي تشكلت فيها المجتمعات، وإذ إن لكل مجتمع ثقافة يتميز بها ويفتخر بعناصرها ورموزها، تبرز الشخصية العراقية بسماتها وخصائصها، وأعرافها وتقاليدها، ومنظوماتها الفكرية والمعرفية، متأثرة بالعديد من الثقافات التي أطرت المجتمع العراقي عبر تاريخه الطويل منذ السومريين فالبابليين فالآكديين فالأشوريين فالعرب المسلمين وحتى يومنا هذا.

لذلك وقبل الولوج في موضوع السمات والخصائص لهذه الشخصية، أجد أن من المناسب، وتأكيدًا لأهمية القواعد المعرفية في تناول أي ظاهرة أو حدث أو قضية، أن نتناول بشكل موجز جدًا، الأبعاد النظرية والفكرية للثقافة وعلاقتها بالشخصية من وجهة نظر علم الاجتماع وعلم الإنسان (الأنثروبولوجي).

إن شخصية الفرد لا تنمو ولا تتطور إلا عن طريق الحياة الاجتماعية، أي وهي منغمسة في ثقافة ما، إذ بوساطة هذه الطريقة ينتقل الإنسان من كائن حي (عضوي) إلى فرد في جماعة، فيصبح إنسانًا[٤].

وقد بنيت نظريات عديدة لتفسير هذه الفكرة وتأكيدها، واتبعت هذه النظريات تيارين رئيسين، عرفا: بالاتجاه التكراري والاتجاه التنظيمي. ويؤكد الاتجاه الأول تكرار الانتظامات، ويذهب إلى القول إن كل عضو في مجتمع ما، هو حامل ثقافة ذلك المجتمع وفي رأسه توجد صورة مصغرة ومكررة لتلك الثقافة، كما في نظرية روح الثقافة حيث يرجع الفضل في نموها إلى كل من (سابير) و (هورف) اللذين قالا بإمكانية التعرف على روح الثقافة من خلال التحليل الدقيق للغة المجتمع،[٥] ونظرية أسلوب النظر إلى الحياة، وتعني النظرة الخارجية إلى الوجود، كما يقول (روبرت ريد

ان العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء هي أنهم أهل نظر وفطنة ثاقبة ، ومع النظر والفطنة يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء وإظهار عيوب الأمراء . . . وما زال العراق موصوفًا بقلة الطاعة وبالشقاق على أولي الرئاسة

فيلد)، وهي نظرة عامة تميز شعبًا ما. كذلك فهو الطريقة التي يرى عضو في مجتمع ما نفسه بالنسبة لكل شيء آخر، وفي الوقت نفسه، هو الصورة التي يكونها أعضاء مجتمع ما عن الأشخاص والأشياء التي تؤدي أدوارًا مهمة في حياتهم.

ويؤكد الاتجاه الثاني أي التنظيمي، تنظيم الاختلاف، إذ يعارض القول بمبدأ التشابه التام بين الأفراد. ومن نظريات هذا الاتجاه، نظرية الموضوعات (الثيمات) التي ترى أن في كل ثقافة، هناك عدد لا نهائي من الجذور أو الموضوعات ويقصد بها القيم والأفكار والاتجاهات حول مكونات الحياة السعيدة والأهداف الحقيقية للوجود الإنساني.

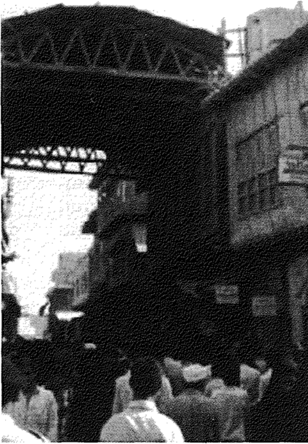
ومن رواد هذه النظرية (أوبلر) الذي عارض المبدأ التكاملي، إذ يقول: تسيطر على الثقافة أكثر من قيمة واحدة وتتفاعل هذه الموضوعات كقوى دينامية وتتوازن بعضها مع بعض بدلاً من أن يكون هناك مجموعة من الأنشطة تدور حول محور واحد [٦].

أما النظرية الثانية في هذا الاتجاه، فهي نظرية الشخصية المنوالية التي تشير إلى نمط الشخصية الذي يظهر بأكبر قدر من التكرار بين مختلف أنماط الشخصية في مجتمع محدد. وينطلق أصحاب هذه النظرية من حقيقة أن أفراد المجتمعات الثابتة أو المتصفة بالديمومة، غالبًا ما يظهرون سمات محددة بصورة أكثر تكرارًا من الجماعات الوقتية أو غير الخاضعة لتنظيم اجتماعي مشترك[٧].

إن محاولة ربط أي من الاتجاهين والنظريات التي تنطوي تحت كل منهما، بطبيعة الشخصية العراقية والمجتمع العراقي، وبضوء الثقافات التي تعرض لها الفرد العراقي،يعد أمرًا بعيدًا عن الإنصاف ويتضمن التطرف. إن النظريات تحت قبة الاتجاهين، قد تنطبق على الشخصية العراقية، ولكن في فترات زمنية متعاقبة وبالطريقة التوفيقية، لكن من يتعمق في دراسة مفهوم الشخصية المنوالية وعلاقتها بالثقافة والمجتمع، قد يجد أنها الأقرب إلى الشخصية العراقية عبر تاريخها الطويل. وما أفرزته من سمات وخصائص، ظلت حتى يومنا هذا تتراوح بين الظهور والوضوح مرة، والكمون والكبت مرة أخرى.

الشخصية العراقية ـ تكوينها ... وطبيعتها

ننتقل الآن إلى الفقرة الرئيسة في بحثنا الحالي عن الحقيقة، ذلك هو، الشخصية العراقية، كيف



تكونت؟ وما طبيعتها؟ وما التغيرات التي طرأت عليها عبر حقب الزمان المختلفة؟ وصولاً إلى طبيعة الشخصية في المرحلة الحالية.

وأجد من الضرورة أن أعطي لمحة تاريخية موجزة عن العراق وشعبه. ولا أعتقد أن هذه اللمحة زائدة أو متطفلة على موضوع الشخصية العراقية، لكنها تمثل قاعدة معلومات أساسية للقارئ المنصف عن مستوى ما تعرض له هذا الشعب الطيب من ألم وقهر وحرمان وحيف، ولا بد من القول بدءًا إن العراقيين الأوائل بنوا أولى المدن في التاريخ ومنها: أريدوا، وأور، والوركاء، وكان العراق مهد أولى الحضارات في العالم. وقد سكنت أرض وادي الرافدين أقوام هاجرت من الجزيرة العربية واستوطنت فيها، وبنت مدنًا عظيمة، منها: بابل ونينوى، والحضر، وبغداد وكونت حضارات عظيمة. ومن الأقوام الجزرية التي هاجرت إلى العراق في قديم الزمان الآكديون، والبابليون، والآشوريون، والعرب. واستمرت الهجرات في العصور اللاحقة، من الجزيرة العربية وخصوصًا القبائل العربية بعد الفتح العربي الإسلامي.

وقد غزت العراق أقوام من آسيا الوسطى ومنغوليا، فدمرت في العديد من الحالات، مدنًا وحضارات عريقة وعظيمة. ومن الأقوام التي غزت العراق في قديم الزمان: الأخمينيون والفرثيون. كما استمرت في العصور اللاحقة، غزوات أقوام من الشرق وآسيا الوسطى ومنغوليا وأوروبا ومنها: الفرس، والرومان، والمغول، والعثمانيون، والإنجليز، والأمريكان أخيرًا[٨].

ويعتقد العديد من الجيولوجيين وعلماء الآثار أن أقدم الأزمنة التي عاش فيها الإنسان القديم في العراق ترجع إلى فترة تمتد بين حوالي(١٠٠ألف سنة، العصر الحجري القديم الأدنى، و٥ آلاف سنة، عصر فجر التاريخ من الآن). ومن الجدير بالذكر أن الكتابة اكتشفت أول مرة في تاريخ الحضارة، في العراق خلال دور الوركاء، كما يعتقد العديد أن طوفان نوح، قد حدث في نهاية عصر جمدة نصر(٣٥٠٠-٣٠٠٠ق.م). والسومريون في تاريخ العراق القديم هم من أقدم الأقوام العريقة التي استطاعت وضع أساس الحضارة الأولى في العراق القديم قبل(٥ آلاف سنة ق.م). ثم جاء الآكديون فالكويتون الذين تعد فترة حكمهم (٢٢٢٢-٢١٢٠ ق.م) من الوجهة التاريخية أولى الفترات المظلمة في تاريخ العراق القديم، كونهم غزاة من جبال زاكروس في همدان.

ثم جاءت سلالة أور الثالثة فالعصر البابلي القديم(٢٠٠٦ ق.م) والذي تميز بظهور أشهر ملوك هذه السلالة وهو ملكها البابلي السادس، حمورابي (١٧٩٣-١٧٥١ ق.م) حيث اشتهر بتوحيد البلاد قانونيًا وأصدر عام (١٧٧٠ ق.م) قانونًا موحدًا للبلاد. وفي عام (١٥٩٥ ق.م) استباح الحيثيون مدينة بابل ونهبوها وخربوها ثم عادوا إلى موطنهم في جبال طوروس ليغزوا العراق قوم من لورشتان، يطلق عليهم الكاشيين (١٥٩٥-١١٥٧ ق.م)، والذين سقطوا على يد قوم غزوا العراق من جديد، هم : العيلاميون (١١٥٧ ق.م).

وعاد البابليون من جديد في سلالتهم



الرابعة وحكموا العراق (١١٥٦-١٠٢٥ ق.م) وكان من أبرزهم نبوخذ نصر الأول. بعدهم جاء الأشوريون فالكلدانيون الذين يمثلون العهد البابلي الأخير. وفي القرن السادس قبل الميلاد ظهر على المسرح الدولي غاز جديد، هو الملك كورش الأول الأخميني الذي استطاع توحيد بلاد فارس ثم التوسع في السلطان ليشمل بابل. وجاء دور الإسكندر من السلوقيين، حيث قام على رأس جيش من الإغريق والمقدونيين، بمحاربة الأخمينيين والانتصار عليهم في معركة أربيلو عام (٣٣١ ق.م). ثم مات الإسكندر في بابل عام (٣٢٣ ق.م) وسقطت بأيدي الفرثين (خراسان حاليًا). وحكم الساسانيون العراق أربعة قرون (٢٢٤-٦٣٦م)، بعدها تم الفتح الإسلامي للعراق عام (٦٣٥م) في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وبعد اغتيال الإمام علي، كرم الله وجهه سنة (٦٦٠م)، انتهت حكومة الخلفاء الراشدين وجاء دور الأمويين الذين بذلوا جهودًا كبيرة لإحكام سيطرتهم على إدارة العراق ولكنهم لم يفلحوا في كسب رضا جميع أهله. ثم جاء العباسيون وأعلنوا انتخاب أبي العباس السفاح أول خليفة لهم عام (٧٥٠م).

وتوالى على الدولة الجديدة (٣٧) خليفة، كان آخرهم المستعصم بالله الذي انقرضت في أيامه الدولة العباسية سنة (١٢٥٨م). وغزا العراق بعد ذلك الأيلخانيون بقيادة هولاكو وبعد حصار لمدينة بغداد دام خمسين يومًا، واستمر حكم المغول الأيلخانيين

ثمانين عامًا (١٢٥٨-١٣٣٨م) اتسمت بالخصومات الطائفية. ودمرت بغداد مرة أخرى على يد الفترة الجلائرية التي استمرت ثلاثة وسبعين عامًا (١٣٣٨-١٤١١م) واتسمت بالتدهور والانحطاط في الحياة الاجتماعية والسياسية. وتعاقبت على حكم بغداد في الفترة بين عامي (١٤١١-١٥٠٨م) دولتا التركمان المعروفتان بالخروف الأسود والخروف الأبيض. وخلالها قاسى العراقيون من ظروف التدهور والركود الشيء الكثير. ويصف المؤرخون أن بغداد يكاد يقضى عليها خلال تلك الفترة. وتعرض العراق عام (١٥٠٨ م) إلى الدمار الواسع على أيدي الصفويين الذين احتلوا بغداد في ثلاث فترات مختلفة في أثناء صراعهم المرير مع العثمانيين بين عامي (١٥٠٨م) و(١٦٣٨م). وفي عام (١٦٤٠م) دخل العثمانيون بغداد وهاجموها هجومًا عنيفًا بعد أن أحكموا سيطرتهم على الموصل وأربيل وكركوك والسليمانية منذ عام (١٦٣١م). واستمر حكمهم للعراق حتى احتلال بغداد من قبل الجيش البريطاني عام (١٩١٧م). وفي عام ١٩٢١ تأسست المملكة العراقية وتوج الملك فيصل الأول ملكًا على العراق، وفي عام (١٩٣٢م) انتهى الانتداب البريطاني وأصبح العراق عضوًا كاملاً في عصبة الأمم. وفي عام (١٩٥٨م) أسقط النظام الملكي وأعلنت الجمهورية العراقية. وتوالت بعد ذلك الانقلابات العسكرية والثورات، حيث قلد صدام حسين رئاسة الجمهورية في العراق عام ١٩٧٩م بعد تولي عدد من الرؤساء إدارة العراق، وهم: عبد الكريم قاسم في ١٩٥٨، وعبد السلام عارف في ١٩٦٣م، وعبد الرحمن عارف في ١٩٦٦م، وأحمد حسن البكر في ١٩٦٨م. وفي ٢٠٠٣/٤/٩م خلع صدام حسين من رئاسة الجمهورية وسقط نظام الحكام من قبل قوات التحالف (الأمريكان والإنكليز) وأنيطت مهمة البلاد من قبل (مجلس الحكم الانتقالي) وبإشراف من الإدارة المدنية لقوات التحالف في العراق.

من خلال هذه اللمحة التاريخية الموجزة، نستنتج أن العراق، أرضًا وشعبًا ومدنًا ومجتمعًا، قد تعرض للتدمير والهلاك والإيذاء والتصدع على مر القرون والعقود. ومع اختلاف القوميات والإثنيات والطوائف والمذاهب لشعب العراق، ومع كل القوى والمؤثرات والعوامل التي تحكمت في المجتمع العراقي، والتي لم

لقد عاش العراقي تحت تأثير أجواء مشدودة ومكهربة، وحروب متتالية، لا معنى حقيقيًا فيها، فقدم الشهداء، وفقد من شعبه الكثير، وعاش الباقي تحت نير التقييد والسجن داخل أسوار الوطن، فالكلمة الصريحة ممنوعة والسفر ممنوع، والقنوات الفضائية ممنوعة، والهاتف المتنقل ممنوع

يتعرض إلى ما يشابهها شعب آخر أو بلد آخر، فقد تكونت للعراقي شخصية متميزة بسمات وصفات خاصة، وإن تشابهت في بعضها مع شخصيات عربية وإسلامية، بل وعالمية أخرى.

ومن أجمل وأدق التحليلات للشخصية العراقية عبر الزمن، ما جاء على لسان المرحوم الدكتور علي حسين الوردي في كتاباته المتعددة في خمسينيات القرن العشرين، إذ كان جريئًا وشجاعًا في طرح مفاهيمه وتحليلاته. لقد كان كتابه «شخصية الفرد العراقي وطبيعة المجتمع العراقي» بمنزلة القنبلة الكلامية التي فجرت العديد من القنابل الأخرى في داخل المجتمع العراقي وأماطت اللثام عن حقب زمنية متعددة امتدت حتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين. ونحن هنا في حديثنا عن الشخصية العراقية، لا بد من استعراض نظرية الدكتور الوردي لتكون القاعدة التي نتحرك بضوئها في تحليل الطبيعة الراهنة للشخصية العراقية، ودون أن ننسى موضوعيتنا في الطرح، إذ سنتعرض لاحقًا إلى ما تعرضت له نظرية الوردي من نقد واعتراض، وما تعرض له الوردي شخصيًا من تنكيل وصد ومعارضة.

لقد رافقت الوردي شخصيًا منذ عام ١٩٨٧م وحتى عام وفاته في ١٩٩٥م ووجدته رجلاً عالمًا ثائرًا وصادقًا، لا يهاب في الحق لومة لائم. كذلك وللأمانة التاريخية فقد كان

الوردي محبًا للعراق وأرضه وشعبه وراغبًا من الأعماق في أن يصبح العراق يومًا، حرًا مستقلاً، ديمقراطيًا موحدًا.

نظرية الدكتور علي الوردي في الشخصية العراقية(خلاصة)

يمكن تلخيص نظرية الوردي في أن العراق كان مهدًا لأقدم الحضارات، وفي نفس الوقت يقع على حافة أكبر بادية مأهولة بالسكان في العالم، وأن كلاً من سهله (موطن الحضارة) وصحرائه (موطن البداوة) عالم قائم بذاته سواء ببيئته أو قيمه أو متطلبات عيشه ونظمه وأنساقه، وأن موطن الحضارة فيه كان دائم التعرض لهجمات البدو الذين استقروا حول مدنه كهجرات بدوية، أو عن طريق التسلسل التدريجي، ونشأت لذلك في العراق حضارتان تتصارعان: حضارة بدوية محاربة من ناحية، وحضارة زراعية خاضعة من ناحية أخرى، نشأ بالتالي نظامان للقيم، نظام يؤمن بالقوة والبسالة وتسود فيه قيم الإباء والشجاعة والكبرياء وما إلى ذلك من صفات المحارب الفاتح، وبجانبه نظام آخر يؤمن بالكدح والصبر ويمارس أداء الضريبة والخضوع والتباكي. إن هذا الصراع قد أثر في شخصية الفرد العراقي تأثيرًا بليغًا فأصبح مضطرًا لأن يقتبس نوعين من القيم الاجتماعية أو يقلد طبقتين من الناس، طبقة البدوي الغالب وطبقة الفلاح المغلوب، فهو تارة يؤمن بالغلبة ويتباهى بها أو يحاول أن يظهر قوته على غيره، وهو تارة أخرى يئن من سوء حظه ويشكي من ظلم الناس له.

ويرى الوردي أن قيم البداوة والحضارة قد ازدوجتا في العراق منذ أقدم العصور ولا تزال تصطرع في أنفسنا حتى اليوم.(٩)

صراع البداوة والحضارة، هذا، يمثل إحدى ثلاث فرضيات رئيسة تتكون منها نظرية الوردي حول الشخصية العراقية والمجتمع العراقي. أما الفرضيات الأخرى فهما ازدواجية الشخصية العراقية والتي تقول إن الفرد العراقي من أكثر الناس سلوكًا متناقضًا دون أن يشعر بهذا التناقض في سلوكه أو يعترف به لأنه لا شعوري في الأصل وناشئ عن وقوعه تحت تأثير نظامين متناقضين من القيم. والفرضية الثالثة هي التناشز الاجتماعي الذي غير اسمه فيما بعد إلى التناشز التراثي، والذي يتمثل في عدم تساوق التغيير في الأجزاء المترابطة في المجتمع مما يؤدي إلى حدوث فجوة بينهما. ويصرح المرحوم الوردي في كتابة «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» الذي صدر عام ١٩٦٩م ص ٢٩٧، أن هذه الفرضيات الثلاث حول الشخصية العراقية وتكوينها وطبيعتها، هي ليست من بنات أفكاره، إنما استقاها وعدلها حسب ما رأى لتلائم طبيعة المجتمع العراقي والشخصية العراقية، حيث استمد فكرة صراع البداوة والحضارة عن (ابن خلدون) وازدواج الشخصية من (مكايفر)، والتناشز الاجتماعي عن (أوكبورن).وهذا يؤكد مرة أخرى مصداقية الوردي وصراحته وحذاقته، إذ له الفضل الأكبر كعالم اجتماع متميز في توظيف هذه الأفكار بما يتناسب مع الشخصية العراقية والمجتمع العراقي.

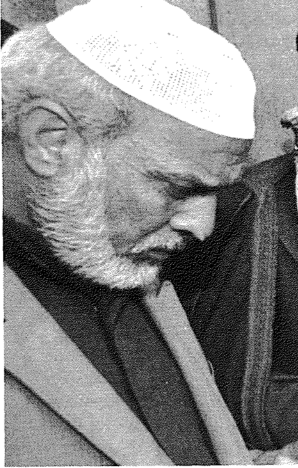
نقد نظرية الوردي والاعتراضات عليها

لقد كان الوردي جريئًا في طروحاته، وقد قدم في كتبه العديد من الأمثلة والقصص والروايات التي تدعم أفكاره، والتي استقاها من الواقع الاجتماعي للعراق، من خلال معايشته هذا الواقع. وقد صرح الوردي في أكثر من مكان في كتبه المتعددة، أن ما يتسم به العراقي في شخصيته، يقع عليه أيضًا، فكان ينقد نفسه في كثير من الأحيان بصراحة ووضوح، وهذا يدل على أنه تخلص نسبيًا من عقدة الأنا والكبرياء التي تعانيها الشخصية العراقية، إضافة إلى

أفرزت الحروب التي تعرض لها الشعب العراقي، كوارث مجتمعية، تصدع بسببها نظام القيم والأخلاق الحميدة، واهتزت المثل العليا التي تعودها عبر تاريخه، حتى وإن كانت ضمن فكر البداوة وحضارتها، وتخدشت منظومات الذوق العام التي يرضعها ويتعلمها منذ الطفولة

قدرته على التنفيس عن ما هو مكبوت في اللاشعور الفردي الذي ينطوي عليه، وقد كانت هذه أمنيته التي أرادها للآخرين من أبناء شعبه.

إن معظم الاعتراضات عن نظرية الوردي في الشخصية العراقية جاءت حول صراع البداوة والحضارة وازدواجية الشخصية. فالوردي يرفض النظرية القائلة بأن البداوة مرحلة اجتماعية مرت بها جميع الأمم قبل دخولها في مرحلة الحضارة، وهو يرى أن البداوة ليست مرحلة ضرورية من مراحل التطور، وليس من المحتوم على كل أمة أن تمر بها من خلال تطورها التاريخي. لكنه في نفس الوقت، يرى أن البداوة نظام اجتماعي لا ينشأ إلا في الصحراء، فاذا خرج إلى بيئة أخرى أخذ التغيير يظهر فيه تدريجيًا وهو قد يتجه آنذاك إلى الزراعة أو التجارة أو الصناعة حسب الظروف. أما بالنسبة للازدواجية، فهي حقيقة موجودة في الإنسان. إن صراع قوة الخير والشر، صراع المثل العليا والواقع، صراع الأنا والهو بوجود الأنا الأعلى، موجود عند الإنسان منذ أن وطأت قدماه هذا الكوكب. وهذا يتأتى دون شك من طبيعة خلق الإنسان. فقد خلقه الله تبارك وتعالى من قبضة الطين ونفخة الروح.



لذلك فإن فكرة الازدواجية في الشخصية قائمة وموجودة عند كل إنسان، وهي ليست تعدد الشخصية كما جاء على لسان بعض المعترضين، والتي تمثل اضطرابًا نفسيًا معروفًا، يتحدد بالتصرف والسلوك بأكثر من شخصية ولمدة زمنية قد تطول أو تقصر، حتى إن الشخصية (أ) لا تعرف بتصرفات الشخصية (ب) وهذه لا تعرف بسلوكيات الشخصية(جـ)، علمًا أن كلاً من (أ، ب، جـ) موجود داخل إنسان واحد.

صحيح أن المرحوم الوردي ضخم كثيرًا من فكرة الازدواجية في الشخصية وهي فكرة يمكن تعميمها على البشر، لكنه أصاب عندما ربط فكرة الازدواجية في الشخصية العراقية بعوامل أخرى وصراعات تاريخية قائمة، مما أنتج سمات وصفات في الشخصية العراقية، أقل ما يمكن أن يقال عنها، التناقض. وقد تقترب الازدواجية من النفاق الذي توصف به الشخصية العراقية، لا بل إن بعض النقاد حاولوا المزج بين المفهومين على أنهما واحد. والحقيقة هي غير هذا، لأن صراعات الأنا في داخل العقل البشري والتي تؤدي إلى الازدواجية التي قصدها الوردي، هي صراعات لا شعورية، أي أن الإنسان لا يعرف بكنهها و لا يعترف بها بسهولة ويسر، أما النفاق فهو عملية شعورية، تنحصر في حدود الأنا الواعية للفرد وقد يتحول هذا السلوك عبر الزمن ومع الاستخدام المستمر إلى سمة وعادة في الشخصية يصعب معالجته أو تجاوزه.

العراق في خمسة عقود

إذا كان الوردي قد وظف نظريته في الشخصية العراقية للفترة حتى منتصف القرن العشرين، فإن العقود التي تلت كتابات الوردي في الخمسينيات والستينيات منذ ذلك القرن، هي عقود زاخرة، ومليئة بالأحداث والخبرات والتجارب التي زادت وكرست من سلبيات الشخصية العراقية، بحكم ما تعرض له الإنسان العراقي من قهر وظلم واستبداد وقمع، أدى إلى كبت رغباته ومصادرة حريته الشخصية والمجتمعية بطريقة يندر وجودها في عالم اليوم، بل حتى في عالم النصف الثاني من القرن العشرين.

لكن المثير أيضًا، أن العقود الخمس الأخيرة خلقت في داخل العقلية العراقية وجوهرها، استعدادًا كبيرًا للثورة والنضال والمواجهة والدفاع عن مقدسات الذات الإنسانية الشريفة التي عانت الكثير على مر العقود والقرون والسنين. وفي نفس الإطار الذي أثاره الوردي حول صراع البداوة والحضارة والتناشز الاجتماعي، فإن مستوى ذكاء الإنسان العراقي وحبه للحضارة والمدنية (وإن كان مكبوتًا) وتطلعاته إلى الأمام (وهذا ليس غريبًا عنه فقد شارك في تكوين وتأسيس أرقى الحضارات في العالم)، ورغبته في الثقافة والتعلم والتطلع والقراءة، أججت في أعماقه النزعة الجادة نحو التغيير، داخل العراق كان، أم خارج العراق، وراحت تبني في داخل العقلية العراقية خططًا وأفكارًا، حتى وإن لم تكن ناضجة إلى مستوى الكفاية، فهي تطمح إلى التغيير والانتفاضة ورفع الحيف والظلم والاستبداد.

لقد عانى العراقي كثيرًا على مدى خمسة عقود من الزمان، تمثل النصف الثاني من القرن العشرين، عانى حروبًا لم يردها، وإنما أرادها حكامه، وعانى قيودًا وسجنًا للعقل والبصيرة والأنا الفردية التي فرضها عليه حكامه، وعانى استلاب الإرادة، واعتقال الهوية، وسجن الحرية الشخصية، وترويض العقلية بالاتجاه الذي يخدم الحاكم من خلال عمليات البرمجة الفردية والجماعية، وتقنيات التحوير الفكري من خلال الإعلام الموجه والأحادي، حتى صار العراقي سجينًا في وطنه، ومقيدًا في داره ومسكنه، ومستكينًا في عمله وخاضعًا في علاقاته ولقاءاته لكنه حي وحيوي يتحمل ويصبر،يعاني من أجل يوم الخلاص، يوم الحرية، اليوم الذي يستطيع فيه أن يقول ما يريد ولكن بشمم وإباء وليس تحت أي سيف أو قوة مهما كانت في هذا العالم.



ومن وجهة نظر كاتب هذه السطور، فإن الشخصية العراقية في العقود الخمسة الأخيرة، لم تتغير كثيرًا، بل على العكس، ازدادت تزمتًا، وحنقًا، وكبتًا، وقمعًا وبالتالي تمردًا، منظورًا وغير منظور بحكم الحروب والمخاصمات والقتال والحصار والحصر والجور والجوع والفقر الذي تعرض له الإنسان العراقي، لكنها في نفس الوقت ازدادت رغبةً وأملاً، وتطورت عقلاً ومفاهيم، وكظمت غيظ السنين والعقود والقرون، لتطلق التفاؤل في الانتقال إلى مرحلة جديدة دون أن تغفل أو تغطي على عثرات الزمان أو مسميات الماضي، فهي تقبل بها لأنها جزء من التاريخ.

طبيعة المرحلة الراهنة

اعتاد الناس من أهل العراق أن يتداولوا فيما بينهم ما قاله الحجاج بن يوسف الثقفي عن أهل العراق من ذم وقدح، وكذلك ما قاله الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وما قاله الإسكندر المقدوني، من أنهم أهل شقاق ونفاق. وقد تندر بهذا المؤرخون من المسلمين وغيرهم من الكتاب وأصحاب الكلام. ويبدو أن جميع هؤلاء قد أغفلوا ما وراء هذا الكلام من عوامل اجتماعية وبيئية ونفسية. كما ذهب البعض إلى القول بأن طبيعة الجو في العراق قاسية ومتغيرة حيث درجات الحرارة في الصيف تصل إلى أكثر من ٦٠ درجة مئوية وفي الشتاء إلى الصفر المئوي. وارتبطت تغيرات المناخ في العراق بطبيعة الشخصية العراقية. يقال أن الإسكندر المقدوني كتب إلى أستاذه أرسطو، بعد فتحه للعراق، قائلاً : «لقد أعياني أهل العراق، ما

أجريت عليهم حيلة إلا وجدتهم قد سبقوني إلى التخلص منها، فلا أستطيع الإيقاع بهم، ولا حيلة لي معهم إلا أن أقتلهم عن آخرهم». وفي إجابة أرسطو للإسكندر : «لا خير لك في أن تقتلهم، ولو أفنيتهم جميعًا، فهل تقدر على الهواء الذي غذى طباعهم وخصهم بهذا الذكاء؟ فإن ماتوا ظهر في موضعهم من يشاكلهم، فكأنك لم تصنع شيئًا!».

وحتى وإن كانت هذه القصة مختلقة من المؤرخين المسلمين، لما فيها من حكمة اشتهر بها الإغريق، لكنها تصف أهل العراق بالذكاء. ومن جهة أخرى يقول الجاحظ في البيان والتبيين عن أهل العراق: «ان العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء هي أنهم أهل نظر وفطنة ثاقبة، ومع النظر والفطنة يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء وإظهار عيوب الأمراء... وما زال العراق موصوفًا بقلة الطاعة وبالشقاق على أولي الرئاسة».

لقد شاع عن أهل العراق أنهم يميلون إلى الجدل. ومن طبيعة الجدل أنه يثير في الناس التساؤل والتطلع ويضعف فيهم الركود الفكري. وقد تتسع دائرة الجدل بين اثنين من الناس لتعم بين مجموعات من البشر.

من المعروف أيضًا أن العراق يعد منبعًا لأكثر الفرق والحركات الاجتماعية، ففيه نشأ الخوارج والشيعة والمعتزلة وفيه تعددت المذاهب الإسلامية وترعرت ونمت. وفيه اشتدت حركات الموالي والشعوبية والغلاة والزنادقة. وفي العراق ظهرت حركات الزنج والقرامطة والعبارين. وفيه نشأت أول الطرق الصوفية المنظمة.

والشعب العراقي شعب قارئ ومحب للقراءة والاطلاع، ويفهم من الحقائق السياسية وأحداث العالم، ما لا يفهمه أقرانه في كثير من البلدان الأخرى. فهو يناقش ويسأل ويستفسر ويستنتج ويفتي، وهو شغوف بالسياسة وآفاقها وأخبار الحروب وطبقاتها وأشكالها وأفانينها.

هذا هو حال العراقيين، كانوا وما زالوا، وسيبقون، لكنهم في تطور مستمر. وإن كان عراقي اليوم يفخر بأمسه، فهو حريص على غده ومستقبله، وهو متطلع إلى الأمام دائمًا.

إن الحقيقة التي يجب ذكرها في هذا المقام ونحن نتحدث عن المرحلة الراهنة، هي أن العراقي اليوم هو

وقد خلق هذا الخوف المكبوت في داخل النفس العراقية ، نزعةً قوية ، واضحة وظاهرة ، نحو التحذلق والمنافقة ، في محاولة لارضاء الأعلى ، أيًا كان هذا الأعلى ، مما عزز الدافعية والحافز في داخل الشخصية العراقية نحو الرياء والمكر والكذب أحيانًا .

عراقي الأمس بكل ما يحمله في عقله وشعوره ولا شعوره، بكل ما يحمله في جيناته وبيولوجيته وسلوكياته وأفكاره وتصرفه. وبكل ما تحمله وما زال يتحمله من ظلم وقهر واستبداد وقمع وكبت في الماضي واحتلال وسيطرة وتجريح النفس والوجدان في الحاضر. قد يرضى العراقي أن يقال عنه أنه متناقض أو مزدوج، متمرد أو عنيف، مستسلم حتى حين، أو خاضع، لكنه لا يرضى أبدًا أن يقال عنه أنه ذليل أو خنوع. وما يشفع للعراقي في شخصيته غير المستقرة بحكم المتغيرات التي سبق ذكرها، ذكاءه وفطنته واستعداداته وصبره وقدرته العالية حد الإعجاز على تحمل الضيم والقهر والألم.

العراقي رغم السلبيات التي تناولناها في هذه المقالة، كريم ومعطاء ومحب ومتحمس للخير، شجاع وصبور وأمين وفطري أحيانًا، عشائري قبلي النزعة والتوجه بحكم الواقع والانقلاب واللاأمان الذي يعيشه، والعراقي يعتز بهويته ومواطنته وعراقيته حتى وإن كان بعيدًا عن أرض الوطن.

وإن كانت الشخصية العراقية قد خضعت للعديد من العوامل والمتغيرات التي أثرت في جوهر بنائها على مدى العقود الخمسة الأولى من القرن العشرين والتي أفرزت نظرية الوردي في الازدواجية والتناشز والصراع بين البداوة والحضارة، فإن هذه الشخصية قد تعرضت إلى الأبشع والأقسى على مدى العقود الخمسة الأخيرة من القرن الماضي

وحتى عمليات التغيير في ٢٠٠٣/٤/٩م. لقد عاش العراقي تحت تأثير أجواء مشدودة ومكهربة، وحروب متتالية، لا معنى حقيقيًا فيها، فقدم الشهداء، وفقد من شعبه الكثير، وعاش الباقي تحت نير التقييد والسجن داخل أسوار الوطن، فالكلمة الصريحة ممنوعة والسفر ممنوع، والقنوات الفضائية ممنوعة، والهاتف المتنقل ممنوع، والكتابة الحرة ممنوعة، والعقل النقدي ممنوع، حتى وصل الممنوع في قائمة الحقوق الإنسانية إلى نسبة عالية جدًا، فضلاً عن ذلك فقد أفرزت الحروب التي تعرض لها الشعب العراقي، كوارث مجتمعية، تصدع بسببها نظام القيم والأخلاق الحميدة، واهتزت المثل العليا التي تعودها عبر تاريخه، حتى وإن كانت ضمن فكر البداوة وحضارتها، وتخدشت منظومات الذوق العام التي يرضعها ويتعلمها منذ الطفولة. فزاد السلب والنهب، وتفاقمت الرشوة والمحسوبية والمنسوبية، وكثرت نسبة الفقر والجوع و العوز في المجتمع، وتباينت القدرة الشرائية للمواطنين بشكل لافت للنظر، وتعمقت جروح العراقيين في داخل نفوسهم، وصار الخوف والرعب يلفهم ويحيط بهم حتى في داخل بيوتهم، فالزوج يخاف من زوجته أن تكتب عنه تقريرًا أو تشي به، والأب يخاف من ابنه، والمعلم يخاف من تلميذه، والموظف يخاف من مديره وهكذا. لقد أصبح الخوف من كل شيء، خصوصًا من السلطة، هو الهاجس الذي يتحرك في ضوئه العراقي، في ساعات حياته اليومية. وقد لا يبدو هذا الخوف ظاهرًا، بل يبقى في أغلب الأحيان كامنًا ومكبوتًا ولا شعوريًا، لكنه ينعكس على السلوك العام للأفراد والمجموعات في داخل المجتمع. وقد خلق هذا الخوف المكبوت في داخل النفس العراقية، نزعةً قوية، واضحة وظاهرة، نحو التحذلق والمنافقة، في محاولة لارضاء الأعلى، أيًا كان هذا الأعلى، مما عزز الدافعية والحافز في داخل الشخصية العراقية نحو الرياء والمكر والكذب أحيانًا.

إن البديل لسلوك الخوف داخل المجتمع العراقي، كان النقد والمصارحة والوضوح.. وهذا كان مصيره السجن أو الاغتيال أو الطرد أو الموت بكل أشكاله، المقصود، كما في المقابر الجماعية، وغير المقصود منه، كما في حوادث السيارات أو السم أو الجنون.

هناك من يعتقد، أن هذه السمات التي فرضت على الشخصية العراقية عبر عقود من عمليات غسل الدماغ والتحوير الفكري، قد تحولت إلى منظومات فكرية تلقائية (أوتوماتيكية) في العقلية العراقية، حيث العنف والتطرف والتمرد والتحدي، يمثل ردود فعل معرفية لهذه المنظومات. لكن الحقيقة هي غير هذا.

إن منظومات التفكير الأوتوماتيكية التي زرعت وترسخت في العقلية العراقية، ليست ثابتة مدى الزمان، بل قابلة للتفكيك وإعادة التنظيم، لأنها منظومات معرفية مفتعلة وليست أصيلة. إذ لا بد لنا أن لا ننسى أبدًا الكم الكبير من المنظومات المعرفية الطيبة والأصيلة الموجودة في العقلية العراقية منذ أمد طويل والتي ما زالت مكبوتة ومقموعة.

واليوم.. وبعد الخلاص الذي كان ينشده العراقي الأصيل، ومن خلال التثقيف والتوعية الصحيحة والإرشاد السليم والعودة إلى الإيمان الصافي والنقي، سوف تبدأ المنظومات المعرفية السلبية في التراجع والتفكك والتراخي لتحل محلها المنظومات الأصيلة التي تحمل في طياتها قيم الخير والمحبة والسلام والأمن والطيبة والكرم والشجاعة. إنها منظومات الفضيلة عمومًا.

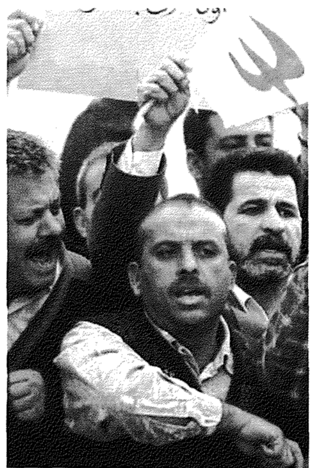
وتقع المسؤولية الكبرى في تحقيق هدف التغيير على مستوى الفرد والمجتمع: على المفكرين والمثقفين من أطباء النفس وعلماء النفس وعلماء الاجتماع والتربويين وأساتذة الجامعات وغيرهم من القادرين

العراقي رغم السلبيات التي تناولناها في هذه المقالة ، كريم ومعطاء ومحب ومتحمس للخير ، شجاع وصبور وأمين وفطري أحيانًا ، عشائري قبلي النزعة والتوجه بحكم الواقع والانقلاب واللاأمان الذي يعيشه

على المشاركة في مهمة التغيير من أجل إعادة الأعمار والبناء للشخصية العراقية المحطمة، والمهشمة والمهمشة اليوم بحكم التاريخ، وبحكم الظروف القاسية والمؤلمة التي عاشها، والتي هي ذاتها، تلك الشخصية التي بنت الحضارة وعلمت الناس الكتابة والحرف والكلمة، ونشرت في أنحاء المعمورة يومًا أسس القانون والعدالة والرحمة، واحتضنت عبر تاريخها الأنبياء والرسل والقديسين والقادة والمؤرخين والعباقرة العظام.

إن أرضًا احتضنت يومًا، آدم (عليه السلام) أبا البشر، ونوحًا (نبي الطوفان)، لن تخيب أبدًا في أبنائها وشعبها. والشخصية العراقية اليوم، وهي حرة في التعبير والسلوك والتصرف، لن ترضى باقل من أن تنتفض، وتتصالح مع ذاتها أولاً، ومع الآخر القريب والبعيد ثانيًا، ومع البناء الجديد لذاتها وجوهرها وجوانيتها ثالثًا. والأهم من هذا وذاك أن تكون هذه الشخصية، وفيةً مطيعةً، عابدةً، لربها، رب العزة والجلال، الله تبارك وتعالى.

وعندما تتحرر هذه الشخصية من رواسب الماضي، وآلام السنين وحيف الزمن، وتغدو مؤمنة



بربها ودينها وحضارتها وتاريخها وأصالتها، تعود قوية بثقافتها وأخلاقها وفكرها، وعصيةً لقاهرها ومحتلها، ولكن بعقلية حضارية جديدة، قوامها العقل والفكر والمنهج والمرونة والمحبة والمسالمة.

إن شخصية متوازنة من هذا النوع، لا يمكن لها أن تخبو أو تتهاون بل تبقى قوية بحجتها وبراهينها وقدرتها على المواجهة المنطقية والعقلانية في عالم، أصبحت فيه الدساتير وشرعة حقوق الإنسان، حقائق يعرفها الصغير والكبير.

استنتاجنا في هذه المقالة، أن الخير قادم، والعراق باق، والشخصية العراقية صامدة، قوية، عصية على المعتدين، لا ترضى بالذل ولا تقبل بالحيف. تطمح لمستقبل زاهر، وترنو إلى غد وضاء. فإن كانت يومًا نموذجًا للحضارة، فهي اليوم على استعداد لتكون غدًا نموذجًا جديدًا ووضاءً للخير والتقدم والسلام والحضارة والمدنية. إنها أهل له.. والله شاهد على ما نقول ■

المصادر

1-Introduction to psychology, Higgard, p.p. 447, 2002.

٢- الوردي، علي حسين، شخصية الفرد العراقي، ص٤، دار اليقظة، بغداد ١٩٥١م.

٣- نفس المصدر السابق، ص٤،٥،٦ .

٤- موفق ويسي محمود، سمات الشخصية العراقية، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة بغداد/١٩٨٩، ص٧٣ .

٥- الساعاتي، سامية، الثقافة والشخصية، بغداد/دار الرشاد،١٩٦٩، ص٢٤٠ ـ ٢٤١ .

٦ – عاطف، وصفي، الثقافة والشخصية، بيروت ١٩٧٩ .

٧ – النوري، قيس، الحضارة والشخصية، بغداد، دار الرشاد ١٩٨٢، ص١٢٧ .

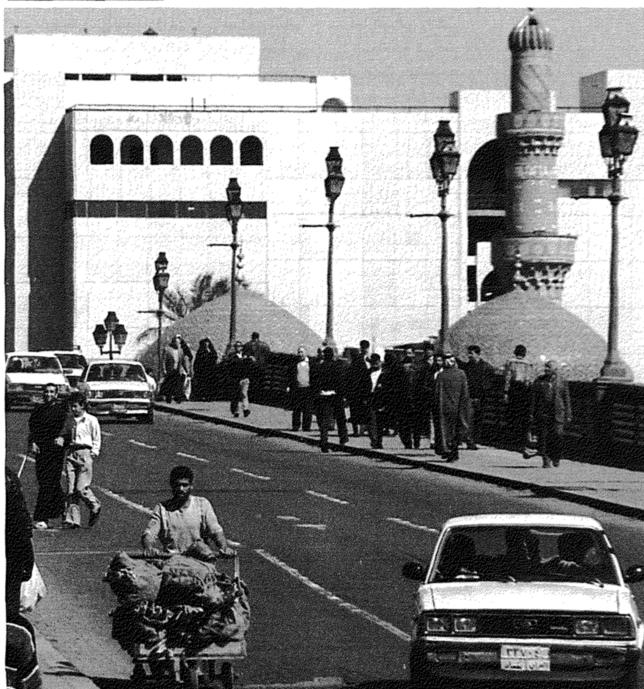
٨ – جورج عزيز ياقو، التسلسل الزمني للوقائع والأحداث الرئيسة في العراق قديمًا وحديثًا، مقالة في مجلة بين النهرين، العدد ١٢٣ السنة ٣١، ٢٠٠٣م.

٩ – نفس المصدر السابق في (٤) أعلاه، ص: ٩٩ .

التركيبة السكانية في العراق

فسيفساء أعراق وأديان ولغات

جميل نجيب الحبيب - بغداد*



* أستاذ بقسم الجغرافيا ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد .

لقد أثر المظهر الطبيعي والموقع الجغرافي والحوادث التاريخية في جعل العراق من الناحية البشرية موطنًا قديما للإنسان، إذ أصبح منطقة جذب لحركات الهجرات البشرية المستمرة منذ آلاف السنين حتى الوقت الحاضر. فقد كون السومريون دويلاتهم في جنوب العراق في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، وقد نزح الساميون إلى العراق على شكل موجات متعاقبة قادمين من شبه جزيرة العرب.

وأهم هذه الموجات هي:

* الأكديون، سكنوا في وسط وجنوب العراق (٢٣٥٠ ـ ٢٠٨ قبل الميلاد).

* البابليون، وهم أموريون وآراميون وكلدانيون، وقد سكنوا وسط وجنوب العراق أيضًا، وحكموا ما بين ١٩٩٨ ـ ٥٣٨ قبل الميلاد.

* الآشوريون، سكنوا المنطقة الشمالية من العراق، وقد قدموا من شبه جزيرة العرب وكونوا إمبراطوريتهم بين ٢٠٠٠ ـ ٦١٢ قبل الميلاد.

أما الأقوام الجبلية الشمالية وهم الكوثيون والحثيون والميديون فقد سيطروا على معظم أراضي العراق ما بين ٢١٨٠ ـ ٢٠٨٠ قبل الميلاد[1] وبعد سقوط الدولة البابلية والآشورية تعاقبت على حكم العراق جماعات بشرية منها:

ـ الفرس الأخمنيون ٥٣٨ ـ ٣٣٠ قبل الميلاد.

ـ الإغريق والعهد السلجوقي ٣٣١ ـ ١٣٩ قبل الميلاد.

ـ الفرس الفرثيون ٢٤٧ ـ ٢٢٦ قبل الميلاد.

ـ الفرس الساسانيون ٢٢٦ قبل الميلاد ـ ٦٣٧ ميلادية.

أما العرب فقد أقاموا دولة المناذرة في وسط وجنوب العراق، وبعد ظهور الإسلام وسقوط الإمبراطورية الفارسية قدم العرب إلى العراق لغرض نشر الدين الإسلامي. وفي عصر الدولة العباسية ٧٤٥م ـ ١٢٥٨م تزايد عدد الأسرى والرقيق من الزنوج، وبعد سقوط هذه الدولة ودخول المغول إلى العراق عام ١٢٥٨م جاءت موجة مغولية ١٣٩٢م، وفي تلك الفترة كانت القبائل التركمانية تهاجم حدود العراق حتى استطاعت إزاحة المغول ١٤١١م، كما استمر مجيء الفرس الصفويين من جهة الشرق ١٥٠٨م والذي استمر حكمهم حتى ١٦٣٨م. عندما تم إخضاع العراق للحكم العثماني الذي امتد حتى عام ١٩١٧م[2]. وهو تاريخ الاحتلال البريطاني للعراق.

التركيب القومي

يتضح من تاريخ العراق أنه كان يمثل صراعًا مستمرًا بين الشعوب الوافدة إليه، ما خلف آثارًا هامة في النواحي الإثنولوجية الناتجة عن تعدد السلالات المختلفة. إن التعقيد الإثنولوجي أدى إلى تباين الصفات الهيكلية للسكان، فبالرغم من أن العرب سكنوا في الجنوب والوسط من العراق والأكراد في الشمال، فقد استطاعوا صهر معظم العناصر البشرية الأخرى إلا أن تلك العناصر بقيت تؤثر في الصفات العرقية الأصلية للسكان في العراق.

ومن تلخيص الأصول السلالية يمكن تصنيف سكان العراق إلى ثلاث مجاميع قومية كبرى هي:

* الشعوب السامية وتضم العرب، والصابئة، والكلدان، والسريان، والآشوريين.

* الشعوب الهندية ـ الأوروبية وتضم الأكراد والفرس.

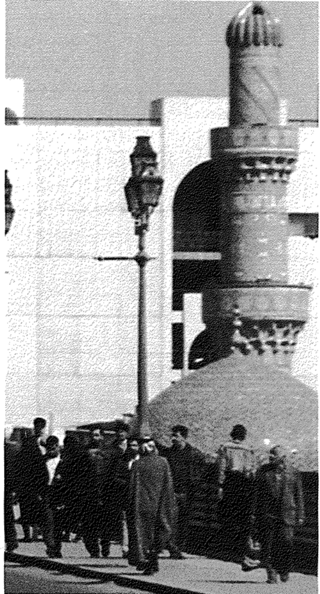
* الشعوب التركية ـ المغولية وتضم الأتراك والتركمان.

لقد حدث تمازج واختلاط من خلال تأثير قوميتين كبيرتين هما العربية والكردية، أي امتزاج الصفات الجنسية التي تحملها كل من هاتين القوميتين في وجود كل العناصر البشرية الأخرى.

وقد استطاعت القومية العربية كمفهوم حضاري أن تحتوي الغالبية العظمى من العناصر المتعددة الموجودة في أرض العراق، وينطبق الأمر على أكراد العراق، إذ استطاعت السلالة الكردية في قسم من شمال العراق احتواء الغالبية العظمى من العناصر السلالية المتعددة في تلك المنطقة.

أما العناصر الأخرى فقد انزاحت نحو أطراف المنطقة البشرية العربية أو الكردية، لذا فإنها استقرت في مناطق متعددة ومتفرقة على الحدود الفاصلة بين مناطق الأغلبية العربية أو الأغلبية الكردية .

يشكل العرب الغالبية العظمى من سكان المحافظات الجنوبية والوسطى والشمالية



الغربية، إذ تزيد نسبتهم فيها على أكثر من ٩٥٪ من مجموع السكان، بينما تنخفض هذه النسبة في محافظات كركوك وأربيل والسليمانية ودهوك.

أما منطقة انتشار الأكراد فهي المنطقة الشمالية الشرقية المجاورة للحدود الإيرانية العراقية والتركية العراقية. أما التركمان والأتراك فتعد ثالث مجموعة قومية من حيث العدد بين سكان العراق، ينتشرون على الحدود الفاصلة بين العرب والأكراد، وتمتد منطقة تجمعهم على طول خط يبدأ من الشمال الشرقي من منطقة تل عفرة وتلعفر في محافظة نينوى إلى الجنوب الشرقي من مندلي في محافظة ديالى، وتعد محافظة كركوك من أكبر مناطق تجمعهم. وقد اندمج العديد من ذوي الأصول التركية اندماجًا حضاريًا مع العرب في المناطق العربية ما يصعب تمييزهم.

الفرس

يمكن تمييز قسمين حسب تاريخ قدومهم إلى العراق:

* اليزيديون: يمكن إرجاعهم إلى أصل فارسي قديم، ويرجع إلى الاحتلال الساساني للعراق، وقد اختفى الكثير من مميزاتهم واختلطوا بالسكان المحليين، ومن هنا اختلفت الآراء في تصنيفهم، إذ يعتبرهم بعض الباحثين من الأكراد، بينما يعتبرهم آخرون من العرب. تعيش الغالبية العظمى من اليزيدية في محافظة نينوى في قضاء شيخان ومنطقة جبل سنجار في غرب المحافظة.

* الفرس الذين يسكنون المدن المقدسة مثل كربلاء والنجف والكوفة والكاظمية، ويرجع قسم منهم إلى زمن احتلال الصفويين للعراق سنة ١٥٠٧ ميلادية، ويعد الغرض الديني عامل جذب في استيطان هذه المجموعة[٣].

الأرمن والآثوريون

كان مجيء هؤلاء إلى العراق بعد الحرب العالمية الأولى، ويسكنون اليوم المدن الكبرى خصوصًا بغداد والموصل وكركوك، وبعض القرى الشمالية مثل زاخو وراوندوز، فضلاً عن منطقة الحبانية غرب مدينة الفلوجة في محافظة الأنبار.

الصابئة

جماعة صغيرة يسكنون المحافظات الجنوبية، خصوصًا محافظة ميسان التي تضم أكثر من نصفهم، كما ينتشر الصابئة في البصرة والناصرية. وقد

شهدت العقود الأخيرة من القرن الماضي هجرة واسعة من الصابئة نحو المدن الكبرى خصوصًا مدينة بغداد.

السريان والكلدان

يرجع أصلهم إلى سكان العراق القدماء من الآشوريين والآراميين، وينتشر السريان والكلدان في محافظة نينوى ومدينة الموصل، ويختلط قسم منهم بالأثوريين اختلاطاً شديدًا.

فضلاً عن ذلك هناك عدد قليل من الشركس والداغستان يسكنون مناطق متفرقة في شمال العراق، خصوصًا محافظة نينوى، أما الشيشان (الجيجان) فيسكنون في محافظة ديالى، أما الهنود والبلوش فيسكنون مدينة البصرة في جنوب العراق، وقد جاء معظمهم مع القوات البريطانية التي احتلت العراق بعد الحرب العالمية الأولى. أما الزنوج فانهم يتركزون في المحافظات الجنوبية خصوصًا محافظة البصرة، ويرجع مجيئهم إلى العراق إلى أوائل الدولة العباسية، إذ جاؤوا على أساس رق وعمال يشتغلون في الزراعة.

التركيب اللغوي:

اللغة العربية

يتكلم باللغة العربية أكثر من ٨٠٪ من سكان العراق، وهي لغة الذين جاؤوا من الجزيرة العربية، كما يتكلم بها معظم السكان الباقين بالإضافة إلى لغاتهم الأصلية، ويستثنى من ذلك بعض الجماعات الكردية المنعزلة في المناطق الجبلية الوعرة على الحدود الإيرانية والتركية، لذا يمكن القول إن نسبة المتحدثين باللغة العربية في العراق قد ترتفع إلى نحو ٩٧٪ من مجموع سكان العراق[٤].

اللغة الكردية

هي من اللغات الهندوآرية ويتحدث بها حوالي ١٥,٥٪ من سكان العراق جميعهم من الأكراد وغالبية من اليزيدية.

اللغة التركية والتركمانية

هما من اللغات التركية المنحدرة من اللغات المغولية المنشورية، ويتكلم بها مجموعة من السكان لا تزيد نسبتهم عن ١,٩٪ من مجموع سكان العراق. لقد دخلت اللغة التركمانية للعراق في عهد المغول، أما اللغة التركية فدخلت مع الأتراك العثمانين.

اللغة السريانية

هي لغة آرامية دخلت العراق مع السريان الذين وفدوا من سوريا، وأصبحت لغة الكنيسة في العراق،

▌▌ بالرغم من أن العرب سكنوا في الجنوب والوسط من العراق والأكراد في الشمال، فقد استطاعوا صهر معظم العناصر البشرية الأخرى. إلا أن تلك العناصر بقيت تؤثر في الصفات العرقية الأصلية للسكان في العراق. ▌▌

ويتكلم بها المسيحيون السريان والكلدان، ويكونون نسبة نحو ٠,٣٪ من مجموع سكان العراق.

اللغة الأثورية

تبلغ نسبة المتحدثين بهذه اللغة نحو ٠,٣٪ من مجموع سكان العراق، وهي لغة آرامية كسابقتها إلا أنها قد تغيرت عنها بسبب عزلة الأثوريين في المناطق الجبلية المنعزلة في أثناء الغزو المغولي للعراق.

اللغة الأرمنية

هي لغة هندوآرية ويتكلم بها نحو ٠,٢٪ من مجموع السكان الذين نزحوا إلى العراق بعد الحرب العالمية الأولى.

التركيب الديني

تظهر البيانات الرسمية لتعداد السكان سنة ١٩٩٧م أن الغالبية العظمى من سكان العراق هم من المسلمين، اذ تصل نسبتهم إلى ٩٥٪ من مجموع السكان في العراق. ويلي المسلمين المسيحيون ويشكلون نحو ٣٪ من مجموع السكان وأصحاب الديانات الأخرى يشكلون ٢٪ من مجموع السكان في العراق.

تسود الديانة الإسلامية بين العرب والأكراد والتركمان والفرس والشيشان والشركس والداغستان والهنود والبلوش. وتنقسم الديانة الإسلامية في العراق إلى مذهبين رئيسين المذهب السني والمذهب الشيعي، وبالنظر لخلو استمارات جميع الإحصاءات السكانية في العراق من حقل «المذهب» فمن المتعذر ذكر النسب المئوية، ومن الجدير بالذكر أنه حدث اختلاط كبير بين

المذهبين نتيجة التزاوج والاختلاط في أماكن السكن. وقد نجد أن القبيلة الواحدة أو العشيرة ينتمي أفرادها إلى المذهبين.

أما الديانة المسيحية فيدين بها كل من الكلدان والسريان والأرمن والأثوريين وهم على مذاهب عدة منهم الكاثوليك والنساطرة والأرثوذكس والبروتستانت.

أما الدين اليهودي فيتركز في مدينتي بغداد والبصرة بالدرجة الأولى، وهناك قسم منهم في مدينة الحلة وعانة، إلا أن عددهم تضاءل كثيرًا وذلك بعد سنة ١٩٤٨م إذ هاجر الأغلبية العظمى منهم إلى فلسطين.

أما الديانة الصابئية فيعود أصولها إلى الديانات البابلية القديمة. وتوجد ديانة خاصة باليزيدية وتتكون من خليط يتراوح بين التعاليم الإسلامية والشعائر المانوية والفارسية القديمة.

وتوجد طوائف دينية أخرى تدين بها جماعات صغيرة تتوزع على قرى متفرقة من العراق، ومنهم من يسمون عبدة الشيطان والبهائية والبائية[٥].

في إطار التركيب الديني يكفل القانون العراقي حرية العمل لجميع الأديان وحرية ممارسة الطقوس الدينية والاحتفالات بأعياد جميع هذه الأديان والطوائف.

التركيب العمري والنوعي للسكان

تأتي أهمية التركيب العمري والنوعي للسكان في تقدير السوق الداخلية وحاجته إلى



السلع الاستهلاكية، وتقدير الحاجات الخدمية العامة للسكان، كالخدمات التعليمية والصحية والسكن وغيرها، كما يحتاج إلى معرفة التغيرات في حركة السكان خارج قوة العمل وداخلها، كالأطفال الذين يدخلون سن الدراسة والشيوخ الذين يحالون إلى التقاعد والشباب الذين في سن العمل والزواج وغير ذلك.

التركيب العمري لسكان العراق

يصنف السكان عادة عند دراسة التركيب العمري إلى ثلاث فئات رئيسة هي:

* فئة صغار السن (الأطفال والمراهقون) أقل من ١٥ سنة.

* فئة متوسطي العمر (البالغون) تتراوح أعمارهم ما بين ١٥سنة إلى ٦٤ سنة.

* فئة كبار السن ٦٥ سنة فأكثر[٦].

[جدول رقم ١]

السنة	الذكور	الإناث	عدد الإناث إلى ١٠٠٠ من الذكور
١٩٥٧	٣١١٥٠٠٠	٣١٤٤٠٠٠	٩٩٦,٥
١٩٦٥	٤١٠٢٠٠٠	٣٩٤٢٠٠٠	٩٦١,٧
١٩٧٧	٦١٨٣٠٠٠	٥٨١٧٠٠٠	٩٤٠,٨
١٩٨٧	٨٣٩٦٠٠٠	٧٩٣٩٠٠٠	٩٤٥,٨
١٩٩٧	١٠٩٨٧٠٠٠	١١٠٥٩٠٠٠	١٠٠٦,٥

تتصف الفئة الأولى بأنها غير منتجة إذ لم يدخل أفرادها بعد سن العمل، وترتفع نسبتها في سكان العراق، إذ تبلغ نسبتهم نحو ٤٦,٢٪ من مجموع السكان حسب إحصاء ١٩٩٧م. أما الفئة الثانية فتعد أهم الفئات في المجتمع لكونها الفئة الداخلة في سن العمل وتتحمل إعالة الفئتين الأولى

الحالة العلمية	الذكور٪	الإناث٪	المجموع٪
أمي	٧,١٤	١٥,٧١	٢٢,٨٥
يقرأ	٠,٦٨	٠,٩١	١,٥٩
يقرأ ويكتب	١١,٢٩	١١,٥١	٢٢,٤٥
ابتدائية	١٤,٩٦	١٢,٦٩	٢٧,٨٦
متوسطة	٥,٤٩	٣,٦٧	٩,١٦
ثانوية	٢,٧٥	١,٨٨	٤,٦٤
مدارس مهنية	١,٥٩	٠,٨٧	٢,٤٧
دبلوم	١,٦٤	١,٢٤	٢,٨٨
بكالوريوس	٢,١٢	١,١٣	٣,٢٥
دبلوم عال	٠,١٧	٠,٠٩	٠,٢٦
ماجستير	٠,١٢	٠,٠٣	٠,١٥
دكتوراه	٠,٠٥	٠,٠٠٧	٠,٦
شهادة تخصصية عالية	٠,٠٠٦	٠,٠٠١	٠,٠٠٧
أخرى	٠,٠٠٠٨	٠,٠٠١	٠,٠٠٠٩
غير مبين	١,١٣	١,١٦	٢,٢٩
المجموع الكلي	٤٩,٢٠	٥٠,٨٠	١٠٠

[جدول رقم ٢]

والثالثة، وتبلغ نسبتها نحو ٣, ٥٠٪ من مجموع السكان . بينما الفئة الثالثة وهي كبار السن تضم أعدادًا كبيرة من الإناث والذكور الشيوخ المسنين، وتبلغ نسبتهم ٣,٥٪ من مجموع السكان حسب إحصاء ١٩٩٧م(٧).

ويقودنا التركيب العمري إلى نسبة الإعالة، وتعتمد هذه النسبة على أساس أن جميع السكان مستهلكون بينما يقتصر الإنتاج على فئة الأعمار التي هي في سن العمل (١٥سنة إلى٦٤ سنة) ويعني وجود نحو ٩٨,٨٪ من سكان العراق معالاً والتي تضم صغار السن أقل من ١٥ سنة وكبار السن ٦٥ فأكثر لسنة ١٩٩٧م(٨).

التركيب النوعي

يعتمد التركيب النوعي على تقسيم السكان إلى ذكور وإناث. تبلغ نسبة الإناث حسب إحصاء ١٩٩٧م حوالي ١٦, ٥٠٪ من مجموع السكان، بينما تبلغ نسبة الذكور ٤٩,٨٤٪، كما ويعني التركيب النوعي عدد الإناث لكل ١٠٠ أو ١٠٠٠ من الذكور، وهذه النسبة لها أهمية كبيرة، إذ إنها تؤثر في معدلات المواليد والوفيات والهجرة والتوزيع الاقتصادي للسكان.

جدول رقم [١] يوضح نسبة الجنس لسكان العراق خلال الفترة ١٩٥٧-١٩٩٧(٨).

يتضح من الجدول أعلاه أن عدد الإناث أقل من عدد الذكور كما هناك هبوطًا بطيئًا في هذا العدد حتى سنة ١٩٨٧م، ويكون من الصعب تحديد الأسباب التي أدت إلى هذه الظاهرة، خصوصًا أن الهجرة الخارجية للذكور ضئيلة لم تؤثر بمقياس واسع على اختلاف العلاقة العددية بين عدد الذكور وعدد الإناث، وكذلك الأمر بالنسبة للحوادث الطارئة التي تؤدي إلى فقدان عدد متساو من كلا

الجنسين. ويمكن إرجاع السبب الذي يؤدي إلى انخفاض نسبة الإناث إلى النظرة الاجتماعية التي تؤدي إلى إعطاء الإناث اهتمامًا أقل من الذكور. أما الارتفاع الذي حدث في نسبة الإناث سنة ١٩٩٧م فيمكن إرجاعه إلى الحوادث التي ظهرت بعد سنة ١٩٩١م، وكذلك الحصار الاقتصادي وانخفاض مستوى المعيشة للفرد العراقي ما أدى إلى هجرة عدد لا بأس به من الذكور للعمل خارج العراق.

التركيب الثقافي

يوضح الجدول رقم [٢] صورة تفصيلية للبيئة الثقافية لسكان العراق حسب تعداد ١٩٩٧م الذي يتناول الجنس والحالة العلمية للأعمار أكثر من عشر سنوات. ويظهر من تحليل هذا الجدول أن ٢٢,٨٥٪ هم أميون، وأن نسبة الأمية بين الذكور ٧,١٤٪ وبين الإناث ١٥,٧١٪، أما نسبة الذين يقرؤون ويكتبون ٢٧,٨٦٪ بينما ٣,٢٥٪ من مجموع المتعلمين يحملون شهادة جامعية أولية، وأن نحو ٠,٠٦٪ من حملة شهادة الدكتوراه منهم ٠,٠٥٣٪ من الذكور و٠,٠٧٪ من الإناث. أما نسبة حملة شهادة الماجستير فتبلغ ٠,١٥٪ منهم ٠,١٢٪ من الذكور و٠,٠٣٪ من الإناث.

المجموع الكلي

إن نسبة حملة الشهادات العليا من الدكتوراه والماجستير تعد منخفضة، ويرجع السبب إلى أن عددًا كبيرًا من حملة هذه الشهادات سافروا إلى خارج العراق للعمل في الأقطار العربية والدول الأجنبية خصوصًا بعد عام ١٩٩١م.

أما عدد طلبة الدراسات العليا خارج العراق سنة ١٩٩٩م فقد بلغ ٢٣٧ طالبًا فقط[٩] للحصول على شهادات الدكتوراه والماجستير أو الدبلوم العالي، والذين يدرسون على أساس بعثات أو زمالات أو منح دراسية أو على نفقتهم الخاصة، ويعد هذا العدد قليلاً إذا ما قورن بعددهم سنة ١٩٩٠م. أي قبل الحصار، فقد بلغ عددهم ١٢٠١ طالب[١٠].

الهوامش

١- فاضل الأنصاري، سكان العراق،دراسة ديموغرافية - جغرافية مقارنة. الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٧٠م، صفحة ١٩ .

٢- أحمد نجم الدين، جغرافية سكان العراق، مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٢م صفحة ١٦٩ .

٣- المصدر السابق. صفحة ١٧٠ .

٤- فاضل الأنصاري، المصدر السابق صفحة ٣١ .

٥- صلاح حميد الجنابي، سعدي علي غالب - جغرافية العراق الإقليمية، جامعة الموصل ١٩٩٢م صفحة ٢٢٧ .

٦- جمهورية العراق - الجهاز المركزي للإحصاء - المجموعة الإحصائية السنوية سنة ٢٠٠١م صفحة ٤٤ .

٧- استخرجت نسبة الإعالة بالمعادلة الآتية:

$$\text{نسبة الإعالة} = \frac{\text{عدد الأطفال + عدد الكهول}}{\text{عدد الشباب}} \times ١٠٠$$

المصدر: طه حمادي الحديثي - جغرافية السكان - مطبعة جامعة الموصل ٢٠٠٠ صفحة ٦٢٠ .

٨- جمهورية العراق، الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الإحصائية السنوية سنة ٢٠٠١، صفحة ٤١ .

٩- جمهورية العراق، الجهاز المركزي للإحصاء - المجموعة الإحصائية السنوية لسنة ٢٠٠١، صفحة ٣٤ .

١٠- جمهورية العراق - الجهاز المركزي للإحصاء - المجموعة الإحصائية السنوية لسنتي ١٩٩١ صفحة ١١٠ و ٢٠٠١ صفحة ١٢٢ .

المصادر

١- إبو عيانة، فتحي محمد: جغرافية السكان، دار الجامعات المصرية ١٩٧٧م.

٢- الأنصاري، فاضل: سكان العراق،دراسة ديموغرافية - جغرافية مقارنة - دمشق ١٩٧٠م.

٣- الجنابي، صلاح حميد، سعدي علي غالب، جغرافية العراق الإقليمية، الموصل ١٩٩٢م.

٤- الحديثي: طه حمادي: جغرافية السكان، جامعة الموصل ٢٠٠٠م.

٥- فليجة: أحمد نجم الدين: جغرافية سكان العراق، مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٢م.

٦ - جمهورية العراق - الجهاز المركزي للإحصاء - المجموعة الإحصائية السنوية للسنوات ١٩٩١ و ٢٠٠١م.

ملامح الثقافة في العراق

أرض أول مَن كَتب !

يوسف توما . بغداد *



* أستاذ الفلسفة واللاهوت . كلية بابل - بغداد .

يلجأ البحار إلى مسبار كي يقيس عمق البحر، وقد حاول الإنسان أن يخترع وسائل قياس لكل شيء ما عدا الحقيقة، التي بقيت محيرة في أبعادها كافة، بما في ذلك البعد الزمني، والموضوع الذي يهمنا هو: الثقافة في العراق، لكننا نقف حيارى أمام مثل هذا العنوان، ما المطلوب؟ وما المنهج الذي علينا السير بحسبه؟ فالعراق بلد متعدد الثقافات وكل الحضارات التي سادت على أرضه تركت بصماتها الغنية وتركت أيضًا ندبات عميقة على جسمه.

من جهة أخرى هل الوقت اليوم ملائم للكتابة عن مثل هذا الموضوع، وهل نمتلك مسبارًا قادرًا على أن يعمل والبحر لا يزال هائجًا متلاطم الأمواج؟ وهل يمكن للناس أن تعنى بالثقافة والموت يسير في الشوارع ويسرح على الطرقات، والإرهاب والاغتيالات أصبحت أمورًا عادية؟

قد يضيع المرء في التحليل وفي محاولة قراءة الكم الكبير من معطيات أشبه بالخطوط المتقاطعة، والتي نسجت حياة العراق الاجتماعية. فالعراق ما فتئ يكوّر نفسه ويجمع قواه لكي يقاوم الزمن الأسوأ، ويحاول أن يعطي أحسن ما فيه لمجابهة الأمواج الشاهقة، فاختلطت الثقافات المحلية بما جاءته من الخارج. لذلك لا يمكن أن نستطلع حقيقة ثقافة العراق إلا من خلال قراءة تلك الخطوط المتقاطعة، نحاول أن نجمعها من هنا وهناك، لنطل على هذا العالم الغني، نزورها بعيون الغربة كأننا سياح، فنلقي نظرة تعجب وتأثر وتعاطف ودهشة، ويلاحظ ذلك كل من يزور العراق للمرة الأولى، هذا الطابع الواثق بطريقة العيش في ظروف هي، أقل ما يقال، أنها بقيت على مدى طويل على هامش الحياة، إذ بقي هذا البلد في عزلة مفروضة، وقد يتجلى ذلك في قابلية التكيف على ما بقي لديه، والقبول لتمشية كل جوانب الحياة بالنقص بكل أشكاله، فهو يكشف عن رغبة قوية للتبادل واللقاء مع الآخرين، في الخارج والداخل، إن ثقافة العراق في حناياها هي ثقافة عزلة تنكشف في سلوك الناس وفي أفكارهم وشعرهم وغنائهم، وحتى في تصوفهم وتعاملهم مع المطلق.

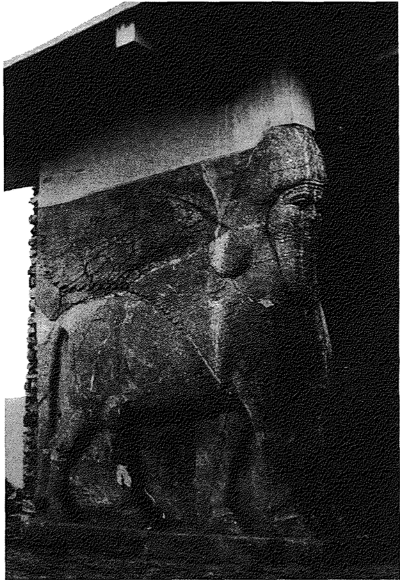
ثقافة العزلة

إن غالبية الذين هاجروا من العراق في القرن الماضي، وخصوصًا الذين اضطروا إلى ذلك، وعاشوا بين ظهراني شعوب أخرى، يعانون الشعور بالغرابة، قد يكون مرجعه ما يحملونه في أعماقهم من رؤيا للحياة ومن قراءة مختلفة لها. فيبقى المهاجر العراقي غريبًا، بسبب ثقافته الخاصة، ونظرته إلى الحياة، يصعب عليه إيصال ذلك إلى الآخرين وهذا يؤلم ويدهش، وعندما ينجح العراقي في إيصال ذلك والتعبير عن ذلك الشعور، يلمس حدود الإبداع، وإذا ما توفرت له الظروف فقد يصل إلى مناطق من التصور لا يقيمها هو، وإنما كل من يزور العراق يشعر بأنه لن يخرج منه صفر اليدين، إذ يتعلق بهذا البلد وأبنائه.

إن العراقي بصورة عامة مثقف وفنان بالفطرة، لكنه لا يتعامل مع الثقافة كتعبير

مريح وإنما يشعر بأن ذلك بمنزلة حمل ثقيل، كمن أصيب بقدر سلبي ينتظر من يزيحه عنه أو يعالجه منه أو يساعده على أن يقرأه له ويخفف عنه.

وإذا ما حاولنا أن نقارن الثقافة في العراق، يمكن القول لا أرى ما يوازيها في العالم سوى الثقافة الروسية التي هي الأخرى تميزت بالمأساة، وفي كلتيهما يتجلى ذلك في كل أشكال الفنون والآداب، بل حتى في استعمال الكلمات واللغة وخصوصًا في الشعر، يتجلى ذلك في صعوبة العيش، في أرض عصية، برغم خصبها وغناها، عليه أن يقتلع الخبز من باطن الأرض فهو الذي اكتشف الحنطة في الشمال قبل كل الشعوب، وهو الذي اكتشف الرز في الجنوب، بالزراعة اكتشف الشوك والحسك والمعاناة فقيل له: «بعرق جبينك تأكل خبزك». ارتبط بالمأساة فجاءت صفحات تاريخه محملة بالشك وبالغضب، ولكنها أيضًا محملة بالسخاء والحنين إلى فردوس مفقود ما زال يبحث عنه منذ جلجامش في قلقه، والسندباد في ملله من حياة بغداد الغنية والرتيبة إلى آخر مهاجر حائر يقف على الرصيف ويسأل نفسه: ماذا أفعل هنا؟ نسي ما جاء به إلى هناك، وبقي يبحث عن تلك الصداقة التي كانت تغمره بديهية، صاعقة، لا تردد فيها، صداقة قادرة على أن تجمع الأعداء، أعداء الأمس، وتحوّل اللقاء إلى رقص، رقصة الفنون، تمتد حتى الليل وتطال تلافيف الفجر، لا عجب إذًا أن يكون أبو المؤمنين، المهاجر العراقي الأول، قد دعي «الخليل» إذ انكشف له، وللمرة الأولى، وجه آخر حقيقي، لا كصورة يعبدها، وإنما كشخص يحبه أكثر من الضنى، ذلك الحي وحده سيضع الحد الفاصل بين حقيقة الحياة والموت.



الإطار والصورة

إن تاريخ العراق يتميز ببروز هذا التباين الشديد بين الموت والحياة، ومن لا يصل إلى قاع المأساة لا يتعرف القمم، والحال هذا يتكرر في تاريخه القديم والحديث على السواء، وكان في كل مرة يستجمع قواه لإعادة البناء، والبدء من الصفر، ألم تكتب هنا أولى الملاحم التي تدور حول دمار الكون والطوفان؟ ألا تقف البشرية باحترام أمام الأساطير التي دبجها العراقيون، والتي تبدو وكأنها كتبت للتو، هل يوجد في العالم أشمل من التساؤلات التي طرحت وتطرح من قبل الشعراء والأدباء والروحانيين والمتصوفة؟ ألم تكن تلك المحاولات بمنزلة سلم صعد بها الإنسان إلى الأعالي؟

والسؤال يبقى: لماذا يتميز العراق بكل هذه القوة والعناد والتصميم، وقد اعتاد ذلك منذ فجر التاريخ؟ أعمال البناء عنده لا تعني الترقيع، أعمال الزراعة،

والبنى التحتية، كل ذلك كشفت إرادة تتسابق مع الزمن وتحاول أن تمسح ما حملته إليه الذاكرة مما مر عليه وكأني به يحرق قواه وطاقاته بانتظار عودة إلى الحياة الطبيعية والاقتصادية وللتبادل مع الآخرين، فيضحي ويقبل بالموت، يعود أدراجه.

هكذا دارت الحياة الاجتماعية تحت ضغط مطرقة المآسي من جميع الأشكال، خصوصًا الاقتصادية منها، كم من غني افتقر! وكم عزيز ذل! أما الأغلبية من أبناء الطبقات الوسطى، فبقيت ذات الكفاف، يتجلى ذلك عندما تمتد أصابع الفقر إلى شوارع المدينة، فبيعت آلاف الكتب على الأرصفة، وانتشر الأطفال، عوض أن يملؤوا المدارس، يستعطون في التقاطعات، أو يلجؤون إلى العمل في أسوأ الظروف، وامتدت بثور الفساد، على وجه المجتمع، الفساد الإداري والاجتماعي والاقتصادي والمالي. وتلك ظواهر وإن عرفتها كل البلاد التي مرت في حروب واضطرت إلى الاكتفاء بالقليل والنادر الذي لديها، لكن العراق بصبره فاقها جميعًا. وإن كانت الحروب العالمية لم تتجاوز خمس سنوات، لكن ما حدث في العراق جدير بقراءة أخرى، فأي بلد عاش خيرة شبابه في الأسر عقدين من الزمن؟ وأي بلد استطاع أن يبقى قويًا في الأمل برغم كل ما حل به من مصائب وفقدان الآلاف من أبنائه؟

صورة الثقافة وثقافة الواقع

مما أثار اهتمام العالم بعد ٢٠٠٣/٤/٩م هو تعرض المتاحف العراقية إلى السرقة، وانتشرت في كل أنحاء العالم قطع ثمينة من الإرث البشري، لكن هذا ليس بالجديد، بل اهتمام الإعلام به هو الجديد. هذه السرقات قديمة منذ قرون، ومنذ قدوم أول الرحالة، لكن ما سرق من لوحات الرواد والمتاحف هو ما كان يعد ملكًا للدولة، لكن لم يهتم أحد بما بيع من مقتنيات الأفراد بأسعار زهيدة. باعت بعض العوائل مجوهراتها ومصوغاتها وأثاثها وسجادها الثمين، قطع لا تقدر ثمن انتشرت في السوق السوداء، أخذها تجار، وحتى دبلوماسيون إلى الخارج، باعوا آثارًا ومخطوطات نادرة، وقد صرحت منظمة اليونسكو أن ما يربو على أربعة آلاف قطعة أثرية معروفة ومسجلة، هي في عداد المفقودات، إلى جانب نوادر الكتب التي تقبع في سراديب شارع سوقرن في باريس، أو لدى

مما أثار اهتمام العالم بعد ٢٠٠٣/٤/٩م هو تعرض المتاحف العراقية إلى السرقة ، وانتشرت في كل أنحاء العالم قطع ثمينة من الإرث البشري . لكن هذا ليس بالجديد ، بل اهتمام الإعلام به هو الجديد .

تجار الأثاث الذين يمنون النفس بتسويق كل ذلك في مستقبل قريب عندما تخف المراقبة.

إن الحالة التي آلت إليها حالة التراث الفني في العراق تكشف عمق ما حدث وما يحدث، منذ أن بدأ الغرب يهتم بآثارنا، أي منذ أواسط القرن ١٩، عندما بلغ السباق بين قنصلي بريطانيا وفرنسا في ولاية الموصل أشده، فكان كل منهما يحاول الاستيلاء على أكبر كمية ممكنة من اللقى، عقبهما تجار من كل الأصناف الذين كانوا يعرضون ما يجدونه من آثار تنقب بشكل عشوائي، فيحفرون كيفما اتفق، وإذا ما كانت القطعة كبيرة أو التمثال ثقيلاً، عمدوا إلى قطع الرأس فقط، فيبيعونه أو يذيبون الحلي الذهبية واللقى المعدنية ليبيعوها بسعر المعدن فقط، فضاعت كنوز لا تقدّر بثمن وما سلم منها إلا القليل جدًا. وما حدث بعد سقوط النظام السابق، أن قامت عصابات تحفر وتنهب الآثار بلا رادع يردعها فقامت أحيانًا مروحيات التحالف بملاحقة بعضهم بعضًا لكن ماذا حدث في الحقيقة لا أحد يدري، قد يخبئ المستقبل مفاجآت بما لا يمكن مقارنته بما حدث في مصر لقبور الفراعنة على أيدي اللصوص.

الثقافة الهامشية

هذا ينقلنا إلى الثقافة الهامشية وسوق خاصة بالنسخ والنقل والاتجار بالمنسوخ من

اللوحات والمخطوطات والأعمال الفنية الأخرى، ولها أيضًا جمهورها وروادها، لها محلات مضاءة في مناطق خاصة في بغداد وبعض المدن الكبرى، حيث يتجول هواة الشرقيات يأتون من كل حدب وصوب، يتعاملون لخفض سعر ما، يعرضه لهم تجار الكتب من خليط بين فن حقيقي وذوق مشبوه، وقد أخفى الفساد الذي حصل للبلد وجه الأغنياء الجدد، فقد كان من الطبيعي في العراق، فيما سبق، أن تكون البيوت غنية من الداخل عادية المظهر من الخارج، لكن الأمور أصبحت في العقود الأخيرة معكوسة، ترى واجهات البيوت مزدانة ومرصعة بالمرمر والحلان، لكنها من الداخل مهملة فقيرة قبيحة الذوق والمحتوى، وقد لاتجد فيها كتابًا واحدًا، فالكثير من الفنانين والمثقفين غادروا البلد واضعين البلد في حالة نزف مروع في الطاقات والقابليات، وصرنا نرى، منذ سقوط النظام، ونشعر بما تركته هذه الهجرة من فراغ موحش، وشعرنا بخطورة ما حدث، خلال العقود من حكم ذلك النظام، من تفسخ في الشخصية العراقية، وصعوبة الإمساك بزمام الأمور، والحيرة السائدة لدى الأغلبية أمام الموقف الواجب اتخاذه، ويكفي أن نقرأ عناوين الصحف التي تصدر في العراق اليوم، وهي عديدة لنشكل فكرة عن تلك الحيرة.

إذا كانت أمريكا تحيط بالعناية والاهتمام بناية لم تتجاوز القرن (مثل بريد نيويورك)، ألا تجد صعوبة في التعامل مع العراق الذي لا يعد ما فيه أثريًا إلا ما تجاوز خمسة قرون على الأقل؟

فالجميع خائف يتساءل: هل سيدخل العراق مرة أخرى مسلسل الموت والدمار؟ بعد أن وصل إلى القاع إثر عقود من الحروب والحصار والقتل الجماعي. وبرغم ذلك في كل مرة حاول فيها العراق أن يثبت أقدامه ولدت عشرات القابليات. وما إن يلقي المرء نظرة على المنتوج الفني في حيويته حتى يقول لم يجف هذا النبع ولن يجف.

حيوية الثقافة والفنون

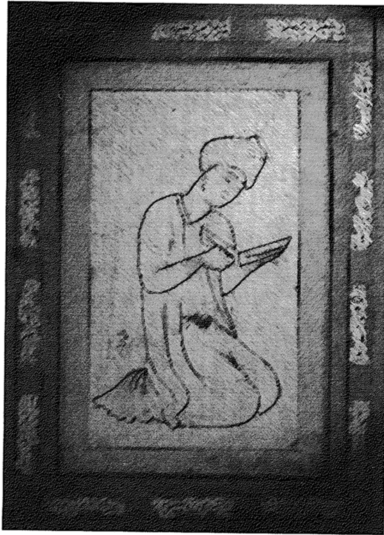
كل الشعوب المتألة تبحث عن ترسيخ جذورها، ولعل هذا هو مرض الهوية الذي تتميز به ثقافة عالمنا المعاصر في بلدان عدة، لذا نلاحظ أن الكتاب الذين تطرقوا إلى هذا الموضوع رأوه من باب أهمية الجذور والتجذر. ويتساءل البعض أليس من الغريب أن يهجم البلد الأقوى والأغنى في العالم - ولكن لا جذور لديه - على بلد يعد مهد الحضارة الإنسانية؟ !

أليس من الغريب أن تسري حمى التجذر منذ عقدين في كل أنحاء العالم، أي منذ صدور كتاب ألدوس هكسلي وعنوانه «جذور» عن هوية السود الأمريكيين، هل الثقافة بحاجة إلى تجذر؟ أليس عناوين مثل «التجذر والحداثة» من أكثر العناوين استخدامًا لدى كتابنا؟ وهل جاءت أمريكا إلى العراق للبحث عن جذورها؟ ألم يصدق رئيس جامعة شيكاغو سنة ١٩٩١م، في مقابلة مع الإذاعة البريطانية، حين قال:«إنه من المؤسف أن يهجم أفقر البلاد بالتاريخ على أغناها، العراق «مهد البشرية»، فيلقي قنابل معدّل وزنها أكثر مما ألقي في الحرب العالمية الثانية، على أرض تحتوي ما يربو على نصف مليون موقع أثري؟.

قال ذلك قبل ١٢ عامًا وأعيدت الكرة مرة أخرى.

نعم، إذا كانت أمريكا تحيط بالعناية والاهتمام بناية لم تتجاوز القرن (مثل بريد نيويورك)، ألا تجد صعوبة في التعامل مع العراق الذي لا يعد ما فيه أثريًا إلا ما تجاوز خمسة قرون على الأقل؟

واليوم إذ يقف العراقي حائرًا أمام ما تراكم في بلده من غنى هائل في التاريخ والعلوم واللغات والآثار، قد يقول في نفسه: «ما فائدة ذلك إن كانت أيدي الفقر قد امتدت إلي، إن مت ضمآن فلا هطل القطر». لذا صار المبدع اليوم يولي ظهره لإبداعه، ويقبل بشظف العيش، ويلجأ في تعابيره إلى استعمال



مـواد فـقـيـرة، مما يتـيـسـر لديه من قطع الـخـشب أو الكارتون أو قـمـاش قـمـيص قديم أو قطع من تلك القنابل يحولها إلى أدواة تعـبـيـرية عـمـا يـجـيش في صـدره. أصبح مثل أجداده يلجأ إلى ما يتساقط من ثمار جافة أو شجرة ميتة، ليكتب فنه وإبداعه، مـثل أجداده الذين اسـتـعـملوا الطين المفخور، وهـو أرخص وأسهل مادة للفن والثقافة، كتبـوا ورسـمـوا ونقـشـوا وقـالوا، فكل شـيء كـان صـالحًـا لـهم. وبهـذا كـانت هذه الأرض، أرض أول من كتب على الإطلاق.

الثقافة مجموعة علامات

في مخاض هذه العزلة، عزلة الثقافة، كانت للعراقي عودة متكررة للتأسيس من جديد، ليستقي من ذاته ومن منابعه، وفي ذلك اعتمد دائمًا على أساطيره وملاحمه القـديمة، ومن اسـتطاع مـثل بدر شـاكـر السـيـاب أن يقرأ تلك العلامات والرموز استطاع أن ينسج إطارًا للعبقرية فأنتج كـتـابات وحـروفًـا، وحـسـابات وهندسـة، وأساطير مكتنزة بالقيم وخرافات تتحول إلى طقوس... كلها وسائل نلمسها على طول الخط معجونة في لحمة كل قطعة فنية وكل فكرة مكتوبة، وفي تركيبتها العميقة نرى معاناة صاحبها ومخاض ولادتها.

أنتج العـراقي عـلامـات مـجردة، وبذلك خلق رمـوز اللغـة والتـعـبـيـر الفني. كان العـراقي دائمًا مـحـاصـرًا فـوجـد منفذًا للفن بطريقته الخـاصـة، شق طريقًا إلى جـذوره، وأقـام مـؤسـسـات، وأورث كل مـا صـنعـه من كتابة وشعر ورسم ونحت، فـأنشـأ من لا شيء تقريبًا مكتبات من رقم طينية، وكتب بها أولى صفحات الإرث البشري، ومنذ مكتبة آشور بانيبال، أسس حضارة موسوعية وأعد الانتشار الأفقي الذي تبنته الثقافات الديناميكية كالإغريقية والرومانية والعربية والمعاصرة، وكـانت جـدران منازله مـحط إلـهـامـه، فـرسم تصـوره وتفكيره وتخيلاته عن الحب والحرب والسلام، ودمغ هذه الأرض والشعوب التي مرت من هنا بفضائل هذا الاتجاه الذي وإن توقف لحين على هذه الأرض إلا أنه أسس الثقافة بكل معنى الكلمة.

حتى وقت قريب، كان الذي يتجول ويمعن النظر ويصـيخ السـمـع بدقـة يتـأكـد لديه أن الفنون والثـقـافـة في العـراق كـانت بصـحـة جيدة. حتى وقت قريب كانت الأرقام تتحدث عن وجود مئات الشعراء والفنانين التشكيليين من الأحـيـاء والمنتـجين إلى جـانب آلاف من الطلاب والطالبات يترددون إلى سبع جامعات ومعاهد وأكاديميات مفتوحة في عدد كبير من المدن، تعطي الطلاب والهـواة أسس التـقنيـات الفنية، ناهيك من الدروس المسائية واللقاءات في قاعات الفنون. كانت إحصائيات من وقت قـريب تتـحـدث عن الحـركـة الفنيـة في شـارع الفنانين في بغداد وغيرها من المدن، وأنه في كل شـهـر يبـاع أكثر من ألف قطعة فنية، وأن أغلب مـا يبـاع من القطع الـفنيـة يهـرب إلى الخـــارج، وأن حـــركـــة زيارات الفنانين ومؤتمراتهم، والأدباء والمؤتمرات الثقافية كانت



أمورًا عـادية، ولا يمر أسـبوع إلا وتسمـع بمعارض الصـور والرسوم والنحت وبقية الفنون التشكيلية كل ذلك برغم الحـصـار، وبرغم أن مـعـجـون ألوان الرسم عـد من الممنوعـات من قـبل لجـان الأمم المتحدة، خوفًا من استعمال مزدوج له. بل حـتـى الورق، وأقـلام الرصـاص عـدت مـواد خطرة. مع ذلك لم يتـوقف العـمل والإبداع والمعـارض حـتى إن البـعض كـان يلغي عقدًا مع جهة ما أو سفرة أو يلغي عـرضًا مـعـينًا... فـينتظر تحسن الأمور.

"ضع حـولك فـقط مـا كـان جميلا"

هذه نصيحة قديمة قالها أحد حكماء اليابان لتلميذه، ومن يقرأ عن بغداد يشعر وكأنها خلقت لتطبيق هذا المبدأ، فعندما أمر أبو جعفر المنصور سنة ٧٥٨هـ بالبدء ببناء بغداد، جند لها مئة ألف من المهندسين والبنائين والنجـارين والحدادين والعمال الذين كانوا في عين الوقت يشـتـغلون ببناء قلعـة حصينة، مدينة مدورة قطرها أكثر من ٢٥٠٠ متر، كـان فـيـهـا القـصـر الذهبي للخليفـة والجامع الكبير بمثابة القلب والرئة، ومنهمـا تتفـرع الشـوارع التي يتجـاوز عرضـهـا ٢٥ مترًا، أمـا عرض الأزقـة فكان سـبـعـة أمتـار. فـحـازت بغـداد إعـجـاب الناس واجـتـذبت المسافرين، وسكنت خلال قرون عديدة أحلام الشعوب البعيدة والقريبة، فزارهـا مبعوث شـارلمان ووفـود من كل مكان، حـتى شـعب الفـايكينك الاسكندنافـيين جاؤوا إلى بغـداد، وأخـذوا مـعـهـم إسطرلابًا أعـانهم على أن يمخروا عباب بحر الشمال ويكتشفوا أمريكا الشـمـاليـة. وقـد اكـتـشـفت مـؤخـرًا نسخ إسطرلاب في الشاطئ الشرقي من كندا وفي جزيرة غرين لاند وفي الدنمارك. هكذا أصبحت بغداد قبلة الأمم ومركزًا اقتصاديًا وعلميًا وثقافيًا للعالم كله، وكـانت رومـا أعظم مـدينة في أوروبا وإذا مـا قـورنت ببـغـداد تبدو بمنزلة بلدة صـغيرة، أمـا لندن فلم يكن فيـهـا سوى خمسين ألف نسمة، وكذلك باريس كانت مجرد قرية.

كـان في بغداد العـبـاسـيين مكتبـة كـبـيـرة تضم أمهات الكتب اليونانية والرومانية والسريانية، وقد نقل معظمها إلى العربية، وكان السفراء والسياح والرحالة يحملون إليها ما يزيدها علمًا وثقافة، حتى قيل «اطلب العلم ولو في الصين». فاغتنت العربية بتراث الشعوب وبالمخطوطات والخطوط، وكان نساخها يعتمدون أن يكون لكل كتاب نسخ عديدة ليغذوا المكتبات العديدة. كما أخذوا صناعة الورق من الصينيين فانتشر آلاف

الكتاب الذين دخلوا في خدمة الدولة في كل مكان.

وبنت بغداد أول جامعة في العالم: «المستنصرية»، حيث كانت تدرس، إلى جانب العربية، اليونانية واللاتينية والهندية. كما درسوا علومًا لم يعرفها غيرهم كالاجتماع والجبر والرياضيات والطب والتشريح والصيدلة والجغرافيا والفلك والكيمياء والفلسفة والعمارة. وكان في بغداد وحدها ٢٧ ألف حمام عمومي، وعشرون كيلومترًا من الشوارع المضاءة ليلاً، وكان يعمل فيها ٨٠٠ طبيب وعطار بشكل رسمي.

ولم تكن الفنون الأخرى كالغناء والموسيقا بعيدة عن زخم الجوانب الأخرى من الثقافة، فالإبداعات الموسيقية والفنية والغنائية وفنون الإيقاع دخلت هي الأخرى عالم الأساطير، فقيل ما قيل عن زرياب وعثمان الموصلي، وما زالت الأذن العراقية تتميز بشغف يكشف للزائر الغريب أن العراق بقي مصبًا خفيًا للإبداع، وما يتجلى في الظاهر من معارض أو محاضرات أو حفلات ليس سوى غيث من فيض.

الثقافة والذاكرة

في جميع مدن العراق من شماله إلى جنوبه يشعر المرء بأن بصمات الذاكرة تخترق القرون، وتبدو واضحة في كل واحد من الفنانين والشعراء يكون قد رسم قريته أو بيته أو تكلم مثل بدر شاكر السياب عن قريته جيكور التي لم يسمع أحد بها، لكنه خلّدها ووضعها خارج نطاق النسيان. كما جاءت الرسوم والقصائد التي تمتدح الطفولة، طفولة الفرد، أو طفولة هذا الشعب، وتتكلم عنه يوم فقد «الفردوس المفقود» وهو يفقده على الدوام.

هذه الحركة الثقافية تعيد بناء سحر العودة بالريشة والألوان والأشكال والكلمات، فتمجد المياه ومنحنيات البيوت وقباب الجوامع بالرسوم والكلمات، تعجن الذاكرة مسألة الحب والأنوثة وتحولها إلى قفزات في الهواء والفضاء بألوان وأشكال معتنى بها تجتذب النظر وتطرب الأذن وتدعو إلى التأمل وتقوم النسيان.

ولعل التأمل أصبح قاعدة متعمدة ومعتمدة، فيلتقي فيه الكبار والصغار لتتجمع طاقات فنية لشيوخ وشباب يعرضون ويكتبون ويعيدون الكتابة ويجسمون هذا الألم ويطبعون ما يتيسر لهم من مواد

لم يعد كثيرون من عراقيي اليوم مثل أجدادهم السومريين يركزون على المدرسة الإجبارية، ولعله لا يرفع رأسه ليرى جمال المستنصرية، بل يكتفي بأن يكسب لقمة العيش في السوق وفي الأحياء المكتظة بالسكان، لقد توقف عن الصعود، توقف خوفًا على حياته وحياة أطفاله

على الأوجه والأعضاء، وأجزاء من أجساد أخذت لحين غرة وخطفت من الواقع، إنها وجوه لمعاصرين خُلّدت في المتاحف، حتى التي من بينها يحمل بشاعة أجسام مزقها الموت وشوهها الألم ولواها على أسرة المستشفيات وبقيت، كأني بها تنازع إلى الأبد.

إن كانت الأبنية والمتاحف قد سرقت ونهبت وحرقت، لكن الخوف هو أن تسرق الذاكرة من العراقيين، هذه الذاكرة لم تكن في الأبنية والقصور فقط، وإنما في طريقة التعامل مع الجديد الذي يهدد الحاضر.

إن عمل الإنسان يتميّز بمحاربة النسيان، فالأختام الإسطوانية والكتابات الأولى بل حتى ما وجد من آثار الإنسان القديم، النياندرتالي، الذي عاش في شمال العراق في كهفي شانيدار وزرزي، قبل ٤٥ ألف سنة، هي كاشفة عن الرغبة في ترك شيء للأحفاد. وما قام بعدئذ من حضارات المدن السومرية وممالك آكد وبابل، ونظرية أقليدس التي سبقه إليها البابليون وأرضية قصر الملك سرجون في نينوى، والثيران المجنحة ذات رأس بشري في خرساباد، وقطع أخرى عجيبة غريبة نادرة تسحر كل من يعرف ومن لا يعرف أيضًا. يقف الإنسان، كل إنسان باحترام

وتواضع عندما يتأمل كل هذا. حضارات امتدت على آلاف السنين تقول لنا بتلعثم حروف الكتابة وبدايات التشريع والقانون ومحاولات الزراعة والتبادل التجاري وأول سكان المدن وفنون الحلي والفخار والأختام الإسطوانية، كلها تدعو إلى التأمل موضوعة أمامنا مبعثرة، كنوز لا يحميها شيء ولم يحمها أحد من اللصوص، تعود إلى أزمنة عريقة، كأن عراقيًا ينوء تحت ثقلها، فدفعه اليأس والعوز والجهل إلى أن يحرق الأخضر واليابس، ويدمر ما تركته له أمجاده من شعور بالمرارة.

لم يعد كثيرون من عراقيي اليوم مثل أجدادهم السومريين يركزون على المدرسة الإجبارية، ولعله لا يرفع رأسه ليرى جمال المستنصرية، بل يكتفي بأن يكسب لقمة العيش في السوق وفي الأحياء المكتظة بالسكان، لقد توقف عن الصعود، توقف خوفًا على حياته وحياة أطفاله توقف بسبب المعاناة الاقتصادية والسياسية، ووقف حائرًا لما أصابه وأصاب عائلة أخيه أو ابن عمه التي تبعثرت في جهات العالم الأربع، وهذا لم يسبق أن حدث له مثيل في التاريخ، لا يجمعه بها سوى الهاتف.

لكن من يعود إلى ثقافة هذه البلاد يكتشف أن التسامح الديني هو في أساس هذا الشعب ومعدنه. التسامح الديني المجبول على روح كبيرة فكهة جنّب هذا الشعب مآسي كثيرة

ثقافة المائدة

أخيرًا بقي أن نقول إن العراق لا يمكن أن يفهم إلا بالرافدين: وكما أن مصر هبة النيل فالعراق هبة الرافدين، وهما يشكلان حياة الناس اليومية فيعيشون حولهما، وبهما، معهما، ومنهما. فيصير النهر مجالاً للثقافة العراقية ومسارًا لآدابها وصورًا للوحاتها وتماثيلها، وتضاف إليهما النخلة لتكتمل الصورة، وتقاليد العراق وآداب الطعام فيه هي التي أسست ثقافة المائدة أو فن المطبخ، التي قد يكون السمك «المسقوف» أبرز أشكالها. والمسقوف سمكة مشوية على نار سعف النخلة، مشوية بهدوء، لا كمجرد وجبة طعام، لكنها وجبة كاشفة لثقافة العلاقة ورقي التذوق، فتقاليد الطعام وفنون صناعته وأشكاله وروائحه طبعت هذه البلاد الواقعة على طريقين: طريق الحرير وطريق التوابل، الأول يمر شمالاً وطريق التوابل جنوبًا، إنهما في أساس مبررات الاتصال والتجارة، فالرغبة في اقتناء التوابل التي دأبت على استيرادها شعوب العراق من الهند وجنوب شرق آسيا، انتقلت إلى أوربا، ومن أجل توابل الهند والتجارة معها، اكتشف كريستوف كولبس العالم الجديد، فكانت حضارة العراق حضارة ناقلة بمنزلة الجسر، والحضارات الجسور هي الأعظم، على حد قول أرنولد توينبي: ثقافات العراق القديمة ومن بعدها السريان، والآراميون نقلوا أيضًا عن اليونانية إلى العربية، والعربية بدورها أسهمت في قيام أوروبا الحديثة.

وقد تكون الثقافة مجرد كلام وطعام اتصال يدور حول حياة الإنسان وهذا هو الإبداع، وهو أيضًا ما يبهج زوارنا فيظلوا يذكرون ذلك السمك الذي يذوب في الفم. يحاول كل واحد أن يستخلص معاني السر من أمور بسيطة، قد يصل الإبداع فيها حدًا بعيدًا، ففي حفلة موسيقية قدمتها فرقة عراقية صعد أحد الأجانب وطلب أن يرى آلة الإيقاع «الدربكة»، وأمسك بها يقلبها إن كان فيها جهاز سحري يستخرج كل هذه الأصوات المختلفة، وتعجب من أنها مجرد فخار وجلد!

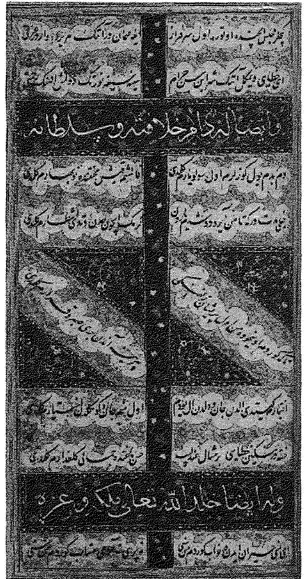
لعل هذا هو الإبداع العراقي، فالإنسان فيه منذ البداية، منذ إنوما إليش، (هكذا كان في البدء) منذ أتراحاسيس وملحمة كلكامش، يجمع بين العظيم

والبسيط في كلمات تكشف هذا التأرجح بين العظمة والذل، الغنى والفقر، والقوة ومنتهى الضعف. الإنسان هو مجرد عشب، مثل زغب الحقل، إنه ملك لكنه يموت، يتصور أن هناك في ما يتناوله من طعام ما سيعطيه الخلود.

الثقافة الدينية العراقية تعطي من جذورنا جوابًا لمن يريد أن يسمع الجواب. وهي الخاتمة والبداية، فإن كان التحول إلى الدين علامة على البدء بالحضارة فإن الدين اليوم يعود إلى طرح الأسئلة الجوهرية: هل ستكون هذه الألفية ألفية سلام، أم ألفية صراعات بين الأديان؟

خاتمة : الديانة ثقافة سلام

وهناك جانب آخر من جوانب الغنى الثقافي، هو الغنى العقائدي، فالديانة في هذا البلد حركت جماهير عديدة، وبرغم الجروح التي حدثت، تبقى صفحات مشرقة وشهادات تكشف عن حب البحث عن الحقيقة، وتكشف وجود قيم خاصة خارج التأثير السياسي، فالإرث الفكري كان دائمًا محط تطهير وتنقية دائمين.



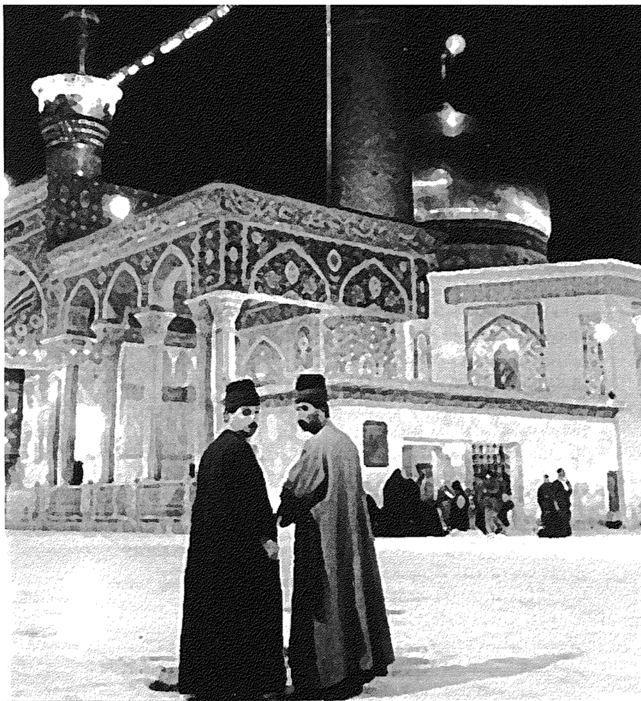
وتبقى وحدانية الإله أعز ما توصلت إليه حضارات سكان هذه المنطقة، وهذه الوحدانية سوف تؤثر في مسار الديانات كلها. وبرغم أهمية الاختلافات لدى البعض فإنها أشبه بالروافد التي تصب في بحر واحد، فاكتشف الإنسان الوحدانية وأن كل حي يعود في البدايات وفي النهايات إليه، إلى من إليه المآل، ومهما تعددت التسميات وتشكلت المعتقدات، فإن ما يجمع هذه التيارات أعظم مما يفرقها. وإن كانت الممالك قد اتكأت على هذه الديناميكية الدينية، واستغلتها وحاولت وضع اليد عليها، أو عندما دخلت في أحد تياراتها، انحازت إلى هذا الجانب أو ذاك، فأرادت أحيانًا كثيرة أن تصير الطرف والحكم، فأساءت التصرف في أغلب الأحايين.

لكن من يعود إلى ثقافة هذه البلاد يكتشف أن التسامح الديني هو في أساس هذا الشعب ومعدنه. التسامح الديني المجبول على روح كبيرة فكهة جنّب هذا الشعب مآسي كثيرة. لقد عاش هذا الشعب ثقافته من أجل الإنسان وليس الإنسان من أجل الثقافة، والديانة جزء من الثقافة وهي خدمة للروح الناهضة المتسامية، والرب الإله من خلال الديانة يكشف نفسه محبًا للإنسان، عطوفًا، حنونًا، رحومًا، متجردًا، كاشفًا لذاته من خلال أعماله وبدائع خلقه، لولاه ما كان من معنى لوجود الإنسان على الأرض. هكذا ما يجمع ويربط بين الثقافة والدين وهو أن كل الإنسان مدعو لأن يكون شاهدًا للحب من خلال حياته وموته أيضًا، وهذا الصراع هو مخاض الولادة إلى حياة أخرى، فيها يتجلى الحضور ويتحرر الحب ويصير غفرانًا وتجاوزًا وقبولاً للآخر المختلف■

آخرها .. الحكاية «الأمريكية» !

«حكايات» عراقية

محمد الدعمي . بغداد *



* أستاذ بجامعة بغداد .

لا ريب في أن تاريخ العراق الحديث إنما يتشكل من قصة الأقوام التي وجدت نفسها على أرض هذه الدولة الفتية التي تأسست بعيد الحرب العالمية الأولى على بقايا الدولة العثمانية التي أدارت هذا الإقليم الخصيب من خلال تقسيمه إلى ثلاث ولايات: الموصل، بغداد، البصرة. هذه الأقوام، التي ضمتها الحدود الجديدة المرسومة من قبل الكولونياليات البريطانية والفرنسية، تتألف من تنوعات عرقية ودينية عديدة لتشكل فسيفساء نصف متجانسة ونصف متناقضة.

بيد أن الغالبية العظمى من الشعب العراقي هي من العرب إثنيًا، والمسلمين دينيًا. أما موزاييك الأقليات الأخرى فهو، زيادة على الأكراد الذين يمثلون أكبر الأقليات سكانيًا وإقليميًا، يتكون من مجاميع سكانية صغيرة ومجهرية أحيانًا، حسب معتقداتها الروحية وانحداراتها العرقية: فمن الناحية الدينية، توجد في العراق أقليات من المسيحيين والصابئة المندائيين واليهود واليزيديين حتى العلويين والبهائيين. ومن الناحية العرقية، توجد في العراق أقليات كلدانية وآشورية وأرمنية وفارسية وتركمانية. هذه الجماعات وجدت نفسها في لحظة تاريخية جزءًا من دولة عراقية لها حدودها وعاصمتها ونظامها البيروقراطي والمالي، فكان عليها أن تذوب في هذه البوتقة الجديدة والمحددة بعدما كان بعضها يتنقل من مكان لآخر بحرية مطلقة، حسب متطلبات الحياة ودواعي الضرورة. ويبدو أن أفضل نموذج لهذه السيولة السكانية السريعة الحركة يتجسد في القبائل والعشائر العربية التي كان إناؤها الجغرافي الأوسع يمتد عبر البادية الغربية من شمال العراق وسوريا إلى جنوب جزيرة العرب والخليج.

ولأن الإمبراطورية العثمانية قد تعاملت مع العراق، وسواه من «ممتلكاتها»، بوصفه مصدرًا للأموال المأخوذة على نحو ضرائب وبدلات استئجار أراضي وجمارك ومكوس وريع، فإن هذه الجماعات الإثنية كانت ترتكن إلى ولاءات خاصة بها، وهي ولاءات غالبًا ما كانت مغلقة ومتحسسة تجاه الولاة ومتناقضة مع إرادات الجباة المتمركزين في المدن الثلاث الكبرى. بيد أن تأسيس الدولة العراقية الحديثة (١٩٢٠م-١٩٢١م، بعد ثورة العشرين في إقليم الفرات الأوسط) أدى إلى ظهور مركز حكومي قوي نسبيًا في العاصمة بغداد، زيادة على بروز متطلبات «المركزية» وأدواتها التنظيمية والقسرية التي حاولت فرض رؤية المسيطرين على الحكم على بقية الجماعات الإثنية والدينية في العراق. وهكذا صار تاريخ هذه الجماعات، في جوهره، هو تاريخ الشد والجذب، والتناغم والتنافر، بين المركز (بغداد) والأطراف المتمثلة في هذه الجماعات السكانية، من بدو وحضر ومزارعين.

وكانت لكل فئة سكانية «حكاية» خاصة بها. وهذه الحكاية إنما هي المنظور ذاتي التمركز الذي توظفه تلك الفئة في نظرتها للدولة الفتية، وفي علاقاتها مع بغداد على سبيل قياس طبيعة هذه العلاقة وتقلباتها مع المركز، أي مركز السلطة في العراق الحديث منذ تأسيس المملكة في بدايات عشرينيات القرن الماضي حتى سقوط السلطة المركزية (الجمهورية منذ ١٩٥٨م) في العام المنصرم. هذه السلطة، هي الأخرى، كانت لها نظرتها و«حكايتها» الخاصة التي أرادت لجميع «الحكايات» الأخرى أن ترضخ أو تخضع لها، أو تتناغم معها، على أقل تقدير. لقد لعبت السلطة في العراق عبر هذا الماضي القصير نسبيًا دور مركز الاستقطاب، ليس من أجل الحكم وممارسة السلطة فحسب، بل كذلك من

أجل فرض «حكاية» أو رؤية القوة المهيمنة على فئات وقطاعات الشعب العراقي الأخرى. وبكلمات أخرى، إن المنظور الذي كان معتمدًا من قبل السلطة (المملوكة من قبل أقلية سكانية) هو الذي حدد طبيعة علاقاتها بالمنظورات الأخرى للفئات والجماعات الموجودة خارج السلطة. لهذا السبب اعتمدت الحكومة في العراق، عبر تاريخها منذ الربع الأول من القرن الماضي حتى يوم ٩ نيسان (إبريل) الماضي ٢٠٠٣م، على فرض هيمنة «حكايتها» على تاريخ العراق وصيرورته وآفاق مستقبله.

في الأعوام المبكرة، كان هناك منظور سلطة الانتداب البريطاني المتحالفة مع زعامات عشائرية إقطاعية بعينها عبر مرحلة الانتداب ثم الاستقلال السياسي. وما لبث أن صعد نجم نخبة عراقية من الضباط الذين خدموا مع الأمير فيصل بن الشريف حسين، وهي خليط من إفرازات النظام السابق (العثماني) والنظام الجديد (البريطاني)، ناهيك من تواصل المنظورات التي تمسكت بها فئات كتلوية أخرى كالأكراد ورجال الدين الشيعة ورجال الدين السُنّة وسواهم من المجاميع العرقية والدينية الفاعلة في الحياة السياسية. بيد أن على المرء أن لا يتمادى في اعتماد مثل هذه «الحكايات» أو المنظورات المجردة والتجريدية، حيث طفت على سطح الحياة السياسية والحركة الاجتماعية «حكايات» أخرى منبثقة من دواخل هذه المجاميع الإثنية والكتل الاجتماعية، إذ ظهر المنطق اليساري الشيوعي الذي كان متمركزًا إبان مرحلة ازدهاره (١٩٥٠م-١٩٦٣م) في البقاع الجنوبية والوسطى من العراق، وهي ذات البقاع التي كان يفترض أن تكون تحت هيمنة نخبة رجال الدين من العلماء. ومن ناحية ثانية، برزت في ثلاثينيات القرن الماضي (على أبعد تقدير) «الحكاية» القومية العربية التي حاولت أن تهمّش «الوطنية العراقية» لحساب الولاء للغة الواحدة والمصير القومي المشترك، وهو الولاء المستوحى، محاكاةً، من ظهور الدولة القومية في أوروبا في القرن التاسع عشر. ومرة ثانية، برزت هذه «الحكاية» في ذات البيئة الجنوبية التي عملت طوال التاريخ السياسي للعراق خزانًا ومولدًا للأفكار السياسية والحركات الاجتماعية، بفعل الذهنية المتحررة والمتشبثة بفكرة «الاجتهاد» السائدة هناك. ثم ما لبثت هذه «الحكاية» القومية العربية أن تم امتطاؤها من قبل نخبة من الضباط الذين كانوا (في غالبيتهم العظمى) ينتمون إلى ما يسمى اليوم بـ«المثلث السُني»، حيث تحولت العواطف القومية إلى «أيديولوجية» وجدت تعبيرها من خلال أقلية طائفية، مستمدة قوتها من التحالف مع العرب عبر الحدود المرسومة من قبل الإمبراطوريات الأوروبية. وهذا ما يفسر الاندفاع نحو القوى القومية المكافئة في سوريا ومصر وفلسطين، وهو كذلك ما عبرت عنه الحملة الإعلامية والتعبوية العراقية القوية لتحرير فلسطين. بيد أن «الحكاية» القومية أخفقت في تجميع العراقيين في صف واحد، برغم سيطرتها على السلطة بوساطة دوائر صغيرة من الضباط المتحمسين، وعن طريق سطوتها القاسية على الجمهور من خلال مزاوجة السلطة بالقوة.

لقد ارتكب مروّجو هذه النظرية القومية خطأً تاريخيًا عندما تجاوزوا الأقلية



الكردية، وهي أقلية ولكنها فاعلة، كما أنهم حاولوا (ونجحوا) في احتكار السلطة (برغم الخلافات الداخلية والمؤامرات البينية) من خلال شبكة من العلاقات «الأبوية» المبتناة على تقديم الولاءات العائلية والعشائرية على الولاءات العراقية العامة والشاملة، الأمر الذي يفسر استقطاب أعداد كبيرة من «المتعاونين» الذين يستعملون القوة العمياء للجم «الحكايات» الأخرى، ولبتر مروّجيها إن حاولوا تجاوز خطوط حمراء معينة. لقد شعر هؤلاء المستفيدون من شبكة الرعاية والمحسوبية والمنسوبية التي يديرها مركز السلطة بأن مصيرهم مرتبط ومرتهن بمصير هذه السلطة، وبأنهم سيواجهون مصيرها نفسه، إن هي بقيت أو أزيلت. وهذا، بكل دقة، ما حدث بعد انهيار آخر الأنظمة الجمهورية قبل أشهر، حيث وجدت الجماعات العائلية والعشائرية المرتبطة بالنظام نفسها بلا معين يغدق عليها ويوظفها لتحقيق أهدافه، الأمر الذي يفسر مقاومتها للوضع الجديد بسبب خسارتها امتيازاتها غير العادلة.

لا تخفق أية قراءة متأنية وعلمية لتاريخ العراق الحديث في تحديد عدد من العوامل التي شكلت هذا التاريخ بفاعلية من خلال توظيفها من قبل الجماعات التي سيطرت على الحكومة المركزية منذ البدايات حتى نهاية النظام السياسي الشمولي السابق. ويبدو أن واحدًا من أهم هذه العوامل هو تواصل الولاءات العشائرية أو الطائفية المبتناة على «شبكات أبوية» نجحت في استقطاب مساندين ومؤيدين لها، ليس فقط من خلال استثمار عواطف الولاءات الشللية والعشائرية أعلاه، بل كذلك من خلال الفوائد الاقتصادية والمكاسب الاجتماعية التي يضمنها الانتماء إلى مثل هذه الشبكات التي غالبًا ما يديرها أشخاص ينظرون إلى أنفسهم كـ«عرّابين» لهذه الجماعات السكانية الصغيرة. وبهذا يكون الولاء للعائلة أو للعشيرة أو للطائفة أو للمدينة هو مصدر للارتزاق والمنفعة المادية والاعتبارية، برغم أن هذا الولاء قد يعني تقاسم «الذيول» و«العرّابين» ما ينتظرهم من السراء والضراء. وتدل المتغيرات الجذرية التي شهدها العام الماضي على تواصل فاعلية هذه الشبكات من خلال اعتمادها معايير خاصة بها لتأسيس حركات وأحزاب سياسية تمثل المنتمين إليها وطموحاتهم الضيقة.

إن تاريخ العراق الحديث هو سلسلة قوامها

لقد دأبت كل الجماعات التي هيمنت على مركز السلطة عبر تاريخ العراق الحديث على حرمان المجاميع الأخرى من حق العمل السياسي والاجتماعي كممارسة متحضرة وسلمية.

عمليات السيطرة على الحكم من قبل دوائر صغيرة من العسكريين المنتمين إلى الأقلية، عبر الانقلابات العسكرية، على سبيل فرض هيمنتها على المجاميع والمنظورات والولاءات المخالفة من خلال الترغيب والترهيب.

أما العامل الفاعل الآخر الذي ساعد على تواصل هيمنة هذه الشبكات الضيقة (التي غالبًا ما تكون ريفية أو رعوية الأصول) فإنه يتمثل في اقتصاديات «البترودولار» التي أتاحتها الهيمنة على مركز السلطة بدرجة توظيف الأموال الأسطورية المتأتية من تصدير النفط، للإطباق على الحكم ومنع المنافسين أو الشبكات المنافسة من الطموح إليه. لقد وفرت هذه الأموال الهائلة للجماعات التي سيطرت على الحكم الأدوات والأسلحة التي أحالت العمل السياسي والاجتماعي في العراق إلى اختيارين لا ثالث لهما: إما الرضوخ وإما الهروب. الرضوخ يعني محاولة التنازل عن الفكر السياسي والاجتماعي الذي تلتزم به جماعة ما في سبيل الوصول إلى حد معين من «التناغم» مع منظور القوة المسيطرة. أما الهروب، فإنه ينبع من عدم القدرة على التناغم مع متطلبات المركز الذي لا يسمح بالمعارضة، الأمر الذي يجعل من عملية مغادرة البلاد ملاذًا أخيرًا وبديلاً عن الزنزانة والتعذيب

والإبادة الجماعية. وقد كان لأسلوب «العقاب والثواب» الذي وظفته الحكومات المركزية المتتالية أثره البالغ في نزوح الملايين من العراقيين، وبينهم أشخاص من سراة الفكر والثقافة والفن (من أمثال الشاعرين محمد مهدي الجواهري وسعدي يوسف والأستاذ حسن العلوي)، إلى البلدان المجاورة أو إلى الدول الغربية. بيد أن هذا لا يعني قط أن الذين هجروا العراق كانوا من هذا النوع فقط، ذلك أن الغالبية العظمى من هؤلاء كانوا من صيادي الثروات والفرص، الذين امتطوا الموجة لأسباب أنانية والذين امتهنوا المعارضة بوصفها حرفة تدر عليهم المال والملذات.

وهذه الظاهرة تقودنا إلى العامل الآخر الذي فعل فعله الرهيب عبر تاريخ العراق الحديث، وهو العنف. لقد دأبت كل الجماعات التي هيمنت على مركز السلطة عبر تاريخ العراق الحديث (خصوصًا في مرحلته الجمهورية بعد عام ١٩٥٨م) على حرمان المجاميع الأخرى من حق العمل السياسي والاجتماعي كممارسة متحضرة وسلمية. وعليه، عمدت هذه الأنظمة إلى اعتماد القوات المسلحة، التي كانت صمام الأمان في عراق ما



قبل الاحتلال الأميركي، بوصفها أداة قسرية لممارسة العنف ضد القوى المضادة، ثم ما لبثت الأنظمة المتأخرة (خصوصًا النظام الأخير الذي كان شديد الشك بولاءات دوائر الضباط)، أن أقامت أجهزة أمنية جهنمية ومتنوعة، ليس فقط من أجل منع الفضاءات السياسية المناقضة، بل كذلك من أجل الهيمنة على دوائر الضباط الذين يمكن أن يثيروا الشكوك، الأمر الذي جعل من الجيش، الذي كان هو دائمًا مصدر التغيير الانقلابي، راضخًا وخنوعًا لهذه الأجهزة الأمنية التي صيرت القوة عنفًا، والمعارضة خيانة.

إن عملية إزالة النظام السابق قد تتيح لأبناء البلاد فضاءات سياسية واجتماعية وثقافية جديدة، يمكن من خلالها تشكيل صورة العراق الجديد. ولكن هذا لا يعني أن سقوط النظام السابق سيؤدي كذلك إلى إزالة جميع بقاياه وأطره وثقافته الشمولية وتراثه الذي كان يُضخ في المدارس والصحف والثقافة الشعبية درجة التدجين. وعليه، سيكون إرث هذا النظام واحدًا من العوامل الفاعلة في الصراعات والتفاعلات القادمة. بيد أن هذا الإرث سيخسر هذه الصراعات لا محالة، بسبب «إخفاق الرؤيا» التي وعد بها والتي أحالت العراق إلى دولة حروب ودماء لأكثر من عقدين من الزمن. كما أن متغيرات العصر وإخفاق الشعارات التي وظفتها الحكومة الأخيرة، ستدق إسفينًا بين المواطن العراقي الذي يرنو إلى حياة طبيعية مرفهة توفر له الإفادة والاستفادة من ثرواته الطبيعية، وبين الشعارات الإذاعية والاستهلاكية التي لم تعد مقبولة أو منطقية في عالم جديد لا يسمح بترديدها بعد اليوم، خصوصًا مع ما جلبته هذه الشعارات على شعوب المنطقة من ويل وثبور حد تسليم العراق لقمة سائغة للأجنبي.

إن العراق لم يعد ملك أبنائه على نحو مطلق، ذلك أن الهيمنة الأمريكية ومصالح دول الجوار أخذت تتبلور بالطريقة التي تدل على أن شكل العراق الجديد سيتأثر بمثل هذه المصالح والإرادات التي تعي جيدًا أن ما يجري في العراق سيكون بالغ التأثير عليها داخل الإقليم وعلى الرؤى الأميركية للمنطقة. وعليه لا يمكن للمرء أن يتوقع أن تسمح أميركا للـ«ديمقراطية» بأن تتجاوز خطوطها الحمراء إلى فضاءات لا يمكن أن تكون مقبولة بالنسبة لواشنطن. ■

حضارات تعاقبت ويتعايش أبناؤها

كُل في بيت اليهودي ونم في بيت المسيحي

خالد القشطيني - لندن*



* كاتب صحفي.

كثيرًا ما يحدث عندما تسقط إمبراطورية وتنهار حضارتها أن يتصور الناس أن كل شيء منها قد انتهى. هذا شيء تدحضه الوقائع. فرغم مرور نحو أكثر من خمسة قرون على سقوط الحكم العربي في الأندلس، فإن أي زائر لذلك الجزء من إسبانيا يستطيع أن يلمس الكثير من عناصر الحياة الإسلامية فيها.

الكثير من تقاليد الزواج والحرص على عفة المرأة وطبخ الطعام وعاطفية السكان مازال واضحًا للمراقب. سكان بعض القرى ينهضون في الصباح الباكر، ويخفون إلى حوض الماء في وسط القرية ليغسلوا أيديهم ووجوههم وأقدامهم مما هو في الواقع استمرار لما اعتادوا عليه في الوضوء. وعلى الجانب الآخر، نجد أن سقوط القسطنطينية وتحرير العالم العربي من حكم الروم، لم يمنع المسلمين من التشرب بمظاهر الحضارة البيزنطية. فكل هذه الموشحات والمدائح النبوية وأسلوب التجويد الذي نجده في العراق وبلاد الشام ومصر، يقوم على أسس التراتيل البيزنطية. وكذا الأمر بالنسبة للعمارة وسائر الفنون، بما فيها طبخ الطعام.

أقول مثل ذلك عن سقوط بغداد وانتهاء الدولة العباسية. مازال الكثير من مخلفاتها حيًا في العراق، مثلما أن الكثير من معالم الحضارات القديمة لبابل وسومر وآشور وفارس ظلت حية في الحضارة الإسلامية للعراق، كالاحتفال بالربيع (النيروز) ومآتم موت الإله تموز. حتى العباءة التي تلبسها العراقيات يعود تاريخها إلى بابل.

لمست خلال أسفاري إلى البلدان العربية المختلفة أن الجمهور كان يظهر احترامًا خاصًا لي حالما يكتشف أنني من العراق ومن أبناء بغداد. بعض الباعة في المغرب رفض قبض ثمن البضاعة التي اشتريتها منه. وكثيرًا ما شعرت بالحرج وأنا أستمع إلى المغاربة يمجدون صدام حسين لا لشيء سوى أنه الحاكم في العراق. إنه استمرار لتقاليد الدعاء للخليفة العباسي رغم أي فسق أو ظلم مارسه. و كم أسمع في هذه الأيام كلام بعض الإخوان العرب يردد «كيف نسمح لعاصمة الخلافة تركع تحت أقدام الأمريكان؟!».

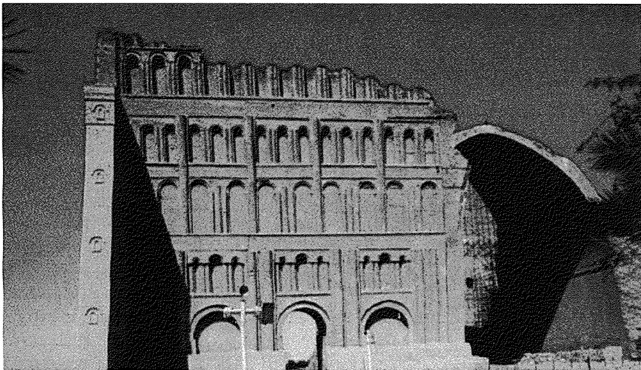
لهذه الحقيقة، وهي أن العراق ظل مركز الدولة العربية والحضارة الإسلامية لنحو خمسة قرون - آثار مختلفة مازلنا نستطيع تلمسها. من ذلك مثلاً روح التسامح الطائفي والأثني للعراقيين. توقع الكثيرون أن تحدث حرب أهلية بين السنة والشيعة، وبين العرب والأكراد، بعد سقوط صدام حسين. كتبت في حينها ونفيت بإصرار مثل هذا التوقع. لقد ولد المذهب الجعفري في العراق وتواجد

أبناؤه فيه على مر القرون. ولكن لم تحدث أي مجزرة أو معركة بين الطائفتين. وعندما دخل الفرس بغداد ونكلوا بالسنة في القرن التاسع عشر، خف علماء الشيعة إلى بغداد ليطالبوا الفرس بكف أيديهم عن إخوانهم السنة. وفي ذلك القرن، جرت محاولات لتوحيد المذهبين، وكانت اللقاءات أقرب إلى المزاح والمداعبة منها إلى الجد. وفي العصر الحديث تولى كثير من الشيعة رئاسة الحكومة كالصدر وصالح جبر والجمالي. وأخذ الفقهاء السنة بالكثير من الفقه الشيعي (في أحكام الإرث والطلاق ومساواة الذكور بالإناث) دون أن يبدي أي من السنة أي اعتراض على ذلك.

تعم هذه الروح التسامحية العلاقات بين المسلمين والنصارى واليهود. بعض الكنائس بنيت مجاورة بل وملتصقة بالمساجد. ومن المعتاد أن يعتز المسلم بصداقة مسيحي وحضوره أعياده الدينية. وهذا امتداد لتقاليد الأدباء والشعراء العباسيين في قضاء أمسياتهم في الأديرة المسيحية. وكذلك اعتادت بعض المسلمات الذهاب إلى الكنيسة، وتكليف القس بالدعاء لحل مشكلتها، وتقديم النذور للسيدة مريم العذراء عليها السلام. وعندما حدثت الحرب الأهلية بين المسلمين و الموارنة في لبنان، ووقعت أحداث دموية بين الأقباط والمسلمين في مصر، شعرنا بدهشة واستغراب تامين. كيف يمكن لمسلم أن يقتل مسيحيًا أو بالعكس لمجرد اختلافهما بالدين؟ كذا كانت العلاقة مع اليهود التي لم تتعكر حتى دخلت الحركة الصهيونية في الميدان، وانفجر الصراع العربي الإسرائيلي. وهكذا شاع القول القائل : «كل في بيت اليهودي و نم في بيت المسيحي».

ما يجهله الكثيرون، أن هناك في العراق الكثير من قبور أنبياء بني إسرائيل، كالعزير والكفل ويونس ودانيال، ومسقط رأس إبراهيم الخليل، عليهم السلام، أكثر مما يوجد في فلسطين. وكلها مراقد يزورها ويحرص على رعايتها المسلمون واليهود والمسيحيون.

معظم فصول العهد القديم والتلمود كتبت في العراق وتأثرت بالتراث السومري والبابلي. وفي العهد العباسي ظهرت المدرستان الرئيستان للفقه اليهودي في صورة مبدئية. روى الرحالة الغربيون أن رئيس الطائفة اليهودية، صموئيل بن علي، (الملقب بابن الدستور) كان يعيش في قصر منيف يخدمه ٦٠



عبدًا. وروى الرحالة الحاخام بنيامين الذي زار بغداد عام ١١٧٠م، فوصف استقبال الخليفة لرئيس الطائفة فقال:

«كان يركب إلى القصر لابسًا الحرير الموشى وعلى رأسه عمامة بيضاء مطرزة بالجواهر، و تتبعه ثلة من الفرسان. و كان المنادي يسير في مقدمة الموكب يهتف بالناس: «افتحوا الطريق لمولانا ابن داود!» وعندما كان يدخل على الخليفة يقف هذا له ويحييه ويجلسه على كرسي أمامه بينما يقف جميع الأمراء يحنون رؤوسهم إجلالاً له.

زرت في شمال العراق في السبعينيات الكنائس والأديرة المسيحية العديدة التي يرجع تاريخها إلى فجر قيام الدين المسيحي في المنطقة. وكان من أروع ما لفت نظري هناك أن الفرس عندما غزوا كردستان في القرن التاسع عشر، ذبحوا الرهبان في طريقهم إلى الموصل، ولكن سكان المدينة هبوا كأسرة واحدة من مسلمين ويهود ونصارى، وحاربوا في صف واحد دفاعًا عن مدينتهم. وعندما تأسست المملكة العراقية، لم يتردد المسؤولون في إسناد المناصب الوزارية ليهود ومسيحيين، كان طارق عزيز آخر مثال لذلك.

ما هو سر هذا التسامح الطائفي في بلاد الرافدين الذي تمثل خير تمثيل في محكمة التمييز الكبرى في العراق، أعلى سلطة قضائية في البلد. كان يرأسها يهودي، داود سمرة، وعلى جانبيه عضوان أحدهما مسيحي، أنطوان شماس، وثانيهما، مسلم، عبداللطيف الشواف. السر في ذلك هو أن بغداد كانت عاصمة الإمبراطورية الإسلامية. و كأي عاصمة كبرى، مثل لندن و باريس وواشنطن في أيامنا هذه، اعتادت على استقبال شتى المهاجرين و الوافدين، من علماء وتجار وصعاليك، من أبناء الأقوام والطوائف المختلفة. تمثل ذلك في الأحياء المختلفة من بغداد، هناك محلة قهاوي عقيل للبدو، وتبة الكرد للأكراد، ودربونة العجم، للإيرانيين، وعقد النصارى للمسيحيين، وعقد اليهود للموسويين، وكمب الأرمن للأرمن. ومحلة التكارتة لأبناء تكريت، حيث سكن التلميذ صدام حسين. وكعاصمة لهذه الإمبراطورية الواسعة الأرجاء بكل طوائفها وعناصرها اقتضى عليها أن تحتضنهم جميعًا و تفسح لهم المجال، وإلا فتنهار الإمبراطورية وتتمزق. لابد لبغداد أن تتسامح

وعندما حدثت الحرب الأهلية بين المسلمين و الموارنة في لبنان ، ووقعت أحداث دموية بين الأقباط والمسلمين في مصر ، شعرنا بدهشة واستغراب تامين . كيف يمكن لمسلم أن يقتل مسيحيًا أو بالعكس لمجرد اختلافهما بالدين ؟

وتتقبل التعددية. انعكس ذلك في الطوائف الإسلامية المختلفة التي تعايشت في بغداد.

وانطبق الشيء نفسه على المسيحيين. فبينما كانت أوروبا تخوض بحرًا من الدماء في المجازر التي راجت بين الكاثوليك والبروتستانت وسواهما من الطوائف، وقفت في بغداد كنائس السريان والكلدان والكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس في تمام السلام والانسجام. لا يلتفت العراقي إلى هويتك الطائفية، أو يتردد في الزواج بمن تختلف عنه في المذهب أو القومية. تنفجر المشكلة عندما تتدخل العناصر السياسية والاقتصادية، وهو ما كان من أمر السنة والشيعة.

جرت معظم الحروب للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط أو الحصول على منفذ له. إيران كدولة وإمبراطورية تحتاج لمثل هذا المنفذ. زجها ذلك في حروب مستمرة مع اليونان والرومان. إنه نزاع جيوفيزيائي. بقيام الإسلام ظهرت أقلية شيعية في العراق، ولكن إيران ظلت سنية. تغير الأمر بظهور الإمبراطورية العثمانية التي قطعت عنها ذلك الطموح. ادعى السلطان العثماني بأنه أخذ ولاية الخلافة من آخر وريث لبني العباس فنصب نفسه خليفة للمسلمين. تابع ذلك بتبني المذهب الحنفي. لماذا؟ لأن أبا حنيفة قال إنه ليس من الضروري أن يكون الخليفة عربيًا أو من آل البيت. بتبني المذهب الحنفي

أسبغ السلطان الشرعية على خلافته. نظر ملوك إيران (التي بدأت نزاعها العسكري الطويل مع تركيا) إلى ما فعله السلطان، فتحولوا في القرن السادس عشر إلى المذهب الشيعي الذي ينكر شرعية الخلافة لغير العربي و من غير آل البيت. هذا هو سر النزاع الطائفي بين القوتين والطائفتين. إنها عركة على الكعكة. عمدت كلتا الدولتين إلى خوض حروبهما على ساحة العراق، وحولا بغداد إلى كأس سباق لن يحصل عليه. كلما دخلها الفرس أعملوا سيوفهم في رقاب السنة ودنسوا مساجدهم. ثم يأتي العثمانيون ويطهرونها منهم ويضطهدون الشيعة.

إن من أروع مظاهر النضوج السياسي والفكري للعراقيين، وقوفهم على التل في هذا النزاع. لقد أدركوا حقيقته فلم يورطوا أنفسهم في المساهمة فيه. ردد شاعرهم الشعبي فقال: «بين العجم والروم (العثمانيين) بلوى ابتلينا!» عبثًا حاول الفرس إضرام فتن طائفية بين أهل بغداد. ولكن لم يكن لهذا الفصل الملحمي أن يمر دون أن يترك آثاره. من هذه الآثار أن العثمانيين أبعدوا الشيعة من الوظائف والدراسات العليا و القضاء وقيادات الجيش. كانوا يفضلون تعيين يهودي أو مسيحي في الوظيفة على تعيين شيعي. وبالفعل تولى الكثير من اليهود والنصارى وظائف عليا في الدولة، و لكن لم يوجد أي شيعي بينهم. وهكذا فعندما استقل العراق وتأسست المملكة العراقية، لم يكن هناك أي شيعي يحمل مؤهلات لأي وظيفة إدارية أو قضائية أو عسكرية. كل المؤهلين كانوا سنة. وبالتالي بفعل الاستمرارية ظلت الحكومة بيدهم.

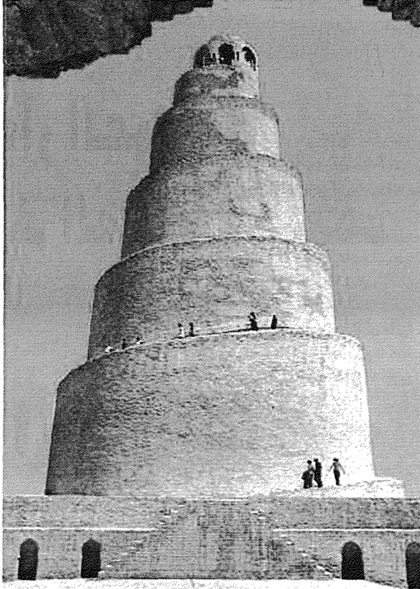
سارعت الحكومة بتوجيه من الإنجليز إلى ترتيب دورات حقوقية سريعة قصيرة الأمد لتخريج عدد من شباب الشيعة بحيث يمكن إشراكهم في الإدارة والحكم. كان من هؤلاء صالح جبر الذي ارتقى حتى تولى رئاسة الحكومة في الأربعينيات. بيد أن النزاع الجيوفيزيائي القديم استمر، بحلول العراق محل تركيا طرفًا فيه، واتجه النزاع هذه المرة بصورة خاصة نحو السيطرة على شط العرب. مالت القيادة السنية إلى الشك في ولاء الشيعة. قالوا إذا وقعت حرب (وكاد ذلك يحدث في عام ١٩٣٦م ثم حدث فعلاً على يد صدام حسين) فربما تميل عواطف الشيعة نحو إخوانهم في إيران. فاتبعوا السياسة العثمانية نفسها، بإبعاد الشيعة عن قيادات الجيش وعن السلك الدبلوماسي. سمحوا بنسبة قليلة من أبناء الشيعة بدخول الكلية العسكرية وقلما سمحوا لهم بالترقي إلى رتب عليا. ظلت القوات المسلحة حكرًا على السنة.

بيد أن الموضوع تفجر في الثلاثينيات وتحول إلى تمرد مسلح أريقت فيه الدماء، عندما أصدرت الحكومة قانون الخدمة العسكرية الإلزامية. فطالما أبعدت الحكومة العثمانية الشيعة من سلك الضباط، وكان أبناء الشيعة على أية حال لا يعترفون بشرعية السلطان، فقد قاوموا تجنيدهم للجيش وسوقهم لحروب آل عثمان. و أدى ذلك إلى حوادث دموية كان منها سبي العثمانيين لمدينة الحلة. ونشأت في قلوب الشيعة فكرة رفض خدمة العلم. وبها قاوموا القانون العراقي الجديد. واضطرت السلطة إلى استعمال القوة ضدهم. برر هذا الرفض علماؤهم، مثل الشبيبي، بالقول بأن ما يحتاج إليه العراق هو التعليم الإلزامي وليس التجنيد الإلزامي.

سيطرت السنة على النظام القضائي أيضًا و لكن لأسباب مختلفة. سألت في ذلك محمدًا القشطيني عندما كان رئيسًا لمحكمة تمييز العراق، أعلى سلطة قضائية في هذا البلد. لماذا لا يوجد كثير من القضاة الشيعة في العراق (باستثناء قضاة المحكمة الجعفرية

إذا كان الكثير من الدول يعتز بحضارة ازدهرت وانتهت ، فالعراق يعتز بسلسلة متواصلة من الحضارات تأتي موجة بعد موجة بما أوحى بهذا السؤال : هل سيكتب للعراق الآن أن ينهض مرة أخرى ليكتب فصلاً جديدًا يضاف إلى تاريخه الحضاري المجيد ؟

المختصة بالأحوال الشخصية للشيعة؟ أعطاني هذا الجواب: القوانين المتبعة في العراق تقوم على القوانين العثمانية التي بدورها قامت على الفقه الحنفي. مطالبة رجل جعفري بتطبيقها يجعله في نزاع ضميري. فإن التزم بها يخن معتقداته الدينية وإن تجاهلها واتبع ما يؤمن به، فقد تجاوز القانون. ولهذا فلضمان مراعاة القاضي للقوانين بإخلاص يكون من الأجدى اختياره من السنة. ولكننا نجد هنا أيضًا تناقضًا انتهازيًا و طائفيًا، فلم يتردد المسؤولون في تعيين قضاة يهود أو مسيحيين مثلما ترددوا في تعيين قضاة شيعة.



وهكذا نجد أن الكثير من مشكلات العراق الحالية يعود إلى التركة العثمانية. لقد ورثت الدولة العباسية الكثير من تراث بابل وفارس، ثم ورثت الدولة العثمانية تراث بني العباس، ومن بعدها ورثت الدولة العراقية تراث آل عثمان. وأمام هذا التضارب في الحضارات والمعتقدات وجد الكثيرون من أبناء الجيل الجديد خلاصهم في اعتناق الأفكار الماركسية والليبرالية. وسرعان ما أصبح العراق مصنعًا أساسيًا للفكر اليساري في البلاد العربية. فأضيف بذلك عنصر جديد إلى هذه الخلطة الحضارية المتنوعة زاد من تعقيدها و تنوعها.

الشيء الطريف، أنني سمعت من جدتي، رحمها الله، الكثير من الحكايات والأساطير الشعبية التي رأيتها فيما بعد في أدبيات سومر وبابل، ومنها ملحمة غلغامش. لم يمت ذلك التراث كليًا، ولكن كان على الجيل الجديد أن يعود إلى جذوره ويعيد دراستها، فأصبحنا نرى الكثير من الفنانين والأدباء يستوحون ذلك التراث في أعمالهم الحديثة. وهذا ينطبق على التشريع والقوانين أيضًا. ينسى أكثر الناس أن جل القواعد والأحكام القضائية في العراق، لا بل والعالم كله، تعود إلى شريعة حمورابي التي دونت في مدينة بابل قبل أربعة آلاف سنة. إذا كان الكثير من الدول يعتز بحضارة ازدهرت وانتهت، فالعراق يعتز بسلسلة متواصلة من الحضارات تأتي موجة بعد موجة بما أوحى بهذا السؤال: هل سيكتب للعراق الآن أن ينهض مرة أخرى ليكتب فصلاً جديدًا يضاف إلى تاريخه الحضاري المجيد؟ ■

أهوار العراق.. تاريخ الماء والتجفيف

رشيد الخيُّون ـ لندن*



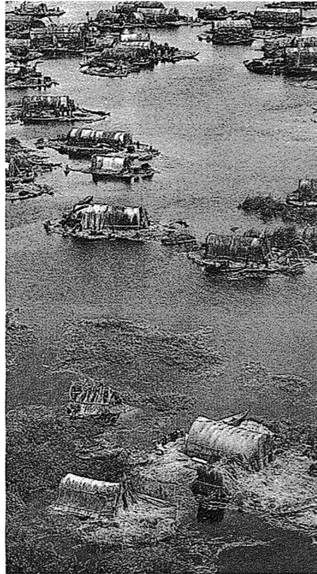
* باحث عراقي في التراث الإسلامي .

ما أتذكره جيدًا، وأنا ولدت ونشأتُ في الأهوار، أننا كنا ننظر إلى دهشة السياح الأجانب بشيء من السخرية، فماذا يعني العيش على الماء؟ أو صيد الأسماك من على سرير من القصب؟ ماذا يعني التعايش مع الأفاعي في بيت واحد؟ ماذا يعني أن يغرق القمر في سطوح الماء الشاسعة؟ مشاهد بهية أخرى لم نحسب لها حسابًا، فهي حياتنا اليومية المعتادة لا نرى فيها جديدًا مدهشًا. حينها اعتبرنا دهشة الغرباء ترفًا ومجاملة، وردًا جميلاً لضيافتنا السخية. لكن ما أن هجرتُ ذلك المكان إلى المدينة حتى أصبحت أضيق من الضياع فيها، شاعرًا بغربة حقيقية، وحينئذ وددت أن أعود إلى الأهوار، طالبًا الغفران من قتل أفعى من أفاعيها، أو إسكات نقيق ضفادعها السيمفوني برمي حجر يقطع عليها استلهامها، أو قتل طير من طيورها، كل ذلك فعلته في صباي وشبابي.

الهور قديم، كان الاسم معروفًا قبل أن يتعرف سكانه الأصليون على العربية، لا تربطه رابطة بالمصدر الثلاثي هار، ولا علاقة لبيئته بالانهيار. قال ابن دريد في معنى الهور: «البحيرة تغيض بها مياه غياض وآجام (بردي وقصب) فتتسع ويكثر ماؤها، والهور القطيع من الغنم، سمي به لأنه من كثرته يتساقط بعضه على بعض» (تاج العروس). عَرفه ابن منظور: الهور «ماء لا يرى طرفاه من سعته، وهو مغيض دجلة والفرات»(لسان العرب). لا نجد في المصدرين الهامين ما يفيد نحت كلمة الهور من انهيار الجرف، بقدر ما أشارا إلى كيان جغرافي محدد.

وللسومرية تركة في لهجة أهل المنطقة، أبرزها كلمة (ايشان) تعني التل المحاط بالماء، ووشيجة في التسمية، فقد عرف السومريون الأهوار باسم «الأكامي»[١]، أي الأجمة حيث تنمو نباتات القصب والبردي. وردت مفردة أجمة القصب في ملحمة العلي: «عندما لم تكن بعدُ مراع خضر، عندما لم تكن بعدُ أجمات القصب»[٢]. أصبحت الأجمة، فيما بعد، تسمية من التسميات العربية للأهوار، كما سيأتي ذكرها لاحقًا. وفي هذا الصدد أشار عالم الآثار العراقي طه باقر إلى قدم الأهوار في سياق دراسته حول تاريخ نبات البردي، المعروف بـ«أربتو» عند السومريين، حسب ما ثبت في كتابات الملك الآشوري شيلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م). قال باقر: «ذكر نوع من القوارب صنعت من نبات أربتو، وميزت عن نوع آخر من القوارب كانوا يستعملون فيها الجلود المنفوخة، أي أن النوع الأول من القوارب هو الذي يشبه القوارب التي تصنع في العراق الآن من البردي والقير، كالمشاحيف والقارب المدور المسمى في العراق الآن باسم القفة، كما ذكرت المصادر المسمارية الحصر المصنوعة من هذا النبات، وقد سمتها باسم أرشو أربتي، أي فرش البردي»[٣].

ولتسمية الهور علاقة بانعكاس الشمس على سطح الماء الشاسع على مدار الفصول الأربعة، فبفعل التعاكس بين الماء والنور يبدو المكان بجملة تفاصيله أبيض اللون، رغم لون القصب والبردي الأخضر في الربيع والصيف، والأصفر والبني في الخريف والشتاء. أكثر من هذا، عرف الأهالي أماكن من الأهوار بالبياضة. أخيرًا، لم ير الرحالة (يونغ) وهو يقف على شاطئ الهور أول مرة غير اللون الأبيض، قال: «إني رأيت برغم بعد المسافة النهايات البيضاء المتموجة للمقاصب (أماكن القصب) الكبرى»[٤]. بعد هذا، الهور تسمية أرامية، تعني البياض، فهورا الآرامية تعني «البياض والنقاء»[٥]، اشتق منها اسم مدينة حوران، منزل من منازل



الصابئة القدماء، فهي الأرض البيضاء النقية.

بعد أن أكمل العرب السيطرة على البصرة ساروا شمالاً حيث (دستميسان) - العمارة - ليحكموا السيطرة على العراق. لكنهم عجزوا عن عبور بيئة لا يدخلها إلا من له طبع الطيور والأسماك، حينها قال عتبة بن غزوان، وهو ينظر إلى منابت القصب والبردي شمال البصرة: «ليست هذه من منازل العرب»[٦]، فاستبدال الحصان والجمل بزورق الهور الرشيق، والخيمة بصريفة القصب ليس بالأمر الهيّن. عبر ابن غزوان بهذه العبارة عن قدم الأهوار وأهلها، لكن هذه الحادثة المروية في أمهات التاريخ، وما ورد في الملاحم السومرية (الخليقة وجلجامش والطوفان) من تعريف بالأهوار لم ترق لباحثين وسياسيين تعصبوا ضد هذه البيئة، التي يحلم الأوروبي بنظرة إليها.

استنادًا إلى ما نصطلح عليه بالنظرية الإسلامية في نشأة الأهوار، قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» حول عمرانها: «استفحل أمر البطائح، وانفسدت مواضع البثوق وتغلب الماء على النواحي، ودخل العمال بالسفن، فرأوا فيها مواضع عالية (الإشن) لم يصل الماء إليها، فبنوا فيها القرى، وسكنها قوم وزرعوها الأرز». لو كان الحموي رحالة شهد الأمكنة ما قال ذلك، لأن شتلات الأرز لا تنبت في اليابسة، إنما تزرع في ماء عمقه حوالي الذراع على الأقل، فهو نبات مائي يتم حصاده بعد انسحاب الماء بالموسم على وجه الشتاء. كذلك أن وجود نبات الأرز بالبصرة عند فتحها يؤكد قِدَم هذا النبات في المنطقة، فحسب رواية الحموي في المصدر نفسه أن العرب تعرفوا عليه أول مرة بعد دخول البصرة فاتحين، فقد اعتقدوا أنه سموم تركها البصريون لهم، فلم يأكلوا منه إلا بعد أن جربوه على حصان.

أما أهل الأهوار فلهم حكاياتهم حول نشوء المكان، تذكر منها الباحثة الألمانية (هلبوش) حكاية سمعناها من أفواه أهلنا، مع صعوبة التحقق من موضوعيتها: «كان بالقرب من الجبايش (من قرى الأهوار الكبيرة) نهر يعرف بشط اليهود– ذكره الطبري، في خبر توجه الثوار الزنج سنة ٢٦٢هـ إلى البطيحة ودستميسان بقوله: النهر المعروف باليهودي - وكان يسكن فيما مضى بين المديّنة (تصغير مدينة ناحية شمال البصرة) والجبايش عدد من اليهود، وكانوا يملكون حتى قبل حوالي مائة

سنة (أي ١٨٥٨م) خلت أراض واسعة، وكان بالقرب من الجبايش مكان يعرف بالأكَرع يحيطها البردي من كل مكان، أما اليوم فقد أصبح مكشوفًا يتكون من ماء عميق وقصب، بعد أن كان البردي ينبت فيه بكثافة»[٧].

حكاية أخرى تقول: «إن النار الهائلة شبت منها (المنطقة قبل أن تكوّن أهوارًا) ولم يستطع الناس الذين أسرعوا على ظهور الخيل إطفاءها، ثم اندفعت المياه إلى هذا المكان قبل مائتي سنة». لم تمنع الآراء السالفة الباحثة الألمانية، التي عاشت في الأهوار حوالي سنة، الإفصاح بقدم المنطقة، فقالت في المقال نفسه: «إن منطقة الأهوار هذه كانت مسكونة منذ أقدم العصور التاريخية، وكانت هدفًا لهجرات مجموعات من الناس في أدوار ما قبل التاريخ، واستطاعت أن تحافظ على عنصريتها، وأصلها القديم الذي نجده اليوم». ويروي كبار السن من سكان المنطقة، عبر الروايات المتواترة عن الأسلاف، أن التلال المنتشرة في عرض الأهوار كانت مزروعة بأشجار الفاكهة من أعناب ورمّان، حتى ظنوا أن اسم منطقة (أبو سوباط) في أطراف الجبايش هو من بقايا سوابيط (عرائش) العنب.

كانت الأهوار مسرحًا للمعارك بين الخلافة العباسية وزنج البصرة، جاء في يوميات الثورة (تاريخ الطبري السنة ٢٦٢هـ): توجه رجال الزنج إلى البطيحة ودستميسان. جاء في أحداث سنة ٢٦٨هـ «وجه صاحب الزنج إلى البطيحة رجلين من أهل قرية بسمى، يعرف أحدهما الرَّيان والآخر الخليل، كانا يقيمان بمعسكر الخبيث (قائد ثورة الزنج حسب تسمية الطبري له)، فنهض الخليل والرَّيان وجمعا جماعة من أهل الطف وأتيا قرية بسمى، فأقاما بها يحملان السمك من البطيحة أولاً إلى معسكر الخبيث بالزواريق الصغار التي تسلك الأنهار الضيقة».

وفي أحداث سنة ٢٥٨هـ ذكر الطبري وصول ثوار الزنج إلى «بطيحة الصحناة (لعلها الصحين حاليًا بميسان)». في حدود الحدث ورد استطلاع استخباري: «كتب الجبائي (رجل من جُبى البصرية) إلى قائد الزنج يخبره بأن البطيحة خالية من رجال السلطان». وصف ابن رستة (ت٢٩٠هـ) في «الأعلاق النفيسة» بيئة الهور وكأنها اليوم: «يحمل بعض ما فيها من الزواريق، فتمر في شبه أزقة تصل بين الأهوار، وبين هذه الأزقة مواضع متخذة من قصب عليها أكواخ من قصب يكتنون بها من البق، وفيها مسالح (مفارز مسلحة) يعمل رجالها على تطهير المجرى وحماية الملاحين، لأن البطائح مكامن طبيعية»[٨].

إن المواضع التي أشار إليها ابن رستة تسمى اليوم في الأهوار الجباشات (مفردها جباشة)، أوالدبون (مفردها دبن)، تتكون من تراكم طبقات البردي والقصب على مر السنين، تتحرك بما عليها من كوخ وإنسان وحيوان، كان اسمها الآرامي (طهيثا) ومعناها: «قرية تائهة لوجودها بين الأهوار»[٩]. ذكر الطبري سنة ٢٦٢ و٢٦٧هـ، مناطق عديدة ومدينة ونهرًا في الأهوار باسم طهيثا، ومما لا يقبل الشك أن لقب (الروهى) المعروف به أحد قادة الزنج الأسود، حسب الطبري في أخبار ثورة الزنج بالأهوار سنة ٢٦٣هـ، هو تشبيه له بكائن الظلام الرهيب (الروهة) المعروف في الأدب الديني المندائي. ذكر ابن سيرابيون أسماء مناطق عديدة من الأهوار، أحدها يماثل اسم البصرة الآرامي (بصرياثا)، هور بحصى، هور بكمص، وهور المحمدية[١٠]، أحسب الهور الأخير هو هور الحمّار اليوم، فهناك على جرف ذلك الهور ضريح قديم اسم صاحبه محمد، لا زال مزارًا، كانت رحلاتنا المدرسية إليه.

قدر ابن رستة مساحة الأهوار: «منطقة واسعة تؤلف سلسلة بحيرات ومستنقعات، وهي ثلاثون فرسخًا (وهذا قليل جدًا فالفرسخ يعادل خمسة أو ستة كيلو مترات)، وكانت

فالتباين الكبير بين المقدرين لا تشجع على الأخذ بها، فهي تتراوح بين ثلاثة آلاف إلى ثلاثين ألف كيلو متر مربع، يشير التباين في التقديرات إلى أن المكان ما زال عصيًا على المساحين بسبب تعاقب فيضان وانحسار المياه، لكن الثابت أنها أكبر أهوار العالم

تكتنف هذه الأهوار القرى والقصبات، فيكثر فيها البردي والقصب، وهي تستقي الماء من الترع التي تأخذ من الأهوار، وكانت هذه الأهوار متصلة بعضها ببعض بترع صالحة للملاحة، فكانت السفن تأتي بحمولتها فتفرغها في سفن أصغر منها لقطع الأهوار، والترع المؤدية إلى شط العرب»[١١]. ذكر البكري الأهوار بالبحيرة التي بين البصرة وواسط، وقدر مساحتها: بثلاثين فرسخًا في ثلاثين[١٢]. أما حديثًا فليس هناك تقديرات واضحة لمساحة الأهوار، فالتباين الكبير بين المقدرين لا تشجع على الأخذ بها، فهي تتراوح بين ثلاثة آلاف إلى ثلاثين ألف كيلو متر مربع، يشير التباين في التقديرات إلى أن المكان ما زال عصيًا على المساحين بسبب تعاقب فيضان وانحسار المياه، لكن الثابت أنها أكبر أهوار العالم.

إن وجود حيوان الجاموس القديم يخطئ الرواية التي تناقلها النظام السابق، من أن أهلها نزحوا من الهند مع جواميسهم أيام والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي! فالأهوار بيئته الطبيعية، أكدت ذلك المنحوتات السومرية، أبرزها ختم مصور يُشير إلى «جلجامش يصرع جاموسين وحشيين من رجليهما الخلفية». وردًا على مَنْ جعل من الحجاج خبيرًا بأمر الأهوار، وجلب ما يُلائمها من البشر والحيوان من الهند، عارض أحمد سوسه ذلك بالقول: «إن الجاموس الوحشي كان موجودًا في منطقة الأهوار، قبل أن يظهره السومريون الفنيون على أختامهم وألواحهم بزمن طويل، ويُعتقد أنه كان أول الحيوانات الوحشية التي انقرضت في جنوبي العراق، حيث اختفى بوصفه حيوانًا وحشيًا بعد منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. يكشف هذا خطأ النظرية القائلة إن الجاموس عرف أول مرة في العراق في عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، حين أتى محمد بن القاسم، الذي اقتحم بلاد الهند والسند، بأناس من شط السند والهند ومعهم أهلوهم وأولادهم وجواميسهم، وأسكنهم البطيحة»[١٣].

غير أن ما حصل في عمليات التجفيف الأخيرة لا تساويه كل خطط وعمليات تجفيف المنطقة عبر التاريخ . لقد أعطت نتائج مروعة وتمت بإنشاء سدود ضخمة واستخدام آلات هائلة ، كانت قتلاً متعمدًا لبيئة عمرها آلاف السنين ، لها حضورها في التوازن البيئي والحضاري

كانت بيئة الأهوار حاضرة في مناظرات المياه بين البصريين والكوفيين، قال المسعودي: «لأهل البصرة وأهل الكوفة، ومَنْ شرب من دجلة مناظرات كثيرة في مياههم ومنافعها، منها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة فقالوا: ماؤكم كدر زهك ذفر، فقال أهل البصرة: من أين يأتي ماؤنا الكدر وماء البحر صاف وماء البطيحة صاف، وهما يمتزجان في وسط بلادنا؟ قال الكوفيون: فضيلة مائنا على دجلة (الكوفة تشرب من الفرات) فما ظنك بفضيلته على ماء البصرة، وهو يختلط بماء البحر، ومن الماء المستنقع في أُصول القصب والبردي»[١٤]. مناظرة أخرى في المياه جرت في مجلس أبي العباس السفاح بين بصري وكوفي، قال الكوفي: «إنما البصرة من العراق بمثابة المثانة من الجسد، ينتهي إليها الماء بعد تغييره وفساده، مضغوطة من قبل ظهرها بأخشن أحجار الحجاز وأقلها خيرًا، ومضغوطة من فوقها ببطيحتها (أهوارها)»[١٥].

خلاف مَنْ اعتبر الأهوار مثانة تجتمع فيها المياه الفاسدة يرى الجاحظ أنها مصفاة طبيعية للمياه، جاء ذلك في رده على تقولات أهل الكوفة على مياه البصرة: «هم يعيبون ماء البصرة، وماء البصرة رقيق، قد ذهب عنه الطين والماء المشوب بماء بغداد والكوفة لطول مقامه بالبطيحة، وقد لان وصفا»[١٦]. أضاف الجاحظ: «الفرات خير من ماء النيل، وأما دجلة فإن ماءها يقطع شهوة الرجال، ويذهب بصهيل الخيل»[١٧]. كانت المقولة الأولى في الماء بعد مروره بالأهوار نابعة من اعتقاد ما زال حيًا، فمن تجربة متراكمة يرى أهل المنطقة أن الماء يصبح عذبًا كلما توغلوا في عمق الهور، وعادة يكون الماء هناك صافيًا، زلالاً عند الشرب. فمن غير مروره

بين القصب والبردي يمر ماء الهور عبر نباتات أخرى عديدة تعلق فيها الجسيمات الصغيرة جدًا، مثل نبات (الشمبلان) الخشن الملمس، الذي تشبه أوراقه الشوكية وتماسك بعضها ببعض أسلاك مصافي الماء الاصطناعية. أخيرًا نأتي إلى دفاع بشار بن برد عن عذوبة ماء البصرة:

الرافدان توافى ماء بحرهما
إلى الأبلة شربًا غير محضور(١٨)

ظلت الأهوار، قديمًا وحديثًا، ملجأ آمنًا للمغضوب عليهم من السلطات، أمن مَنْ استجار بقصبها وبرديها. يخبرنا التاريخ القديم بمطاردة الملك الآشوري (سنحاريب) الذين لجؤوا إلى الأهوار وتحصنوا فيها، وتظهر إحدى التحف الفنية جنود آشور وهم يركبون الزوارق (السيمريات) يشقون فيها غابات القصب والبردي، ولجأ أهل البصرة إليها عقب الفتح الإسلامي، وثوار الزنج بعد أن ضاقت البصرة بهم.

كان من أبرز اللاجئين إلى الأهوار الخليفة القادر العباسي، قبل أن يتولى الخلافة، هاربًا من تربص الطائع بالله به. ذكر ابن الأثير خبره في «الكامل في التاريخ»: «خرج من داره واستتر ثم سار إلى البطيحة (...) وكانت مدة إقامته سنتين وأحد عشر شهرًا». والقاضي أبو علي المحسن التنوخي (ت٣٨٤هـ) الذي روى قصته بالقول: «كان لي في هذا الحديث، خبر طريف، وذلك أني كنت لجأتُ إلى البطيحة، هاربًا من نكبة لحقتني (...) فلقيتُ هناك جماعة من معارفي، بالبصرة وواسط، خائفين على نفوسهم، قد هربوا من ابن بقية، الذي كان في ذلك الوقت وزيرًا (عند البويهيين)، ولجؤوا إلى البطيحة»(١٩).

بعد الوقوف على تاريخ تكوين الأهوار وأحواله عبر الرواية الإسلامية، تأتي عمليات تجفيفها لمختلف الأغراض، وهي كالآتي: قام الملك البابلي (نبوخذنصر)، بعمليات في سبيل تنظيم الري، فمن أعماله في المنطقة «احتفر النهر المعروف بنهر الملك (لعله نهر الغراف حاليًا)، وهو الذي حفر موضعًا واسعًا وترعة للماء الزائد من الفرات، أي خزانًا، وأقام سدودًا كثيرة»(٢٠). حاول الملوك الساسانيون تنظيم الري، فأقاموا «القناطر والسدود، وردع الماء بالمسنيات، حتى إن الملك أبرويز صلب في يوم واحد أربعين جسارًا لتسامحهم في شأن السدود». في سبيل زيادة نسبة الخراج أيضًا ولى



معاوية بن أبي سفيان عبدالله بن دراج مولاه على خراج العراق، فـ«استخرج له من الأرضين بالبطائح ما بلغت غلته خمسة آلاف ألف درهم، وذلك أنه قطع القصب، وغلب الماء بالمسنيات»(٢١).

بعدها ذكر الجغرافي ابن رستة: أن خالد بن عبدالله عامل الأمويين حاول أن يسكر (يسد) دجلة، وأنفق الأموال فلم ينجح سعيه، وسطا دجلة على البنيان المعمور»(٢٢). في محاولة لإصلاح الأرض بتجفيفها استكثر الوليد بن عبدالملك ثلاثة ملايين درهم، بعد أن عرض عليه الحجاج بن يوسف الثقفي تقديرًا لتكاليف المشروع. إلا أن البلاذري في «فتوح البلدان» ذكر استطاعة حسان النبطي، صاحب حوض البصرة، من تجفيف جزئي للأهوار، و«استخرج للحجاج أيام الوليد، ولهشام بن عبدالملك أرضين من أراضي البطيحة».

جرت محاولات لتجفيف الأهوار بدافع مواجهة المعارضة في العهدين البويهي

والسلجوقي، وقبلهما في العهد العباسي أوان ثورة الزنج بالبصرة وامتدادها إلى الأهوار. فبسبب تمرد عمران بن شاهين عمد البويهيون إلى «سد أفواه الأنهار الداخلة في البطائح، فضاع فيها الزمان والأموال، وجاءت المدود، وبثق الحسن بن عمران بعض السدود»[٢٣]. أطرف ما في الأمر أن بختيار البويهي أهدى لابن شاهين مجموعة من الخيل، وربما لا يعلم، وهو الديلمي، أن خيل الأهوار قواربها وسفنها، لذا رد ابن شاهين الهدية مع عبارة «لأن دوابي هذه السفن»[٢٤].

غير أن ما حصل في عمليات التجفيف الأخيرة لا تساويه كل خطط وعمليات تجفيف المنطقة عبر التاريخ. لقد أعطت نتائج مروعة وتمت بإنشاء سدود ضخمة واستخدام آلات هائلة، كانت قتلاً متعمدًا لبيئة عمرها آلاف السنين، لها حضورها في التوازن البيئي والحضاري. فالتجفيف أيًا كانت أسبابه، ما هو إلا قطع شريان الحياة، وتدمير ثروة نباتية وحيوانية قل لها مثيل في العالم، ولو كان هناك تدبير وحرص لأخذ بمقترحات أهالي المنطقة المبنية على تجربة طويلة في المكان. لقد اقترحوا لردع الفيضانات العاتية من جهة، والمحافظة على البيئة الحية وغير الحية من الجهة الأخرى، تعميق الرافدين وفروعهما في الأهوار، لأن تجمع المواد الغرينية يقلل عادة من استيعاب النهرين لكمية المياه عند الفيضان، ويعسر الملاحة عند الصيهود (موسم انحسار الماء)، كذلك توفر عملية الحفر شواطئ صالحة لزراعة النخيل والزروع من غير الأرز، الذي يحتاج إلى مستوى معين من المياه.

هناك ثمة روح عاد يخفق في سماء الأهوار بعد جريان المياه المحبوسة في العهد السابق، ولعلها تنجي واهبات البيان من الانقراض، مع أن قول الشاعر لا يبدو مشجعًا:

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما
ذوى نبت جَنبيه وجف المشارع
فقلتُ: إلى أن يرجع النهرُ جاريًا
وتعشبُ جَنباهُ يموتُ الضفادعُ[٢٥]

المراجع

(١) جبار الجبيوراوي، جريدة الثورة العراقية، ٧ أيلول ١٩٩٢م.
(٢) فريحة، ملامح وأساطير من الأدب السامي، ص٨٩.
(٣) النباتات في المصادر السومرية، مجلة سومر ٩/ ١٩٥٧م.
(٤) العودة إلى الأهوار، ص ١١٨.
(٥) ناجية مراني، مفاهيم صابئية مندائية، ص٢١٩.
(٦) ابن الخياط، تاريخ ابن الخياط ١ص١١٥ وردت الرواية على لسان غُنيم بن قيس عند غزو البصرة، قال: «كنا مع عتبة بن غزوان فلما انتهى البر وراء منابت القصب قال: ليست هذه من منازل العرب، فنزل الخُرَيبة».
(٧) مدينة المعدان في الحاضر والماضي، مجلة سومر١٣/ ١٩٥٧م.
(٨) الكاتب، شط العرب وشط البصرة والتاريخ، ص٣١ عن ابن رستة.
(٩) علي الشرقي، بعض مدن البطائح القديمة وقراها، مجلة لغة العرب، السنة الخامسة ١٩٢٧م.
(١٠) المصدر نفسه.
(١١) سوسه، فيضانات بغداد في التاريخ، ١ص٢٠٦، عن ابن رستة، الأعلاق النفيسة.
(١٢) المسالك والممالك، ١ص٢٣٤ .
(١٣) الري والحضارة في وادي الرافدين، ص٤٩ .
(١٤) مروج الذهب، ٤ص١٩٠-١٩١ .
(١٥) صالح أحمد العلي، خطط البصرة، ص٣٠ .
(١٦) الجاحظ، كتاب البلدان، ص٤٩٩.
(١٧) المصدر نفسه، ص٤٩٦ .
(١٨) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣٧ .
(١٩) الفرج بعد الشدة، ١ص١٧١-١٧٢ .
(٢٠) علي الشرقي، مجلة لغة العرب، السنة الخامسة ١٩٢٧م.
(٢١) البلاذري، فتوح البلدان، ٤ص٤١١ .
(٢٢) مجلة لغة العرب، السنة الخامسة ١٩٢٧م، عن ابن رستة، الأعلاق النفيسة.
(٢٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٨ص٧٠١ .
(٢٤) مسكويه، تجارب الأمم، ٢ص٣٩٧ .
(٢٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١ص٢٨٠

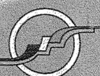
قاموس أطلس SD 900

الأفضل على الإطلاق لتعلم اللغة الإنجليزية وإتقانها .
موسوعة علمية متكاملة وشاشة بإضاءة وخلفية عالية الوضوح .



- قاموس عربي إنجليزي
- إنجليزي عربي لونغ مان .
- يمكنك من الكتابة مباشرة بخط يدك على شاشة اللمس .
- يحتوي على قواعد اللغة الإنجليزية مع النطق السليم للغة .
- موسوعة شاملة ومنظم مواعيد .
- التدريب على النطق (تسجيل الصوت وسماع النطق البشري الصحيح) .

لأول مرة
صوت بشري حقيقي



منطق للكمبيوتر والاتصالات المحدودة



المركز الرئيسي : ص.ب ٢٥٧ – الدمام ٣١٤١١ – تلفاكس : ٨٣١١٥١٢

مجمع فؤاد سنتر 8953208 - الدمام: مركز الدانة 8346585 - الواحة 8269145 - الرياض 4767777 - المعرض 4781716 - جدة 6394422 - المعرض 6608672

				مخزن الكمبيوتر	2290075	مؤسسة بافرط للتجارة	6671734	مكتبة باحمدون	3902118
العالمية صخر	8985288	مكتبة جرير (العليا)	4626000	الخرج - حاسوب	5442371	عالم الإلكترونيات	6606405	مؤسسة القحطاني	3903773
مكتبة المتنبي	8411395	مكتبة جرير (الملز)	4773140	بريدة - مكتبة العليقي	3238061				
مؤسسة العتيق للتجارة	8326910	مكتبة العبيكان	4654424	الرس - مركز القرطاسية	3337517	محلات الباروم	5741066	مكتبة تهامة	2248504
مكتبة جرير	8943311	اكسترا	4196677	حائل - الأدوات المدرسية	5225550	مكتبات مرزا	5587235	مكتبة العبيكان	2275050
مكتبة العبيكان	8091399	مكتبة الشقري	4654424	عرعر - معرض الكروان	6626809	مكتبة تهامة	5426634		
المكتبة الوطنية الجديدة	8640040	مكتبة ابو معطي	4587110	الزلفي - الشبكة الفضية	4223028			بن خصوصة للكمبيوتر	2232176
		مكتبة المؤيد	4020396	عنيزة - القرطاسية	2632228	مكتبة العبيكان	8330620	المنهل للإلكترونيات	055665121
مكتبة العبيكان	5864666	أسواق العزيزية	4883564			مكتبة دار الزمان	8366666	مكتبة المنهل	7221048
مكتبة المنار	5928388	مكتبة الخريجي	4646258	مكتبة مرزا	6726020	شركة عالم الإلكترونيات	8255966	مكتبة النجمة	4236411
مكتبة العبيكان - حفر الباطن	7211118	معرض الأمتياز	4081997	مكتبة المأمون	6446614	موسسة بافرط للتجارة	8236442	مؤسسة السلطان	3225000
الخفجي الأسواق العالمية	7662800	معرض دبي	4082795	مكتبة تهامة	6601325			مركز الفيصلية	5224570
مكتبة الخفجي الحديثة	7661044	شركة المصباح	2202985	مكتبة المكتبة	6713143	المكتبة العربية	7360400		
القطيف: مؤسسة العلقم	8541995	الكمبيوتر العربي	4263319	مكتبة جرير	6827666	مكتبة المصيف	7368840	متجر الشاطر	6481157
				شركة أحمد عبدالواحد	6546658	مكتبة الدار السعودي	7327642	مؤسسة السيوفي	6483527

www.atlassite.com - E-mail: sales@mantech-sa.com

لماذا ازدهرت الفنون التشكيلية في العراق ؟

نزيهة رشيد الحارثي . العراق *



*رسامة و أستاذة سابقة في كلية الآداب - جامعة بغداد .

ينظر كثير من النقاد والمراقبين إلى مدينة بغداد على أنها عاصمة الفن الحديث في العالم العربي. وهذا شيء يلفت النظر عندما نتذكر أنه عندما استقل العراق بعد الحرب العالمية الثانية، لم تكن فيه أي حركة فنية، ولم يتجاوز عدد محترفي الفنون التشكيلية غير ثلاثة أو أربعة، تعلم أكثرهم الرسم عندما كانوا ضباطًا في الجيش العثماني ومارسوا الرسم كهواية. كان منهم فتحي صفوة، والد المؤرخ والدبلوماسي العراقي (نجدة فتحي صفوة)، وناصر عوني، والحاج سليم الذي ترك أثرًا بليغًا في الفن العراقي بأولاده الفنانين الأربعة، جواد ونزار وسعاد ونزيهة. كان جميع هؤلاء الرسامين يتبعون المدرسة الأكاديمية القديمة، وكان هذا من حسن حظ العراق، فمعظم موضوعاتهم أصبحت من الوثائق التاريخية للمجتمع العراقي في تصويرها لحياة العراقيين بأسلوب دقيق فوتوغرافي.

حدثت في الثلاثينيات مصادفة، كان لها أثر بليغ في تطور الفن في العراق، عندما كان رجل بسيط، سيد حسن، يعمل في القصر الملكي كحارس وجنايني. وكان له صبي أظهر موهبة كبيرة في الرسم فأنجز بقلمه صورة دقيقة للملك فيصل الأول، مؤسس المملكة العراقية. قدم السيد حسن هذه الصورة مع نماذج أخرى من عمل ابنه الشاب للملك فلمس فيه قدرة وموهبة خارقتين في هذا الفن. دفعت الملك إلى التوصية به، وإقناع وزير المعارف بإرساله إلى باريس ليدرس فن الرسم في البوزار (الأكاديمية الشهيرة للفنون التشكيلية في فرنسا) وهو ما كان. ولكن هذا الشاب، فايق حسن، لم يتعلم الرسم فقط بل تشرب كليًا الثقافة والفنون الفرنسية عمومًا. عاد الى العراق وتعين مدرسًا في مدرسة الكرخ المتوسطة حتى تم تأسيس معهد الفنون الجميلة فنقلوه إليه رئيسًا لقسم الرسم. أكاديمية البوزار مؤسسة محافظة، والتزمت عندئذ الأسلوب الكلاسيكي القديم. وهذا هو الأسلوب الذي عاد به فايق حسن وأبدع فيه بشكل عجيب وترك لوحات تضاهي خيرة ما رسمه عباقرة الفن في أوربا.

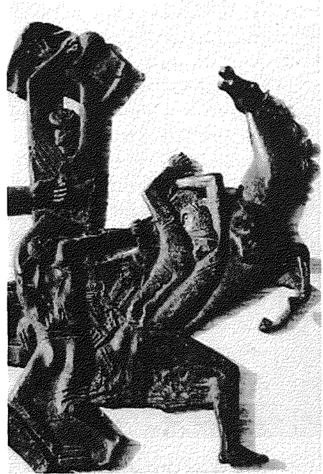
بيد أن الحرب العالمية الثانية أحدثت انقلابًا خطيرًا في تاريخ الفن العراقي الحديث. فقد كان من نصيب هذا البلد أن نشر الحلفاء قسمًا من الجيش البولوني فيه، وكان بينهم عدد من الفنانين الحداثيين الشهيرين. قاموا بزيارة إلى معهد الفنون الجميلة، فرأوا الأسلوب الأكاديمي الذي عفى عليه الزمن. نشأت بينهم وبين فايق حسن، علاقة وطيدة أقنعوه خلالها بالانتقال واحتضان الفن الحديث. يتذكر طلاب فايق حسن كيف أنه جاءهم يومًا كالمجنون، وطلب منهم تمزيق كل ما كانوا يرسمونه، والابتداء مجددًا بفن حر يتجاوز كل التقاليد الفنية السابقة. هكذا بدأت حركة الفن الحديث في العراق التي أعطت بغداد هذا الدور الطلائعي في الفنون التشكيلية.

و لكن الثورة التي جاء بها فايق حسن عكست في الواقع المزاج العراقي المتعطش أبدًا للجديد والتجديد. ففي تلك الآونة التي اخترقت فيها مدرسة فايق حسن قواعد الفن القديم، كان بدر شاكر السياب ونازك الملائكة يقودان ثورة موازية في دنيا الشعر العربي، مثلما كان رجال المعارضة العراقية يقودون ثورات مشابهة في عالم السياسة والإصلاح الاجتماعي. والحقيقة أن فايق حسن لم يكن النجم الوحيد في هذه الساحة، فإذا كان هو قد انتهل من منبع الفن في باريس، فإن جواد سليم قد تلقى تعليمه في كلية السليد بلندن في فن النحت. وهو الآخر ومنذ البداية اتبع منهج الحداثة والتجريد، كما يتضح من نصب ثورة ١٤ تموز (يوليو) الذي يقف شامخًا الآن أمام ساحة التحرير في بغداد. وكان قبل ذلك قد فاز في لندن بإحدى جوائز مسابقة «السجين السياسي» التي نظمها متحف التيت .

يولي العراقيون احترامًا عميقًا لهذين

الأستاذين الفنانين وأفخر شخصيًا بأنني كنت واحدة من تلاميذهما قبل نزوحي إلى بريطانيا والولايات المتحدة لإكمال تخصصي في فن الرسم. اتجه هذان الفنانان وأنا والكثيرون من زملائي معهما بعد ثورة ١٤ تموز (يوليو) إلى التركيز على الشخصيات والمواضيع المحلية ، والمجتمعات القروية والمساجد والمقاهي الشعبية والنساء الفلاحات . اهتم فايق حسن بصورة خاصة برسم الخيول العربية .

كان من تلامذة جواد سليم فنانان أنجزا الكثير من الأعمال النحتية، ومازالت تماثيلهما شاخصة في بغداد، خالد الرحال ومحمد غني. ارتبط اسم الأول بنصب الجندي المجهول وقوس النصر، في حين اشتهر محمد غني بالنصب البرونزي لشهرزاد وشهريار. الملاحظ في أعمال كلا النحاتين مزجهما للواقعية بالتجريدية. وكل ذلك على عكس الرسام شاكر حسن الذي بدأ مشواره الفني بالانطباعية ومحاكاة سيدهما الفنان الفرنسي الشهير الذي لقبه بيكاسو



بقوله "إنه أبونا جميعًا" وأقصد به سيزان. ولكن الفنان العراقي سرعان ما تمرد على هذا الفن بوقع تأثره بالتصوف الإسلامي فأخذ يرسم اللوحات التجريدية الصرفة التي تردد أصداء المشاعر الصوفية. وأخذ عنه هذا المنحى رسام آخر هو هاني مزهر الذي حاول أن ينقل أفكار الحلاج ويترجمها بلغة اللون والشكل.

على عكس هذا الاتجاه الديني، ذهب محمود صبري مذهبًا ثوريًا ماركسيًا، فترك أعمالاً تميزت بروح الوثبة والانتفاض والتحررأعطتها ألوانها الصارخة بالأحمر والأسود الدرامائي. ولعل لوحته الكبيرة عن الثورة الجزائرية تعبر خير تعبير عن نزعته اليسارية التي نقلته في الأخير إلى تشيكوسلوفاكيا الشيوعية التي تحولت إلى وطن ثان له وانطمر، وضاع فيها مع الأسف. على عكس محمود صبري، هاجر الرسام اليساري الآخر فيصل لعيبي، من مسقط رأسه البصرة ، إلى بغداد ثم عاصمة الإمبراطورية الرأسمالية لندن، وأصدر فيها جريدته الكاريكاتيرية الساخرة "المجرشة" وهو رسام يتمتع بمقدرة أكاديمية كبيرة في رسم الأشخاص مكنته من توظيفها في الرسم الكاريكاتيري. وكفنان يساري حصر رسومه في المواضيع والشخصيات الشعبية والسخرية من الروح العسكرية. ما أن لاحظت دار نشر اليوت اند تومسن البريطانية إحدى لوحاته حتى سارعت إلى استخدامها غلافًا لرواية خالد القشطيني الصادرة بالإنجليزية " غدًا يوم آخر". والواقع أن المؤلف كان بحد ذاته من رواد الحركة التشكيلية، وتتلمذ على فايق حسن، ولكن نزوحه إلى بريطانيا جعله ينغمر بالسياسة والأدب ويتخلى عن ميدان الرسم.

تأثر معظم الفنانين العراقيين بتراث بلادهم الغني. النحات خالد الرحال استوحى في بعض منحوتاته تماثيل آشور وبابل. ولكن التأثير الكبير جاء من الفن الإسلامي والأدب العربي. النحات محمد غني استوحى أساطير ألف ليلة وليلة. وكذا فعل فيصل لعيبي.

فاضل العزاوي رسم سلسلة من اللوحات تمثل المعلقات العشر. سعاد العطار أيضًا نقلت أجواء ألف ليلة وليلة في لوحاتها الكبيرة. وهي واحدة من مجموعة من الفتيات اللواتي توجهن إلى الفنون التشكيلية، كنزيهة سليم ونهى الراضي وليلى العطار . ومادمنا في صدد ذكر المبدعات العراقيات ، فلا بد من الإشارة إلى المعمارية زهى حديد التي وصلت قمة الفن المعماري على المستوى العالمي، وتقف أعمالها الآن في الكثير من المدن

الرئيسة في أوربا، وتذهل النقاد بحداثتها البارعة. وتعتز زهى بفوزها بالجوائز الأولى في الكثير من المسابقات المعمارية في العالم.

و في هذا السياق التراثي أيضًا، أخذت الحروفية مكانها في أعمال البعض. وكان بينهم من حول خط الفن العربي إلى فن تشكيلي محض كالخطاطين المبدعين، عبد الغني العاني ومحمد سعيد الصكار المقيمين في باريس.

بالاضافة إلى التراث القديم، تأثرت المدرسة العراقية بالفكر الاشتراكى فركز الكثيرون منهم على المواضيع الشعبية والروح الثورية. أنا شخصيًا استهواني جمال الفلاحات العراقيات، فجعلتهن موضوعًا لي في معظم لوحاتي الأخيرة، أرسمهن أمام خلفية الريف العراقي بنخيله وخضرته. فاضل العزاوي الذي تأثر كثيرًا بأستاذه جواد سليم، بدأ مسيرته الفنية بالمواضيع الشعبية، ولكنه انتقل في السنوات الأخيرة إلى التجريديات والحروفيات بألوانها القوية الزاهية.

بانتقال هذه النخبة من الفنانين، فاضل العزاوي وفيصل لعيبي وسعاد العطار، واستقرارهم في لندن، استطاعوا أن يخترقوا ميادين الفن العالمي فأصبحت أعمالهم تباع بأسعار خيالية، وتحتل مساحات كبيرة في المتاحف، وصالونات المجموعات الشخصية، يعتز بها ويتباهى المتذوقون. ورحل معهم الكثير من الفنانين التشكيليين الآخرين. من بقي منهم في العراق اقتضى عليه أن يكسب لقمة عيشه من رسم صدام حسين ونحت تماثيله.

تساءل الكثير من المراسلين والمراقبين الغربيين عن سر ازدهار الفنون التشكيلية في العراق، وتحول بغداد إلى عاصمة للفن العربي. كيف ولماذا حدث ذلك ؟

عزا البعض هذه الظاهرة إلى القمع السياسي للفكر. لم يبق للنخبة الشابة غير الفن التشكيلي لممارسة هواياتهم الفنية، والتعبير عن أفكارهم والتنفيس عن مشاعرهم. يتضح ذلك من حكاية معهد الفنون الجميلة الذي تأسس عام ١٩٣٦م، وأكاديمية الفنون الجميلة فيما بعد. فالدور الذي أدته كلتا المؤسستين تجاوز ميدان الفن وامتد إلى عوالم الأدب والفكر عمومًا. ففي غياب النوادي والجمعيات والعنصر النسائي من الحياة العامة، أصبح معهد الفنون الجميلة الذي اتبع سياسة التعليم المختلط، وهرعت إليه الكثيرات من عاشقات الفن، الرسم أو النحت أو الخزف أو الموسيقا والمسرح، ليمارسن هواياتهن ونزعاتهن الفنية، ملاذًا لسائر المثقفين. وحولهن التف



أساتذة قضوا سنين طويلة من حياتهم في روما وباريس ولندن، واعتادوا على الحياة الغربية وممارساتها. كان من المألوف أن تنتهي دروس الرسم أحيانًا بأمسية موسيقية من أعمال بتهوفن أو برامز أو ستراوس وسواهم ثم تكون هناك شروح لهذه الأعمال أو قراءات من الشعر والأدب الحديث. أخذ بعض هذه النشاطات ينتقل إلى البيوت. ما إن يحل موسم الربيع حتى ينظم الأساتذة رحلات مختلطة لقضاء يوم الجمعة في بساتين الجادرية، نرسم ونتناقش ونتبادل الآراء والأخبار الفنية، ونستمع إلى الموسيقا على الفونوغراف. أحيانًا رحنا نرقص التانغو أو الرومبا أوالفالس. أصبح معهد الفنون بحديقته الغناء بمنزلة النادي الثقافي. فراح الآخرون من غير التلاميذ يتقاطرون عليه، ويختلطون بالتلاميذ والتلميذات. كثيرًا ما تطورت منها علاقات غرامية أدى بعضها إلى الزواج في الأخير. هكذا التقى الشاعر بلند الحيدري شريكة حياته الخزّافة دلال المفتي.

لم يكن هناك مجال آخر للنخبة المثقفة غير ارتياد معهد الفنون، وحضور المعارض الفنية والكتابة عن الفن. ولكن هذا سبب واحد من الأسباب التي أدت إلى هذه الثورة الفنية التي تفجرت في العراق، وكان لي الشرف في أن أشهدها وأنتمي إليها ■

شاعر العراق في القرن العشرين . .محمد الجواهري :

لاتعجبوا أن القوافي حزينةٌ
فكل بلادي في ثياب حداد!

ابراهيم مضواح الألمعي ـ عسير



كثُرٌ هم الشعراءُ الذين ارتبطتْ أسماؤهم ببلدانهم حتى أصبحتْ مرادفاتٍ لها أو كالمرادفات، ومن أولئك الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري الذي اختزل الوجود والحياة وأسبابها في العراق جمالاً وجلالاً، أرضاً وإنساناً، عشقًا وعتابًا وشكوى، أسىً، وأشجانًا، دجلة ورصافة وفراتًا، فسكنتْ تلك الحياةُ المنشودةُ وعيه، وقضى عمره الذي امتد موازيًا للقرن العشرين (١٩٠٠م- ١٩٩٧م) يتغنى بعراق الأحلام، وينشد له العزة والحرية والعدالة والمساواة، والرقي، وهو يرى أنما ينشد ذلك لنفسه، فما الجواهري إلا العراق!

أنا «العراقُ » لساني قلبه، ودمي
فــراتُه، وكـيــاني منه أشطارُ

لم يكن العراق عند الجواهري خريطة صماء، بل هو شعبٌ وأرض، سلمٌ وحرب، رخاء وشدة، فكان الجواهري لكلّ ذلك لسانًا ناطقًا بأحلام وأشجان وانكسارات العراق، وقد كلَّفته هذه الوظيفة - التي ارتضاها لنفسه - حريته، ومستقره في وطنه، وأهله، وكلَّفته غربة ومنفى، وكلَّفته جنسيته العراقية التي نُزعت منه، وكلفته أنْ مات بعيدًا عن دجلة والفرات، وكلَّفته أنَّ كفنَه لم يُنسجْ من شراعِ القاربِ الذي رآه على صفحةِ دجلةَ يومًا فقال :

وأنتَ يا قـــاربًا تَلْوي الرياحُ بهِ
لَيَّ النسـائم أطرافَ الأفـانينِ
وددتُ ذاك الشِـراعَ الرَّخْصَ لو كـفني
يُحـاكُ منه غـداةَ البَين يَطويني

وقد ارتضى الجواهري هذه الوظيفة، وعرف نفسه بها، وعرفه الناس كذلك حتى أصبح يزن أفعاله وأقواله، وقبل ذلك نواياه بآلام وآمال العراق وأهله:

أنا لسـانُ الشـعبِ كلُّ بليّةٍ
تأتيـه أحـملُ ثقلَهـا وأصـوّرُ
وإذا تفطَّرَ من فـؤادي جـانبٌ
حـدَبَتْ عليَّ قلوبُه تتـفطَّر
وكـأنَّ منهـا حين أنوي نيَّةً
رَصَـداً يطوّقُني وحين أُفكّرُ

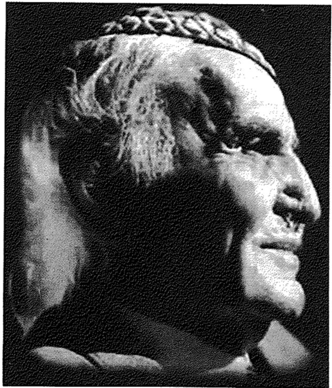
هكذا كان الجواهري الصورة الناطقة لبلاده، تقرأ في سيرته وشعره وتضاريس وجهه المجعَّد، وطاقيته المطرَّزة، أحزانها الكثيرة، وأشجانها المتصلة، ومجدها وعزة أهلها، ولقد آلى على نفسه أن يكون حرًا صادقًا في رسالته:

أسـاتذتي لا تُوحِـدوني فـإنَّني
بوادٍ وكلُّ الشـاعـرين بوادي

لا تعجبوا أنَّ القوافي حزينةٌ
فكلُّ بلادي في ثيابِ حدادِ!
وما الشعرُ إلا صفحةٌ من شَقائها
وما أنا إلا صورةٌ لبلادي
وما أنا بالحرّ الذي ينعتونه
إذا لم يكن في راحتَيَّ قيادي
إلى اليوم في بغدادَ خنقُ صراحةٍ
وتعذيبُ آلافٍ لأجل أحادِ

وبدأتْ مع الجواهري آمالُه ومطامحُه الكبيرة منذ كان في مطلع عشرينياته، فعقد آماله على جيله الناشئ مَن لِداتِه، وكان الأملُ يحدوه، والبشائرُ تداعبُ خيالَه الفتيّ:

تُحدّثُ أوضاعُ العراقِ بنهضةٍ
تُرددُها أسواقُه والشوارعُ
وصرخة أغيارٍ لإنهاض شعبهم
وإنعاشه تصطكُ فيها المسامعُ



لنا فيك يا نشء العراقِ رغائبُ
أيسعفُ فيها دهرُنا أم يُمانعُ؟

وبرغم التشريد الذي تعرض له الجواهري، وبرغم المنافي، وبرغم السنوات الستين، بقي أملُ الجواهري معقودًا على الشباب، فيطالبهم بتوحيد صفّهم لرفعة وطنهم، فهم الأشقاءُ،والعراقُ لهم أب وأم:

قفْ بين دجلةَ والفراتِ وصِحْ ليسْمَعْكَ الأصمُّ
إيهٍ شبابَ الرافدين وأنتُمُ الشّرفُ الأتمُّ
يا فتيةَ الوطنِ الفتيّ أنوفُهم كعُلاه شُمُّ
فيمَ التفرُّقُ مِخولٌ في الثأرِ يرصُدُه مُعِمُّ
أعَلى «المَناسِبِ» والعراقُ أبٌ لكمْ زاكٍ وأمُّ؟

وها هو الشاعر الطموح يرى بلدَه لا يجاوز نكبة إلا لتحطَّ برحاله أخرى، ولا يجاوز مضيقًا إلا لتخنقه مضائق .. فتُمضُّه الشكوى، ويحمّل العراقيين مسؤولية تخريب العراق.

إنَّ العراقَ بما نُحشّدُ ضدَّه ونؤلّب
بيتٌ على يدِ أهله مِمَّا جَنَوا يَتخرَّبُ

ويشكو قسوة المتنفذين عليه وعلى العراق، وحصارهم له، وغدرهم واضطهادهم، ويتفلَّت الأمل من بين يديه، وفي لحظات يتسربُ اليأس إلى نفسه، وتحتَ تأثير مواقفَ متتابعة يضيق ذرعًا بمقامه في عِرَاقِه، باحثًا عن مساحة من الحرية، والأمن، ترى كم تلك المساحة التي يرجوها الجواهري؟ لقد عزَّ عليه أن يجد في العراق موضعاً خالياً من الغدر والحصار:

ذممتُ مقامي في العراق وعلّني
سأحمدُ لو أسريتُ عن أرضِه المسرى
لَعلّيَ أرى شِبْرًا من الغدر خاليًا
كفاني اضطهادًا أنّني طالبٌ شبرا

ألا ما أمرَّ الجحود! وما أشجى الذين يبذلون فيُقابلُ بذلُهم نكرانًا! وإزاء ذلك النكران يحتكمُ الجواهريُّ إلى شاعرين يراهما جديرين بالعدل، ويرضى حكمهما، وينزل على قضائهما له أو عليه، ويبثهما شكواه، معتذرًا إليهما، فذلةٌ أن يشتكي الجواهري عِرَاقَه:

«شوقي وحافظ» لا يَجُسُّ سواكما
نَبْضَ القريضِ وما له من واقِ

لكما الخِيارُ إذا الرجال تنافسوا
أو حرَّروا دعوى بلا مِصداقِ
أن تقتلا أو تُحرقا متشاعرا
أو تقطعا يد شاعر سرَّاقِ
هل تحكمانِ اليومَ حكمًا عادلاً
خِلوًا من الإرهابِ والإشفاقِ
في شاعرٍ لزم البُيوت وأخفقتْ
منه المآربُ أيما إخفاقِ!
لكما شكا ظلمَ العراقِ، وذلةٌ
أن يشتكي ظلمَ العراقِ عراقي
أهدَى سوايَ نفيسَه، وأنا الذي
أُهدي إليه نفائسَ الأعلاقِ

وفي نفثةِ مصدور يبثُّ شكايته، وظلامته، وجحود ذوي القربى، وعتبه على بلاده التي محضها الحبَّ فكان جزاؤه أن يمسي طريدًا شريداً، لا يؤبه لعزته ونبوغه، ويهدد الحبيبة (بغداد) بأن التاريخ لن ينسى ظلمَها مُحبيها:

لي عتابٌ على بلادي شديدٌ
وعلى الأقربينَ جدُّ شديدِ
أفصقرٌ طريدةٌ لغرابٍ ؟!
ونبيغٌ ضحيةٌ لبليدِ؟!
يا لبغدادَ حين ينتصف التأ..
ريخ من كلّ ناكرٍ جحودِ
جَحَدَتْه فعاشَ أيَّ ضنكٍ!
ورَمتْه فعاشَ أيَّ طريدِ!

وفي شكوى ساخرةٍ، يخبرُنا الجواهريُّ بعطايا العراقِ له، ويذكر في أسلوب ساخر أيضًا عجزَه عن ردّ تلك الأيادي التي حباه إياها العراق:

حباني العراق السمحُ أحسنَ ما حبا
به شاعرًا للحق والعدل داعيا!!
رجاءً كما استمطرتَ في الصيفِ مزنةً
وعيشًا كما أسأرتَ في الكأس باقيا
وعيشًا إذا استعرضته قلت عنده
«كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا»
وواعدني بعد المماتِ احتفاءةً
يجوّدُ فيها المُنشدون المراثيا
وحَفْلاً تَرَى فيه أكُفًا تعجّلتْ
ظِمائيَ تستسقي عليَّ الغواديا

■ وفي براغ تشتد لوعة المفارق ، فلا يحط رحاله فيها إلا وينفثُ من صدرِه عبقريتَه يا «دجلة الخير» وأيُّ حديثٍ عن تلك القصيدة يغني عن قراءتها ، ناهيك من سماعها بنبض قائلها ■

وتلك يدٌ أعيا لساني وفاؤها
فأوصيتُ أولادي بها وعياليا!!

وهذه الشكوى تذكرنا بشكوى (القاضي عبد الوهاب المالكي المتوفى، سنة٤٢٢هـ) الذي خرج من بغداد فشيعه أهلها باكين عليه، فنهاهم عن البكاء، قائلاً : لا تبكوا يا أهل بغداد فوالله لو وجدت عندكم قُوتَ يومي ما تركتكم . وله في بغداد البيتان المشهوران:

بغداد دارٌ لأهلِ المالِ طيبة
وللمفاليس دارُ الضنكِ والضيقِ
ظللتُ حيرانَ أمشي في أزقتها
كأنني مصحفٌ في بيت زنديقِ

فهل هذه خصيصةٌ اختُصتْ بها بغدادُ؟ أم أن كل مدن الأرض في ذلك بغداد؟!

وبرغم شكوى الجواهري، فقد كان يعزُّ عليه أن يفارقَ بغداده وعراقه،ولا يحتمل البعد عنها لقضاء شهور الصيف في إيران أو لبنان، ولنقرأ قوله عندما كان يقضي صيف سنة ١٩٢٤م في إيران:

ألا هل تعودُ الدار بعد تشتُّتٍ
ويُجمع هذا الشملُ بعدَ تفُّرقِ
وهل ننتشي ريحَ العراقِ وهل لنا
سبيلٌ إلى ماءِ الفرات المصفّقِ

إنه يعدُّ شهورًا يقضيها في المصيف شتاتًا للشمل الجميع، ويتمنى العودة وبوسعه ذلك:

أحـبـابَنا بين مَـجـاني العـراق
كلَّفــتمُ قلبيَ مـــا لايُطاقْ
العـيشُ مـرٌّ طعـمُـه بعـدَكم
وكـيف لا والبـعــدُ مــرُّ المذاقْ
يـكفــيكم من لوعــتي أنني
في فــارس اشــتـاق قطر العــراقْ

وإذا كـــانت هذه حـــاله في رحـــلات الاستـجـمام، فلنا أن نتـصـور مدى الأسى الذي اعتلجت به نفس الجواهري عندما تمّر الأيام فيمسي بعيدًا عن الأرض التي أحبها، وعشقها، وناضل من أجل تحريرها،فلا يراها إلا في خيالاته وذكرياته، وما يبلغه في مغتربه من أخبارها، فيحاول أن يُمسكَ بتلك الصور ويضمها إلى صدره، فلا يجد إلى ذلك سبيلاً فـيرسـمـهـا بشـعـره لوحـةً، ويطبع ألوانهـا بدموعه، وبعتاب المحبين يشكو بغداد، يشكو بغداد التي أبعدته، ودرّتْ لغيره بضروع غزار اللبن، واصطفت مكان تغريد الكنار أصوات البوم:

ياغريبَ الدار لم تَكفَلْ له الأوطانُ دارا
يا لبغدادَ من التاريخ هُزءاً واحتقارا
عندما يرفع عن ضيـم أنالتهُ الستارا
حـلأته ومَرَتْ للوغد أخـلافـاً غـزارا

واصـطـفـتْ بـومـــــــــــاً وأجـلَّـتْ
عـن ضِـــفـــافَـــيــهـــا كنارا

وتمـضـي عليـــه في (براغ) ســبـع سنين عـجـاف،ويحـاول سلوان العـراق،وأين هو والسلوان، ويغـادره الشـبـاب، ويسـتـبد به الشـوق إلى العـراق فـينفث إحـدى نفـثـاته المحزونات «من بريد الغـربة» يصور من خلالها شوقه للعراق، وحنينه إليه، وهو يسـيـر مع القـرن خطوة بخطوة، وثمّ يزداد شـوقـه برغم مـا يلقـاه في العراق من ضنك، ولا عـجب فـهي تربته وأرضه التي تحلو برغم جفائها:

ســـهـــرتُ وطالَ شــوقي للعـــراقِ
وهلْ يدنو بـعـيــدٌ باشــتــيـــاقِ
وهـل يُدنيكَ أنكَ غـيــر ســالٍ
هـواكَ وأنَّ جــفنَكَ غـيــرُ راقي
ومـــــا لـيـلي هـنـا أرِقٌ لَـديـغٌ
ولا ليـلي هـنـاكَ بســحـــر راقيِ
ولكنْ تُربةٌ تَجـفــــو وتَـحــلو
كـــمـــا حلَتِ المعـــاطنُ للنيــاقِ

ويقـضي الجواهري بقيه سنوات عمره، بين منفىً وآخر، ولا يعـود إلى العـراق إلا لمامًـا،ثم لا يلبث أن يُغـادرها تحت وطأة واقع جديد، ومرحلة لا يحـتمل العـراق فيهـا ابن الفـرات/أبا فرات الذي طالما تغنى بالعـراق، وخص بأغـانيه بغـداد، ودجلتـها وفراتهـا، ورصافتها، وهو الذي قال في مطلع شبابه:

صـبـوتُ إلى أرض «العـراق » وبَرْدها
إذا مــا تـصــابى ذو الهــوى لِرُبى نجــدِ
سـلامٌ على أرض «الرّصـافـة» إنهـا
مَــراحُ ذوي الشكوى وسلوى ذوي الوجـدِ
لهـا الله مـا أبهى ودجلةُ حـولَهـا
تَلِفُّ كـمـا التفَّ السـوارُ على الزندِ!

وهو الذي صورها في أجمل اللوحات الشعرية، في مقصورته الشهيرة، التي منها:

ســلامٌ على هضــبـــاتِ العـــراقِ
وشطَّيـــهِ والجُــرْفِ والـمُنحنى
على النخل ذي السَّـعَـفـاتِ الطوالِ
على سـيّـد الشـجـرِ المُـقـتنى
ودجلةَ تمشي على هَوْنِهـــا
وتمشي رُخــاءً عليــهـا الصَّـبــا

وبرغـم كلّ هذا الشـغـف بـالعـراق، وتـلك التـضـحيـات والأحـلام، تسـتـمرُّ اغـترابـاتُ الجواهري، وتتعدَّد منافيه، وتُسقط جنسيتُه العـراقـيـة، ويموت أبو فـرات بعـيـدًا عن دجلة والفرات

على الجسر ما انفكَّ من جانبيه
يُتيحُ الهوى من عيونِ المها
سلامٌ على بلدٍ صُنتُه
وإيايَ من جفوةٍ أو قِلى
كلانا يُكابدُ مرَّ الفراق
على كبدينا ولذعَ النَّوى

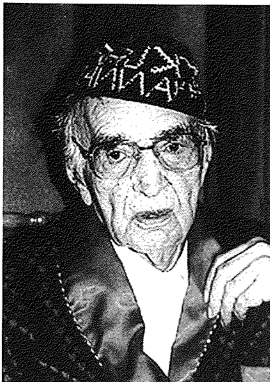
وفي براغ تشتد لوعة المفارق، فلا يحط رحاله فيها إلا وينفثُ من صدره عبقريتَه يا «دجلة الخير» وأيُّ حديثٍ عن تلك القصيدة يغني عن قراءتها، ناهيك من سماعها بنبض قائلها، ودموع الحنين تسير سراعًا على خدّه المجعَّد:

حَيّيتُ سفحكِ عن بُعدٍ فحييّني
يا دجلةَ الخير، يا أم البساتينِ
حييتُ سفحكِ ظمآنًا ألوذُ به
لوذَ الحمائم بين الماءِ والطينِ
يا دجلة الخير يا نبعًا أُفارقه
على الكراهةِ بين الحين والحينِ!
إني وردتُ عيونَ الماءِ صافيةً
نبعًا فنبعًا فما كانتْ لتَرْويني!
يا دجلةَ الخير ما يُغليك من حنَقٍ
يُغلي فؤادي، وما يشجيك يشجيني
يا دجلةَ الخيرِ : أدري بالذي طفحتْ
به مجاريكِ من فوقٍ إلى دونِ
أدري على أيّ قيثارٍ قد انفجرتْ
أنغامُكِ السُّمرُ عن أنّاتِ محزونِ

إنه الشاعر نفسه الذي ناجى دجلة في العشرينيات، وهو إذ ذاك يقتعد ضفافها يبثها حبه وشكواه، ويطمئنها أنهم إن تمكنوا من لسانه فما لهم إلى ضميره من سبيل:

أدجلةُ إنَّ في العبراتِ نطقًا
يحيِّرُ في بلاغته العقولا
فإنْ منعوا لساني عن مقالٍ
فما منعوا ضميري أن يقولا
خذي سجعَ الحمامِ فذاك شعرٌ
نظمناه فرتِّلَهُ هديلا

إنه هو نفسه الجواهري الذي يحنُّ للعراق وهو في العراق، فينشد في عشرينيات القرن وعشرينياته :



يا نسمة الريح مِن بين الرياحِين
حيي الرُّصافة عني ثم حَيّيني
ولي إلى الكرخ مِن غريبّها طَرَبٌ
يكادُ من هِزَّةٍ للكرخ يَرميني
حيثُ الضفافُ عليه النخلُ مَتسقٌ
تنظيمُ أبياتِ شعرٍ جدّ موزونِ

وهو الذي قال في ثلاثينياته:

أحبابَنا بين الفُرات تمتَّعوا
بالعيش بين مياهه ونخيلهِ
وتذكَّروا كَلَفَ امرئٍ مُتشوّقٍ
منزوفِ صبرٍ بالفراق، قتيلهِ
بلدٌ تساوى الحسنُ فيه، فليلُهُ
كنهاره، وضحاؤه كأصيلهِ

وبرغم كلّ هذا الشغف بالعراق، وتلك التضحيات والأحلام، تستمرُّ اغتراباتُ الجواهري، وتتعدَّد منافيه، وتُسقط جنسيتُه العراقية، ويموت أبو فرات بعيدًا عن دجلة والفرات، ويجفُّ بموته ثالثُ النهرين العظيمين، فتبكي دجلة والفرات، النهر الكبير محمد مهدي الجواهري، وتتساءل نخلات العراق ذات السعفات الطوال كما تساءل أحد العراقيين يومًا : ترى أية أقدارٍ هذه التي تواجهنا نحن العراقيين؟! ■

الجبوري والمحمودي للفخر والحماسة ،والحديدي والمدمي للتشكي والبهيرزاوي للعتاب الأخوي :

المقام العراقي

حامد السعدي . بريطانيا *



*قارئ وخبير المقام العراقي مقيم ، في المملكة المتحدة .

المقـام **العراقي نمط من الغناء عُرِفَ في بغداد والموصل وكركوك وبعض المدن الكردية على اختـلاف واضح بين قـراء هذه المدن في صياغته وتعاطيه وفي بعض تسمياته، وهو خلاصة ما ورثته مدينة بغداد من غناء عصور ماضية تلاقحت معه أنغام بعض الشعوب الشرقية الوافدة إلى بغداد فصار طابعها المميز لها عن غناء الريف والبادية.**



وكيان هذا النمط من الغناء يظهر في تجمعات نغمية يتحقق تجمعها وتأليفها وفق قواعد وأسس اصطلح عليها أصحاب هذه الصناعة تبدو سليمة المنحى وذات محتوى مستساغ وإطار جامع، وبهذا كثرت تلك التجمعات النغمية فصار لكل منها اسم يعرف به ولكل منها هيئة تحفظ على هيئتها ويتلقنها فريق عن فريق دون تحوير أو تغيير إلا ما يقع أحيانًا من قبل مشاهير المغنين وكبارهم من زيادات نغمية أو تصرفات لفظية يتلقاها المريدون هواة هذا اللون من الغناء وكأنها نماذج لمدرسة «متطورة» في المقام تنسب لأساتذتهم. كان للعرب أيام جاهليتهم وأعني بذلك فترة ما قبل الإسلام ألحان أقرها الإسلام واعترف لها بالجمال والإبداع وإتقان الصنعة، فإنّا رُوينا أن رسول الله ﷺ قال لأبي موسى الأشعري أحد ذوي الأصوات الجميلة من مقرئي القرآن الكريم على عهد رسول الله ﷺ: «لقد استمعت إليك البارحة لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود»، فرد أبو موسى قائلاً: «لو كنت أعلم أنك تستمع إليَّ يا رسول الله لحبرّته لك تحبيرًا».

إن هذا النص يعبر لنا عن التمكين النغمي لدى القوم إبان جاهليتهم وإسلامهم، وكان عبدالله ابن مسعود من مقرئي القرآن المُجيدين على عهد الرسول ﷺ يقول واصفًا قراءته بأنه كان يقرأ القرآن متأنقًا في قراءته وخصوصًا حين يقرأ في الحواميم وهي سبع سور قرآنية وصفها ابن مسعود بأنها روضات دَمِثات، مما نستبين منه أن ابن مسعود كان يجد تألقًا نغميًا في حنجرته يوم يتلو آيات من تلكم السور ومن تابعه في القراءة يرسم لنا

عظمة المجال النغمي الذي كان الرجل يملكه، وكان المحيط يجد نفسه مأخوذًا به، ومن هنا جاء الحديث النبوي القائل: «من أراد أن يقرأ القرآن غضًا كما أُنزل فليقرأ بقراءة ابن أم عبد». أي بقراءة عبدالله ابن مسعود فإنها كانت غضّة وإنما كانت كذلك لتلبسها بلبوس النغم العذب الذي امتاز به الرجل.

وفي العهد الأموي عظم شأن النغم وكثر الأقطاب الكبار من أهل التلاحين والأغاني وتسربت إلى دمشق عاصمة الدولة أنغام من هنا ومن هناك، وقد بات الغناء يومئذ من المعالم الحضارية التي يزداد بها ا لمتأدب شأنًا وقدرًا. وفي العهد العباسي إذ باتت بغداد عاصمة الدولة بلغ النغم أعلى قمم أوجه، وقد اختلطت هنا في بغداد أنغام البادية منذ العهد الجاهلي وأنغام الروم والفرس والهند وما إلى ذلك من الثروات النغمية، فباتت لنا من هذا الأمر ثروة نغمية لم تملكها أمة من قبل من أمم الأرض في المضمار النغمي العظيم، وظل الأمر على هذا المنوال إلى أيام قدوم المغول فاستمع هولاكو التتري نفسه إلى ضروب من اللحن المتوارث أثر في نفسه، وهو ذو نفس خشنة متعسفة فاتكة مدمرة مما نستدل به على شيئين: أحدهما قوة النغم العباسي وشدة تأثيره في النفوس. والشيء الثاني هو أن الشأن النغمي العباسي كان لا يزال متينًا في مكانه لم تضل منه ضالة.

لقد اهتم البغداديون بالأنغام والألحان اهتمامًا كبيرًا وقد طغى هذا الاهتمام على أذواقهم وتغلغل في أغلب تفاصيل حياتهم الاجتماعية ومجالسهم الدينية والأدبية، فبالإضافة إلى كون الغناء ميراثًا شعبيًا فقد كان مطلبًا حضاريًا ارتضته الدولة وزكته وألف فيه أهل العلم وعظماء الفلاسفة، وكان عدد المقرئين في بغداد والمغنين كثيرًا جدًا بحيث يمكن عدّهم بالآلاف، ويذكر أن ابن الجوزي الواعظ كان يجلس بين يديه العدد الكبير من المقرئين يتلو كل واحد منهم ما تيسر من آيات الذكر الحكيم في المجلس الواحد، ولولا كثرة القراء في بغداد هاتيك الأيام كثرة مفرطة لما كان هناك ما يدعو إلى تعدد المقرئين في مجلس وعظ واحد. لذلك ترى لدى مقرئي القرآن في بغداد مزيدًا من الحرص على أدائه بالنغم أداء يظهر فيه التغني بأحلى مظاهره، وقد عرف في مقرئي بغداد هذا الاستعداد العجيب في التلاوة فقد أشار أكثر الذين زاروا بغداد وكتبوا عنها إلى حسن تجويد مقرئي بغداد وروعة أدائهم.

يعتبر غناء المقام العراقي من أبرز الخصائص التي تميز بها المجتمع البغدادي فقد شُغف البغداديون به شغفًا كبيرًا وخدموه خدمة مستديمة وعنوا به أعظم عناية، وهذا يدّل على الحس النغمي لدى القوم، ولو استعرضنا ما يشغله المقام العراقي من حيّز في تفاصيل المجتمع البغدادي الدينية والدنيوية لوجدنا أنه يحتل مساحة واسعة فيه، فبالإضافة إلى مهمته الترفيهية كان حاجة ذات طابع ديني، فالأداءات الدينية تجري بمقتضي مناهج المقامات العراقية وما تحويه من تراكيب وأسس نغمية، فقد كان للنغمة مكانها في مساجد المسلمين، حيث كان على الخطباء أن يتلوا خطبهم المنبرية على مختلف النغمات، وقد شكا العلامة محمود الألوسي أبو الثناء حين عُين خطيبًا في جامع الباجه جي سنة ١٢٣١هـ قال: «ألا إني عددت الخطابة نقمة لأني أجهل خطباء العراق بأصول النغمة والناس اليوم لا يسمعون خطيبًا مالم يكن عندليبًا ولايدخلون مسجدًا مالم يكن خطيبه معبرًا... ومعظم أهل العراق يكرهون الخطب إذا لم يغنوهم بنحو



الحسيني والصبا».

وفي أوقات الصلاة نجد المؤذن يؤذن بلحن نغمي ظاهر وفي ليالي الجمع وأيامها يقوم المجد على مئذنة الجامع فيتلو شيئًا من الشعر، بالإضافة إلى عبارات وملفوظات تسبيحية يلتزم بها أنغامًا معينة، وكانت وظيفة التمجيد تناط بكبار المغنين، فقد كان أحمد زيدان ممجدًا في جامع منورة خاتون، وحمد بن جاسم المشهور بـ«أبو حميد» ممجدًا في جامع الخاصكي، وحسن الشكرجي ممجدًا في جامع المرادية، ونجم الشيخلي ممجدًا في الحضرة القادرية.

وفي حلقات الأذكار الصوفية لابد من أن يكون للأنغام سلطان، والأذكار المعروفة في بغداد أربعة وهي الذكر الرفاعي والقادري والبغدادي والمصري وفي كل منها مادة واسعة من المقام العراقي، ومثل ذلك يقال في التهليلة وتتم بأن يقف الصوفيون على شكل دائرة «حلقة» ويبلغ تعدادهم أكثر من خمسة وعشرين رجلاً وقد يصل العدد إلى الأربعين ويقوم هؤلاء بترديد أسماء الله الحسنى بأصوات منسجمة وأوزان خاصة وينبعث من بينهم قارئ مقام ينشد قصائد لشعراء صوفيين بمقامات متعارف عليها.

أما المولد النبوي فيقام في المناسبات المفرحة والمحزنة وتستعمل الدفوف في المناسبات المفرحة فقط. يتقوّم المولد النبوي من أربعة فصول وهناك استراحة بين كل فصل وآخر، ولكل فصل جملة من المقامات تقرأ فيه لا يجمعها نغم واحد فهي من أنغام مختلفة ولكنها نسقت تنسيقًا فنيًا داخل الفصل الواحد، وقد وضعوا لهذه الفصول أناشيد ملحنة على مقتضى النسق النغمي المقرر للفصول تساعدهم على الانتقال من نغم إلى آخر وتوفر استراحة لكل من الشيخ الذي يترأس المولد النبوي، ولقارئ المقام المشارك معه، وتضفي على جو المولد نفحات صوفية تسمى عندهم بالأشغال. أما في الجانب الدنيوي الترفيهي فإن المقام العراقي كان المؤنس والمسلي للبغداديين في أفراحهم ومجالسهم، وكانت المقاهي في بغداد تحتضن قراء المقام العراقي وأجواق الجالغي البغدادي[1] في مواسم معتادة وفي ليالي شهر رمضان، يُغنى المقام فيها على شكل فصول غنائية يحتوي كل فصل على جملة من المقامات والأغاني، وقد اختص كل قارئ مقام من الرواد بمقهى خاص يغني فيه، وكان لهذه المقاهي دور كبير في تعلم كثير من قراء المقام أصول وقواعد غناء المقامات العراقية، وتعتبر هذه المقاهي مدارس لتعليم هذا الفن، حيث يتلقى المستمعون والمتتبعون لهذا المغني أو ذاك طريقته في الأداء فيلازمونه ويؤمنون بفنه ويتشيع كل فريق من هؤلاء إلى مغن مشهور يفضلونه ويلاحقونه حيثما ذهب.

لذلك ترى لدى مقرئي القرآن في بغداد مزيدًا من الحرص على أدائه بالنغم أداء يظهر فيه التغني بأحلى مظاهره، وقد عرف في مقرئي بغداد هذا الاستعداد العجيب في التلاوة فقد أشار أكثر الذين زاروا بغداد وكتبوا عنها إلى حسن تجويد مقرئي بغداد وروعة أدائهم.

لقد كان لقراء المقام العراقي دور الريادة في الحفاظ على هذا الفن وديمومته فقد تناقلوه شفاهًا جيلاً عن جيل وهم بذلك قد حفظوا أعظم ثروة نغمية تتصل اتصالاً وثيقًا بتاريخ مدينة بغداد بكل مافيه.

والملاحظ على قراء المقام أنهم من طبقات اجتماعية مختلفة ومن قوميات وأديان مختلفة، ففيهم العلماء والأدباء والوجهاء، وفيهم ذوو الصناعات الوضعية، وفيهم اليهود والنصارى والمسلمون، وفيهم العرب والأكراد والأتراك والعجم والأرمن، ولكن كل هؤلاء كان يجمعهم حب هذا الفن والمحافظة عليه بمزيد من الحرص والرعاية فكان منهم المغني المحترف وكان منهم الخبير المطلع، وعلى رغم ما يغلب على كثير من قراء المقام العراقي القدماء من الأمية فقد عرفت فيهم خصائص حرية بالإعجاب فهم يتقنون ضبط الطبقات الصوتية إتقانًا عجيبًا يعتمدون فيه على الموهبة لاغير، وأنهم لينتبهون بسهولة ظاهرة لمن يخرج عليها ويجدون ذلك من أسوأ العيوب التي لا تغتفر في هيئة الغناء، وليس حفظ عشرات الأنغام وضبط تركيبها في المقام بالأمر اليسير ولكن قراء المقام جاؤوا في هذا المضمار بالمضمرات السوابق وقد امتازوا بقدرتهم على أداء المقامات بكل تفاصيلها دون

الاعتماد على الآلة الموسيقية وهذا ما نراه واضحًا في الأداءات الدينية.

ومن اللافت للنظر أن بعض قراء المقام كانوا من ممارسي ألعاب القوة وقد استطاعوا إدخال غناء بعض المقامات في حلبات الزورخانة[٣] - وهي محلات خاصة بالمصارعة وأداء التمارين الرياضية - وتتم التمارين في حلبات الزورخانة وفق أصول معينة وأنغام وأوزان إيقاعية خاصة، حيث يوجد رجل يسمونه المرشد يضبط للمصارعين الإيقاع على دينك كبير في يده ويغني لهم ما يلائم ألعابهم من الأنغام المنشطة للهمم والعزائم؛ لذلك كان المصارعون لا يتحركون حركاتهم الفنية إلا على نقرات المرشد وألحانه، وهي من الألعاب التي تضفي على ممارسيها سمات القوة والانضباط.

أما الحديث عن المقامات العراقية كوحدة غنائية وموسيقية والأصول والقواعد المتبعة في غنائها فلا تسعه هذه الدراسة الموجزة ولكني سأستعرض وبشكل موجز أقسامها وأبرز ملامحها.

فالمقامات العراقية: هي مؤلفات غنائية وموسيقية منسجمة ومترابطة مع بعضها البعض تمتاز بتكامل بنائها النغمي وبحسن صياغتها وسبك قطعها وأوصالها، لها قواعد ثابتة لانتقال قارئ المقام من نغم إلى آخر دون الخروج عن الصيغ التقليدية، لها ابتداء يسمى التحرير أو البدوة، وانتهاء يسمى التسليم وما بين التحرير والتسليم مجموعة من الجوابات والقراءات والقطع والأوصال يؤديها قارئ المقام بانسجام تام مع الآلات الموسيقية التقليدية وهذا ما تعارف عليه أهل المقام العراقي.

تنقسم المقامات العراقية من ناحية الأداء اللفظي إلى قسمين:

* مقامات تقرأ بالشعر العربي الفصيح وعددها (٢٩) مقامًا.

* مقامات تقرأ بالشعر العامي العراقي (زهيري) وهو موال منظوم على نمط خاص يتكون من سبعة أشطر، وعدد هذه المقامات (٢٥) مقامًا.

وتنقسم المقامات العراقية من حيث مكوناتها النغمية إلى قسمين:

* مقامات بسيطة تتألف من نغمات محدودة هيّنة التلاقي، لذلك كانت من أوائل ما يقبل عليه ممارسو الغناء، ومن هذه المقامات (الحكيمي، الحويزاوي، الشرقي رست، الأوشار..).

* مقامات مركبة تتألف من مجموعات نغمية كثيرة بالإضافة إلى أن قواعدها وأصولها وصياغتها ليست مطواعة لكل ناعر ينعر بصوته، فهي تتطلب سيطرة مؤفقة على النغم وقدرة متمكنة من الأداء ونفسًا طويلاً وجرسًا ضخمًا يسعف القارئ حين يتقلب بين الطبقات الصوتية صعودًا ونزولاً وحين يتنقل بين مجال الأنغام فصلاً ووصلاً، ومن هذه المقامات (البيات، الرست، السيكاه، الحجاز ديوان، النوى، الإبراهيمي..).

وتنقسم المقامات العراقية من حيث ما يكون لها من الحسن النغمي في النفوس إلى عدة أقسام:

* مقامات شجية وهي ضروب، منها ما يكون ظاهرة الشجا شديد الأثر في النفس كمقام المدمي والحديدي والمخالف واللامي، ومنها ما يكون هادئًا ليّنًا كالصبا والمنصوري.

* مقامات ذات مستوى عال من الوقار والفخامة كالبيات والرست والنوى والإبراهيمي.

* مقامات تطغى عليها الخفة ويكون لها في النفس انتشاء ظاهر كالحليلاوي والراشدي والأرواح والطاهر.

* مقامات تبعث في النفس الاسترخاء والاستقرار ومنها القزاز والسعيدي والبختيار.

والملاحظ على قراء المقام أنهم من طبقات اجتماعية مختلفة ومن قوميات وأديان مختلفة، ففيهم العلماء والأدباء والوجهاء، وفيهم ذوو الصناعات الوضعية، وفيهم اليهود والنصارى والمسلمون، وفيهم العرب والأكراد والأتراك والعجم والأرمن

وكذلك لوحظت في بعض المقامات اختصاصات ثابتة فالجبوري والمحمودي للفخر، والحماسة والخلوتي لبعض المناسبات الروحية والتعبدية، والحديدي والمدمي للتشكي، والبهيرزاوي للعتاب الأخوي، وبذلك يتأكد خطأ من ظن أن المقامات العراقية يجمعها إطار واحد من الشجن والحزن العميق.

أما القول عن أصل المقامات العراقية ومنشئها الأول فإن اسمها ونسبتها يدلان على ذلك فهي عراقية من صميم ما تركته الحضارة النغمية في العراق منذ عهد العباسيين، وما قيل من أن بعض الأسماء الفارسية والتركية فيها تدعو إلى التشكيك في صحة كونها عراقية بحتة فإن ذلك لاعبرة له فالموازين النغمية والأسماء التي يسميها من شاء لا تؤدي إلى تحوير طبائع المسميات، ومن ادعى كون المقامات العراقية تركية المنشأ وأن الأتراك العثمانيين جاؤوا بها إبان حكمهم العراق لا يقوم عليه دليل لأن الأتراك أنفسهم لا علم لهم بما في المقامات العراقية من عمق ومن تفصيل، وهم كذلك حكموا كثيرًا من الأنحاء والأرجاء فما تركوا فيها شيئًا يشبه هذه المقامات فهم حكموا مصر وتونس واليمن وسوريا والجنوب الغربي من الجزيرة العربية فما وجدنا لما يشبه المقام العراقي أثرًا هناك، وليس من المعقول أن يصطفوا العراق وحده بهذه الثروة النغمية الضخمة دون أن يبقوا لغير العراقيين بقية من ذلك، ولا غرابة أن يأخذ المغنون العراقيون بعض ما استحسنوه واستملحوه من أنغام الشعوب الأخرى فيبدو في بعض ملامح غنائهم مما رأوه منسجمًا الانسجام التام وطبيعة موسيقاهم العريقة. ومن ملاحظة أنماط المقام العراقي نرى أن هناك مقامات وأنغامًا ما تبرح عليها سحنة البداوة العربية كالجبوري والحكيمي، فالمقامات العراقية التي ما تبرح معروفة في بعض الأنحاء المجاورة إن كانت غير عراقية الأصل فلقد باتت بحسن تصرف المغنين العراقيين عراقية بحتة؛ لأنها لعبت بها حناجرهم فأزالت عجمتها، هذا إذا لم تكن تلك الأنغام الأعجمية هي نفسها عراقية عربية بلغت أسماع الأعاجم منذ العصور الأولى، إذ كانت بغداد منبع إشعاع حضاري شاسع، والتلاقح النغمي بين الأمم ليس من البدع المستغربة التي تدل على ضياع أصول الأشياء، وهكذا كان المقام العراقي صنع وخلق وأضاف وطوّر وحوّر، وما في هذا ما يفقده حقيقته الثابتة فيجعله في نظر البعض غريبًا عند العراق وليس من أهله.■



هوامش

١- الجالغي البغدادي: هو حفلة تقام ليلاً بمناسبة من مناسبات الأفراح كعرس ونحوه. وجوقة الجالغي البغدادي: الفرقة الموسيقية المصاحبة لقارئ المقام وتتألف من آلات السنطور والجوزة (الكمانة) وآلات الإيقاع.

٢- الزورخانة: كلمة فارسية مكونة من مقطعين (زور) ومعناها القوة و(خانة) محل أو مكان فيكون معناها محل أو مكان القوة.

المصادر

١- كتاب عن المقام العراقي لكاتب هذه السطور معد للطبع قريبًا.

٢- المغنون البغداديون والمقام العراقي للشيخ جلال الحنفي.

المطبخ العراقي

اختر واحدة من أربع «شرائح»

سالم التميمي. رنا الجنابي. بغداد

يتباين النمط الغذائي في المجتمع العراقي اعتمادًا على طبقاته وشرائحه المختلفة، حيث يمكن تمييز اربع شرائح اجتماعية في المجتمع العراقي هم: سكان البدو، والعشائر المتوطنة، وسكان الريف، وسكان المدينة.

يكاد ينحصر غذاء أهل البدو (سكان البادية) الذين يسكنون المناطق الغربية الصحراوية من العراق في مادتين أساسيتين هما: التمر وحليب النوق (الإبل)،ولا يدخل اللحم والخضر والفواكه في غذائهم إلا ما ندر. حيث إن التمر والحليب يكونان غذاء صحيًا ومتكاملاً، أما التمر فيحتوى على نسبة عالية من السكريات تقدر بنحو ٧٠٪ ، وكذلك غناه بفيتامين A وعنصر الحديد وكميات وافرة من الكالسيوم والفسفور وأيضًا يحتوي على كمية قليلة من البروتين ونسبة محدودة من الدهن. وأما الحليب فيحتوي وحده على عناصر الغذاء الكامل جميعها، حيث يمدهم بالبروتين والدهون والسكريات والفيتامينات والأملاح المعدنية الضرورية التي يحتاج إليها الجسم. ولسهولة وبساطة حياتهم وغذائهم فطريقة إعدادهم للطعام سهلة وخالية من أية تعقيدات. والمطبخ بالنسبة لهم موقد للنار خارج الخيمة او داخلها يعد عليه الطعام، ويستعمل للتدفئة في أيام الشتاء القارس. أما سكان العشائر المتوطنة في العراق فيدخل الخبز في غذائهم اليومي، حيث يعدون الخبز في أفران خاصة تسمى (التنور)، وهو فرن يصنع من الطين ويدهن بالطين على الجانبين الداخلي والخارجي. يوقد الحطب والفحم فتتجمع الحرارة الشديدة في الداخل، وعندما يخبز الخبز في التنور تضرب العجينة على الجانب الداخلي للفرن، وعندما تتشكل الفقاقيع التي تستغرق عدة ثوان ينضج الخبز، وليست هناك حاجة لقلب الرغيف. كما يدخل في غذائهم منتوجات حيواناتهم الأليفة الداجنة، كالحليب واللبن الرائب والزبد والدهن والبيض ويعتبر غذاؤهم ذا مصدر حيواني أكثر منه نباتيًا، فلاتشكل الخضراوات والفواكه نسبة تذكر في غذائهم، كذلك فإن استهلاكهم للحوم قليل باستثناء المناطق القريبة من الأنهار والأهوار، حيث يتم اصطياد الأسماك والطيور المائية. وعمومًا فإن هناك مطبخًا بسيطًا يشغل ركنًا بسيطًا في المنزل يعد فيه الطعام، يفتقر إلى الوسائل الحديثة ومستلزماتها، لكنه يفي بالغرض على أدنى متطلباته، أما سكان الريف فيعتمدون في غذائهم على محاصيلهم الزراعية المتنوعة كالحنطة والشعير اللذين يستخدمونهما في صناعة الخبز. ويعد الخبز الأسمر عماد الغذاء اليومي لأهل الريف في العراق، بالإضافة إلى أنواع البقوليات، كالحمص ، والعدس، واللوبيا، والباقلاء، والهرطمان، والرز والماش. حيث تمتاز هذه الأغذية بمحتواها العالي من المواد النشوية، وانخفاض مستوى المواد البروتينية والفيتامينات والأملاح المعدنية، وتعمل منها أطباق شهية من شوربة (حساء) العدس وشوربة الماش ومرقة الباقلاء و مرقة اللوبيا ، إضافة إلى اللحوم والدواجن والبيض والحليب. لذلك يظهر لنا أن سكان الريف هم أفضل في غذائهم، وحصولهم على العناصر الغذائية التي يحتاج إليها الجسم من سكان البدو والعشائر المتوطنة. لذلك نرى أن اهتمامهم بالمطبخ أكثر من حيث تخصيص مكان خاص له يحوي مستلزمات بسيطة أو متوافقة لإعداد الطعام مقارنة بالحديثة. أما سكان المدينة فهم أكثر تطورًا وأكثر اهتمامًا بمطبخهم من الشرائح السكانية السابقة، فتمثل المصادر الحيوانية، كاللحوم والدجاج والأسماك والبيض نسبة عالية مما ينفقه على الغذاء، تأتي بعدها الخضراوات والفواكه والمصادر النباتية، لذلك يعتبره سكان المدينة غذاء متكاملاً بما يحويه من العناصر الغذائية، وبما يوفره للجسم من صحة وسلامة.

والغذاء ظاهرة اجتماعية بقدر ماهي غذائية، فالمواد الغذائية التي تستهلك في كل مجتمع وطريقة تحضيرها وتناولها وتأثير التقاليد والمناسبات والشعائر تعكس القيم الثقافية السائدة في المجتمع. والمطبخ العراقي يمتاز بطابع خاص جعله فريدًا من نوعه في المطبخ العالمي.

وتعتبر اللحوم أول الأطعمة التي عرفها الإنسان واهتم بها، للذة طعمها، واللحوم ضرورية لصحة الإنسان وأحيانًا تصبح أساسية كما هو الحال عند الأطفال الذين هم في دور النمو وكذلك الحوامل والمرضعات. حيث تحتوي اللحوم على أفضل أنواع البروتينات ذات القيمة الغذائية العالية التي يحتاج إليها الإنسان في تكوينه وبنائه، وأيضًا اللحوم غنية بالدهون والفيتامينات والمعادن. وتقسم اللحوم إلى قسمين: اللحوم الحمراء وتشمل لحوم الأبقار والأغنام والماعز والجاموس التي هي حلال شرعًا، واللحوم البيضاء مثل لحوم الأسماك والدجاج.

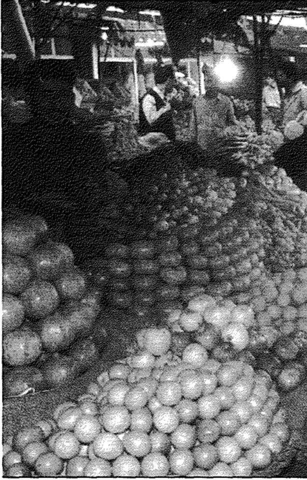
ويستخدم فخذ اللحم في المطبخ العراقي لعمل أطباق شهية من اللحم المشوي (التكه) والكباب المشوي الذي يقدم مع الخضر، كالرشاد والكراث والنعناع ، فضلاً عن أطباق شهية من حساء اللحم (التشريب). في حين تستعمل الكوارع (الأرجل) والرأس لعمل (الباجة) التي تقدم مع خبز التنور الحار والبصل الأخضر والروب (اللبن الرائب) و المخللات (الطرشي) والفلفل الأخضر.

يشتهر المطبخ العراقي بأطباق الكبة الموصلية الفاخرة التي تعتبر من أشهى الأطباق التي تقدم للعائلة أو الضيوف في الموائد والحفلات

ويستعمل اللحم غالبًا مع الخضر لعمل أطباق شهية من المحشوات مثل دولة اللحم (البغدادية) التي تعتبر من الأصناف الشائعة في العراق، وتحتوي على قيمة غذائية عالية تبعًا للمواد المستعملة فيها، وتستعمل أنواع عديدة من الخضر في عمل (الدولة) وأهمها الخضر التي تحفر ولاتقشر كالباذنجان والطماطم والخيار والفلفل الأخضر، وتستعمل بعد غسلها ونزع اللب منها باستعمال المحفارة الخاصة وتملح. وتستعمل أيضًا في عمل "الدولة " الخضر الورقية كورق العنب و ورق السلق والبصل بالإضافة إلى الملح والبهارات. وفي مناطق جنوب العراق مثل البصرة وميسان وغيرهما يضاف إلى (حشوة الدولة) التمر الهندي، والسكر فيصبح طعمها حامضًا حلوًا. أما بالنسبة لاستعمالات السمك والدجاج في المطبخ العراقي فتعمل منه أطباق شهية من السمك المقلي و السمك المشوي ويكون نوع السمك المشوي(صبورًا)حيث تعمل حشوة ملونة من البصل والثوم والدبس والمعجون (عصير الطماطم) والكرفس توضع في بطن السمكة ويشوى في التنوروتؤكل مع طبق الرز المطبق المضاف إليه الدبس وقليل من السكر، و هناك أطباق شهية من مرقة السمك التي تتكون من البصل المحموس مع الكزبرة والحلبة الخضراء، ثم يقلى السمك ويوضع فوقها، وبعدها يمرق بالمعجون ويضاف اليه (نومي البصرة) لإعطائها الحموضة، وهناك أطباق أخرى من السمك المسقوف التي تقدم مع خبز التنور الحار والطرشي والسلطة كسلطة الخس والخيار والطماطم. وأطباق أخرى من الدجاج المشوي وحساء الدجاج. وتشتهر مناطق جنوب العراق بـ (مقلوبة السمك) حيث يكون نوع السمك المستعمل فيها(زبيدي) إضافة إلى البصل والمكسرات، كالكشمش واللوز والجوز توضع في قاع القدر بعد قلي السمك والبصل، ويوضع فوقه الرز المطبوخ بالهيل والزعفران، ويوضع على نار هادئة، ثم يقلب في صينية ويؤكل مع مقلوبة السمك (الدقوس) وهو يتكون من الطماطم والثوم والمعجون (عصير الطماطم) المتبل بالفلفل الأحمر، ثم توضع على نار هادئة، و(الدقوس) معروفًا أيضًا في منطقة الخليج.

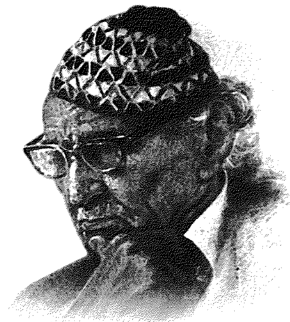
أما بالنسبة للحبوب فتستهلك بكميات كبيرة وخصوصًا الرز، وتدخل في كل وجبة غذائية، وينتج في العراق نوع من أفضل أنواع الأرز في العالم وهو النوع المسمى (العنبر) الذي يمتاز بنسبة البروتين العالية فيه

وبرائحته وبطعمه ولونه وحبته الكبيرة وبالإضافة إلى العنبر فالعراق ينتج أنواعًا أخرى مختلفة، كالنعيمة والحويزاوي وغيرهما. ويعتبر الرز الطبق الرئيس في الوجبة الغذائية، ويرافق أطباق الرز التي تعد شيئًا رئيسًا وأساسيًا في الوجبة الغذائية أطباق شهية ومتنوعة من المرق المعد من أنواع عديدة من الخضراوات، كالباميا والسبانخ والباذنجان والفاصوليا الخضراء المطبوخة مع اللحم باستخدام الدهن الحيواني أو النباتي وتمثل الطماطم عنصراً أساسيًا في عمل المرق. والغرض من استعمال اللحم في أنواع المرق وخصوصًا الخضر هو إعطاء النكهة والقيمة الغذائية، وتتوقف كمية اللحم المستعملة في المرق على الرغبة والعادات الغذائية. أما الخبز الأسمر أوالصمون المصنوع في الغالب من دقيق الحنطة و الشعير فهو يمثل العنصر الرئيس في الوجبة الغذائية ولايمكن الاستغناء عنه، ويؤدي البصل والثوم دوراً أساسيًا في كل الطهي العراقي، حيث يكون البصل والثوم المادة الأساسية لإظهار نكهات البهارات وتكملتها، وتكثيف المرق والصلصة. ومن الأكلات التي يشتهر بها المطبخ العراقي أكلة (البرياني) التي تتكون من اللحم الذي يقطع ويقلى في الدهن ثم يضاف إليه البصل والثوم المفروم ويقلب معه حتى يحمر، ويضاف الرز المطبق إلى خليط اللحم والبهارات ويترك على نار هادئة، ثم تقلب أو تصب في صحن وتقدم حارة. كما يشتهر المطبخ العراقي بأطباق الكبة الموصلية الفاخرة التي تعتبر من أشهى الأطباق التي تقدم للعائلة أو الضيوف في الموائد والحفلات وألذها وتتكون من اللحم والبصل والبرغل واللوز والكشمش والملح والبهارات مثل الفلفل الأسود والقرفة. وتوجد أنواع أخرى من البهارات، التي يتوقف استعمالها على الذوق الخاص والرغبة والوصفات، وجميعها تعطي النكهة والطعم. إضافة إلى (الكيبايات) المعروفة في الموصل وأطرافها وتصنع من الكرشة وتحشى بالرز واللحم والثوم أو تحشى بالبرغل واللحم حسب الرغبة. وأطباق أخرى من (البرما) والتي من أهم مكوناتها البقوليات جميعها والبصل والبهارات، وتوضع في قدر عميق ويطهى في التنور الطيني. وأطباق أخرى من تبسي الباذنجان وعروق التنور التي تتكون من البرغل والجريش واللحم والبصل والبهارات، وتوضع في صينية خاصة وتشوى بالتنور أو بالفرن حسب الرغبة. إضافة إلى أطباق كبة البطاطة (بتيتة جاب).



أما أطباق الحلوى والمعجنات فهي كثيرة ومتنوعة في المطبخ العراقي، مثل حلاوة التمر، الرز، الجزر، وحلاوة (نهر خوز) المعروفة في منطقة (أبي الخصيب)حيث تصنع من الدبس والراشي، و أطباق أخرى من المحلبي المعد من النشا والحليب والسكر، و أطباق الكاستر. أما أشهر المعجنات في المطبخ العراقي فهي (الكليجة) التي تعتبر من أشهى العجائن التي تقدم للعائلة أو الضيوف في الموائد وشهر رمضان المبارك وعيد الفطر وعيد الأضحى المبارك. التي تقدم مع شاي المهيل. فالمطبخ العراقي زاخر بأنواع الأغذية كافة، وألوانها الجذابة والفاتحة للشهية والغنية بالعناصر الغذائية الضرورية للجسم. فتناول طعام جيد هو متعة حقيقية، والشخص الذي لايستطيع الاستمتاع بتناول الطعام الجيد فإنه نادراً ما يستطيع الاستمتاع بأي شئ جيد وجميل. ويتصف الشعب العراقي كباقي الشعوب العربية بحسن الضيافة والكرم والجود. ■

عراقيات



أمم تجدّ ونلعب*

شعر : محمد مهدي الجواهري

أمم تجدّ ونلعبُ ويُعذّبون ونُطرَبُ
المشرق الواعي يخُط مصيره والمغرب
فهنا دمٌ يتعهد الجيل الجديد فيُسكب
وهنا كفاحٌ - في سبيل تحرر - وتوثّب
وهنا جماهيرٌ يخبّ بها زعيم أغلب

* * *

ونعيش نحن كما يعيش على الضفاف الطحلب
متطفلين على الوجود نعومُ فيه ونرسب
ندعو إلى المستعمرين لسوطهم نتحبّب
نهوى تقربهم وفيه حتفنا يتقرّب
متخاذلين كما يشاء تعنّت وتعصّب
إن العراق بما نُحشّدٍ ضده ونؤلّب
بيتٌ على يد أهله مما جنوا يتخرّب

* * *

قل للشباب تحفَزوا وتيقّظوا وتألّبوا
وتأهبوا للطارئات فإنها تتأهّب

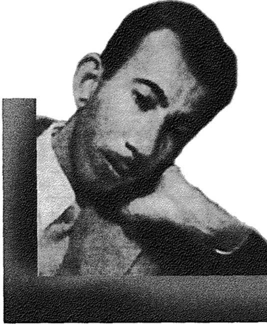
---

* نشرت في جريدة «الرأي العام» ، ١٩٤٤م .



سيجدُّ ما سيطول ... إعجابٌ به وتعجب
سيزول ما كنا ... نقول مُشرّق ومغرب
ستكون رابطة الشعوب ... مُبغَّضٌ ومحبّب
سيروا ولا تستوحشوا ... وردوا ولا تتهيّبوا
لا تظمأوا إن الحياة ... معينها لا ينضب
سيروا خفافًا، نفسكم ... وصفاؤها، والمذهب
لا تُثقلوها بالعويص ... وبالغريب فتتْعبوا
وتلمّسوا أُفُقاً تلبّد ... غيمه، وترقبوا
لا تجمدوا إن الطبيعة ... حرة تتقلّب
كونوا كرقراقٍ ... بمدرجة الحصى يتسرّب
تأتي الصخور طريقه ... فيجوزهن ويذهب
وخذوا وجوه السانحات ... من الظروف فقلبوا
فإذا استوت فتقحّموا ... وإذا التوت فتنكّبوا
وإذا وجدتم جذوة ... فضعوا الفتيل وألهبوا
مدّوا بأيديكم إلى ... هذا الخليط فشذّبوا
وتناولوا جمراتكم ... آناً وآناً فاحصِبوا
لا تحذروا أن تُغضِبوا ... من سرّه أن تُغضَبوا
كونوا كعاصفة تُطوّح ... بالرمال وتلعب
وتطلّبوا بالحتف مَن ... لحتوفكم يتطلّب
لا يؤسنّكمُ مُقِلّ ... عديدكم أن تغلبوا
إن لم يكن سبب يمد ... خطاكمُ فتسبّبوا
لا تنفروا إن الحياة ... إليكمُ تتقرّب
لكمُ الغدُ الداني القطوف ... وصفوُهُ المستعذب
إن النضال مهمّةٌ ... يعيا بها المترهّب
إن الحياة سريعةٌ ... وجريئة لا تغلب
ترمي بأثقال السنين ... وراءها وتُعقّب
وتدوس من لا يستطيع ... لحاقها وتؤدّب

عراقيات



الأسلحة والأطفال*

شعر : بدر شاكر السياب

عصافيرُ؟ أم صبية تمرحُ
عليها سنا من غدٍ يلمح؟
وأقدامها العارية
محارٌ يصلصل في ساقية.
لأذيالهم رفّةُ الشمأل
سرتْ عبر حقل من السنبلِ،
وهسهسةُ الخبز في يوم عيد
وغمغمةُ الأمّ باسم الوليد
تناغيه في يومه الأولِ.
كأني أسمع خفق القلوعْ
وتصخاب بحارة السندباد..
رأي كنزه الضخم بين الضلوع
فما اختار إلاه كنزًا.. وعاد!
....
....
عصافير.. أم صبية تمرح؟

أم الماء من صخرة ينضح
ولكن على جثة دامية؟
وقبّرة تصدحُ
ولكن على خربة بالية؟
عصافير؟!
بل صبية تمرح
وأعمارها في يد الطاغية؛
وألحانها الحلوة الصافية
تغلغل فيها نداء بعيد:
«حديد عتـ..يق
رصاص
حد..يد».
وكالظلّ من باشق في الفضاء
- إذا اجتاح، كالمدية الماضية،
عصافير تشدو على رابية -
ترامى إلى الصبية الأبرياء

* من ديوان (الأسلحة والأطفال) الصادر في عام١٩٥٤م .

نداء تنشقت فيه الدماء
«حديد عتيق..
حديد عتيق!
رصا..صٌ» فحتى كأن الهواء
رصاص، وحتى كأن الطريق
حديد عتيق.
وينقضّ، كالمعول الحافرِ،
صدى راعب من خطى التاجر
له الويل.. ماذا يريد؟
«حديد عتيق
رصا..ص
حديد!»
لك الويل من تاجر أشامِ
ومن خائض في مسيل الدم
ومن جاهل أن ما يشتريه
ـ لدرء الطوى والردى عن بنيه ـ
قبورٌ يوارون فيها بنيه!
«حديد عتيق
رصا..ص
حديد!»
حديد عتيقٌ لموت جديد!
«حد..يد»
لمن كلّ هذا الحديد!
لقيد سيلوى على معصمٍ،
ونصلٍ على حلمة أو وريد،
وقفل على الباب دون العبيد،
وناعورة لاغتراف الدم؟!
....
....
«حديد، حديد»
وأم تبيع السرير العتيق،
تبيع الحديد الذي أمسِ كان
مهادًا عليه التقى عاشقان
وشدّ نداء الحياة العميق
ذراعًا بأخرى، فما تخفقان!
فيا حسرتا حين يمسي غدًا
شظايا تدوّي وبعض المدى
تنحى بها عن ذراع ذراع
وينهدّ مهدٌ، ويخبو شعاع
أمن حيثُ كان التقاء الشفاه
على الحبّ: ينسجن خيط الحياة
يحوك الردى غزله الأسوداً
دمًا أو دخانًا؟ يحوك الردى
شباكًا من النار حول البيوت
على صبية أو صبايا تموت؟
ويرتدّ حتى حديد السرير
جناحًا عليه المنايا تغير،
وحتى الذي في عيون الدُّمى
من المعدن الزئبقي الحسير
رصاصًا أبح الصدى مُرزما... ■

عراقيات



سوء المنقلب*

شعر : معروف الرصافي

«بغداد» حسبك رقدة وسبات ... أو ما تمضّك هذه النكبات؟
ولعت بك الأحداث حتى أصبحت ... أدواء خطبك ما لهن أساة
قلب الزمان إليك ظهر مجنّه ... أفكان عندك للزمان ترات؟!
ومن العجائب أن يمسّك ضرّه ... من حيث ينفع لو رعتك رعاة
إذ من «ديالى» و«الفرات» و«دجلة» ... أمست تحل بأهلك الكربُاتُ
إن الحياة لفي ثلاثة أنهُر ... تجري وأرضك حولهنّ موات!
قد ضلّ أهلك رشدهم وهل اهتدى ... قوم أجاهلهم هم السروات؟!
قومٌ أضاعوا مجدهم وتفرقوا ... فتراهم جمعًا وهم أشتات
لقد استهانوا العيش حتى أهملوا ... سعيًا مغبة تركه الإعنات
يا صابرين على الأمور تسومهم ... خسفًا على حين الرجال أباة
لا تُهملوا الضرر اليسير فإنه ... إن دام ضاقت دونه الفلوات
فالنار تلهب من سقوط شرارة ... والماء تجمع سيله القطرات

*　　　*　　　*

من مبلغ «المنصور» عن «بغداده» ... خبرًا تفيض لمثله العبرات
أمست تناديه وتندُب أربعًا ... طمست رسوم جمالها الهبوات
وتقول: يا لأبي الخلائف لو ترى ... أركان مجدي وهي منهدمات
لغدوت تنكرني وتبرحُ قائلاً ... بتعجب ما هذه الخربات؟!
أين البروج بنيتهن مشيدة ... أين القصور علت بها الشرفات؟
أين الجنان بحيث تجري تحتها الـ ... أنهار يانعة بها الثمرات؟
أترى أبو الأمناء يعلم بعده ... «بغداد» كيف تروعها النكبات؟!
لا « دجلة» يا للرزية دجلةٌ ... بعد«الرشيد» ولا«الفراتُ» فراتُ
كان الفرات يمدّ دجلة ماؤه ... بجداول تسقى بها الجنات
إذ بين دجلة والفرات مصانع ... تفتر عن شنب بها السنوات

---

* نشرها الشاعر عام ١٣٢٥هـ.



عن مدرستي الابتدائية أتحدث أيضًا..

محمد بن أحمد الرشيد
وزير التربية والتعليم

لم أكن أتوقع أن مقالتي في عدد ذي القعدة ١٤٢٤هـ في هذه المجلة التي كانت بعنوان (مدرستي الابتدائية) ستلاقي هذا التعليق والقبول من عدد من الإخوة والأخوات.. لذا فقد رأيت أن أسترسل في ذلك الحديث.

إنني عندما أغمض عيني وأعود بخيالي إلى أيام الصغر، أيام الدراسة الابتدائية، أشعر بمزيج من الأحاسيس والمشاعر، يختلط فيها الشوق بالحنين، والفخر بالاعتزاز، والحمد بالشكر، ومشاعر أخرى يصعب على القلم التعبير عنها!

وكما أسلفت في العدد السابق، فإن عام ١٣٥٦هـ قد شهد افتتاح (المدرسة السعودية) - أي قبل ثمان وستين عامًا من اليوم، وقبل ميلادي ببضع سنين - لتكون أول مدرسة نظامية في المجمعة، وواحدة من أربع مدارس هي بداية التعليم النظامي في نجد.

التحقت بهذه المدرسة في المبنى الثالث الذي انتقلت إليه بعد افتتاحها، وكان بيتًا مهيأً للسكن، غاية في البساطة والتواضع، ككل شيء في تلك الأيام.. كنا نجلس على الحصباء.. نستدفئ بأشعة الشمس من برد الشتاء، ولكنا كنا نجد للعلم طعمًا لذيذًا، وحلاوة خاصة تدعونا إلى الاستزادة منه!

كانت دراستنا: صباحًا، وبعد الظهر..

كنا نبدأ نهارنا بصلاة الفجر، نرجع من المسجد بعد الصلاة إلى البيت لنأكل ما تيسر من طعام الإفطار، الذي عادة ما يكون للغني قرصًا من الدقيق «خبز التنور» أو ما شابهه، ثم نأخذ أغنامنا قبل طلوع الشمس لتسليمها إلى الراعي (الشّاوي)، ونتوجه إلى المدرسة. ندرس إلى ما قبل الظهر، ويخرج كل منا فيؤدي صلاة الظهر جماعة في المسجد القريب من منزله، ثم يمضي إلى بيته للغداء، الذي يكون غالبًا من التمر، والمحظوظ يشرب مع التمر اللبن، ثم نعود إلى المدرسة ندرس حتى قرب العصر، كأننا نطبق اليوم الدراسي الكامل قبل أن يطبقه آخرون. كنا في كل هذا نسير على الأقدام؛ فالبلدة صغيرة، يقطعها الماشي من أقصاها إلى أقصاها في عشر دقائق.

وذات يوم رغبت الإدارة في أن تحسن طريقة جلوسنا في الفصل فطلبت إلينا أن نحضر مقاعدنا معنا، فأحضر كل واحد منا صندوقًا فارغًا مما تيسر له الحصول عليه؛ إما صندوق شاي، أو صندوق معلبات وكان ثمن الصندوق الفاخر، (بمقاييس ذلك الزمان)، لا يزيد على ريال واحد، وصنع بعضنا مقعده بنفسه أو ساعده نجار البلد، أو أحد أقاربه، من الخشب الذي تيسر له.. كنا نجلس على تلك (المقاعد) وكأننا نجلس على أريكة وثيرة.

وفي يوم من الأيام سمعت المدير والمعلمين يقولون: لقد ضاع (المنجد)، وكانوا يعنون قاموس المنجد المعروف، ويبدو أن أحدًا قد اختلسه، فطلبوا إلينا أن نردد:«بضياع المنجد ضاع العلم»!، وقد تصورت من فرط الاهتمام بالبحث عنه (ولم أكن قد رأيت المنجد) أنهم يبحثون عن موسوعة ضخمة تضم أشتات العلم، ما بحثت عن شيء فيها إلا وجدته، لذا كنت أنتظر أن أكبر لأتمكن من شراء هذا الكنز الثمين.

كانت فصول الشتاء شديدة البرد، وملابس أغلبنا خفيفة لا تمنع عنا أذاه، وكان معلمونا - في النهار المشمس - يخرجوننا إلى الشمس كما أسلفت، لأننا لم نكن نملك في فصولنا مدافئ، فكنت ترى طلاب الصفوف الذين خرجوا التماسًا للدفء، متحلقين حول معلميهم حلقات تذكرك بحلقات العلم في الزمن القديم. وأذكر أن أحد معلمينا، وكان من سورية الشقيقة، ولا عهد له بالخروج من الفصل إلى الفناء، عندما رجوناه أن نخرج إلى ساحة المدرسة طلبًا

للدفء، استغرب الطلب، ثم استجاب عندما شرحنا له السبب، فخرج معنا، ونظم قصيدة طويلة لم يبق في ذاكرتي منها إلا مطلعها:

البرد أخرجنا إلى الشمس

وبها عقدنا حلقة الدرس

رحم الله من مات من معلمينا، وحفظ الأحياء منهم. لقد كانوا معلمين حقًا، عندهم من المعرفة ما يعطون ويعلمون، وكنا نحن نحبهم ونحترمهم، ونوقرهم، ونعرف حقهم، داخل المدرسة وخارجها، وأرجو أن تسود هذه الروح، وتزداد بين طلابنا اليوم.

كان للمعلمين في نفوس الأهالي مكانة مرموقة. بعض المعلمين كانوا من أبناء البلدة، وبعضهم من أبناء المملكة، أو من خارجها، من أحد الأقطار العربية الشقيقة، وكان الأهالي يتبارون في إكرامهم، ودعوتهم إلى منازلهم في كل مناسبة: في الأعراس، والحفلات، والمناسبات الاجتماعية. وأذكر عندما زار جلالة الملك سعود، رحمه الله، المجمعة أن المعلمين والطلاب كانوا في مقدمة مستقبليه والمرحبين به، والمنشدين أمامه.

وأذكر أن معلمينا من مصر الشقيقة كتبوا على قطعة كبيرة من القماش رفعوها عاليًا النص الآتي:

«المصريون المقيمون في المجمعة: يحيون المليك ومن معه»

وهذه أول لافتة بخط كبير جميل يقع عليها نظري، إذ لم يكن في ذلك الزمان لوحات كبيرة تعلق على واجهات المحلات.

أما المطر فله فرحتان: فرحة للكبار بالماء الذي يحيي به الله الأرض بعد موتها، وفرحة لنا نحن الصغار لأنه يوم إجازة وعطلة.

كان مقر مدرستنا بيتًا مستأجرًا، وكان ـ حينذاك ـ من أفضل بيوت المجمعة، ثم انتقلنا منه ـ أيام دراستي ـ إلى مبنى آخر حكومي من الطين أفضل منه وأفخم، أما اليوم فما كنا نعده فخمًا جميلاً لم يعد في أعيننا كذلك، بعد أن فتح الله علينا أبواب الخير، وقامت لدينا كثير من المدارس النموذجية.

كانت اختبارات الشهادة الابتدائية مركزية، لها لجنة خاصة يعين رئيسها من الوزارة. أما اختبارات الصفوف الأخرى فكانت أسئلتها تُملى علينا إملاءً، أو تكتب على السبورة.

فإذا جاء يوم إعلان النتائج، يجمعنا المدير في صعيد واحد: الطلاب والمعلمين، ويقرأ الأسماء، فإذا قال: فلان ناجح سكتنا، وإذا قال: ساقط، صحنا بأعلى صوتنا: (حلّق)، ولا أدري من أين جئنا بهذا اللفظ؟

وكانت تقام في المدرسة أمسيات ثقافية، ومحاضرات بين المغرب والعشاء، كانت تلك الأمسيات مناسبات خاصة، لا للطلاب وحدهم، بل لأبناء المجمعة كافة، كانت كالأعراس في أهميتها والفرح بها، فلا غرو ـ إذًا ـ أن يكون معلمو المدرسة الابتدائية هم مثقفي البلدة ووجهاءها. وكان بعض أهل الفضل يتبرعون لنا بالمصابيح التي تسمي (أتاريك)، وهي لا توجد إلا عند عدد محدود من ذوي اليسار، إذ لم تكن الكهرباء موجودة حينذاك.

ومما أذكره عن سنوات تعليمي أنني دخلت المدرسة قبل السن النظامية المعروفة اليوم، مع أنه لم يكن في أيامنا سن محددة لدخول المدرسة، وما ذاك إلا لأن قريبًا لي يكبرني سنًا دخل المدرسة، فأدخلني أهلي أسوة به.

ومن أهم ما بقي في الذاكرة من أيام الدراسة تلك الروح الجماعية التعاونية التي كانت سائدة بين أبناء القرية:

كانت البيوت تبنى من الطين، وكان الرجل إذا أراد أن يبني بيتًا جاء إلى مدير المدرسة يطلب مساعدته، فيجندنا المدير جميعًا، نقشر السعف، ونجمع الخوص، ثم نطأ الطين بأقدامنا وندقه لتمكينه!

وإن أنس فلا أنسى أمرين اثنين:

أولهما: زيارة (المفتش) للمدرسة بين الحين والحين، فقد كنا نحسب لزيارته ألف حساب: إشفاقًا على معلمينا الذين لا نريد أن يشعروا بالحرج أمامه، وتوقعًا منا أنه سيفتش حقائبنا، لذا فقد كنت أنظف حقيبتي (الحديدية) وأرتب فيها دفاتري، وأرصف كتبي، كلما علمت بمجيء المفتش.

وثانيهما: خروجنا لصلاة الاستسقاء مع بعض معلمينا متوجهين إلى مصلى العيد، وبعد الصلاة وسماع الخطبة يقلب الكبار (مشالحهم)، ونقلب نحن (غُترنا).. كنا نحس بقلوبنا الصغيرة أن الأمر جدّ، وندعو بإخلاص، وما كان الله سبحانه يخيبنا، فسرعان ما كان يأتي المطر!! كانت صلاة الاستسقاء درسًا تربويًا، دينيًا، روحيًا، لا أنساه.

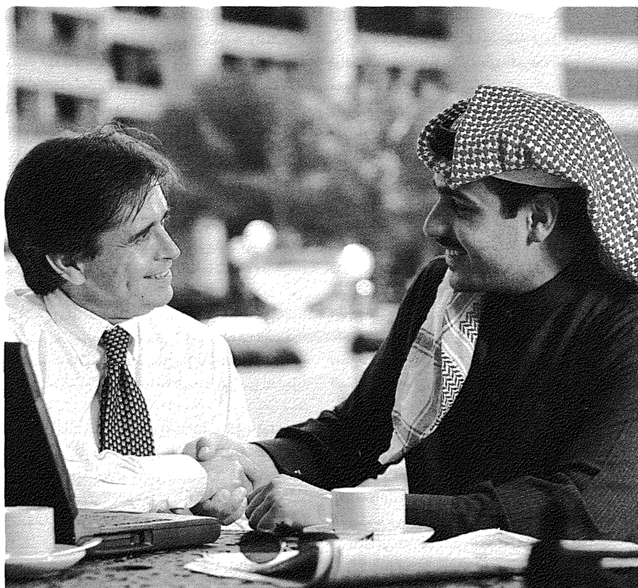
هذه صور قليلة من تلك الذكريات، لعلها توقظ في قلوب من عايشها بعض الحنين، وتعرف أبناءنا اليوم قدر النعم التي يعيشون فيها، فيشكرونها: بالقلب، واللسان، والعمل.

والله الموفق ■

اللباقة الاجتماعية

كان ـ رحمه الله ـ فاضلاً سميناً !

منصور عبدالجليل القطري ـ الدمام *



*عضو هيئة التدريس بمعهد الإدارة.

ورد في القواميس العربية لفظة اللباقة بمعنى سلوك الفرد في حياته مع غيره سلوكًا يتسم باللطف والأدب، وقد تعني أيضًا دماثة الخلق. وفي الثقافة المعاصرة ترد اللباقة كإحدى مفردات التأدب وهي حسن التصرف وهي بذلك ملكة تعصم من تحلى بها عما يشينه. واللباقة من الموضوعات المرعية في آداب التعامل وآداب الكلام وهي من ضرورات الآداب العامة في السلوك الاجتماعي. ويمكن متابعة أدبيات (اللباقة) في الحلقات والدورات التدريبية في مختلف المراكز العالمية تحت موضوعات مهارات الاتصال الناجح Communication Skills.

واللباقة كصفة وسمة سلوكية يحتاج لها جميع الناس، وإن كانت بعض المهن أشد احتياجًا من غيرها. على سبيل المثال الأشخاص الذين يتعاملون مباشرة مع الناس كالطبيب والمحامي والمعلم والشرطي والقائد الإداري والخطيب وغيرهم ممن يشكل (الاتصال الإنساني) بالنسبة لمهنتهم جزءًا كبيرًا من ساعات العمل. وهذا لا يعني استغناء الأزواج والزوجات عنها. فاللباقة في العلاقات الأسرية والعلاقات الاجتماعية تعد من الصفات المتميزة التي ينبغي أن يتحلى بها الشخص الناجح. فهذه الصفات تمكن الأفراد من المحافظة على شعور الطرف الآخر وإطفاء جو من الود المطلوب لإنجاح أي علاقة إنسانية ولتجاوز أي موقف حرج قد يترتب عليه تشنج العلاقات. وهو من منظور خبراء علم اللغويات الاجتماعية يمثل أسلوبًا راقيًا في الاتصال الذي يمنع بدوره اصطدام كلام الأطراف بعضها بعضًا، وهو ما يؤثر إيجابيًا في صناعة مناخ مشبع بالاحترام والتخاطب الراقي.

اللسان العربي الجميل

ولغتنا العربية جميلة ولها من السحر ما يمكننا من التوغل في ميدان العلاقات الإنسانية باعتبار أن اللغة وسيط مهم في بناء جسور المودة بين الناس. وهذا عينًا ما دفع مؤرخ «قصة الحضارة» (ويل ديورانت) إلى ذكر ثلاثة تعريفات مختزلة لثلاثة مستويات حضارية كبرى وهي الحضارة الصينية والحضارة الإغريقية والحضارة العربية الإسلامية.

يذهب (ويل) إلى أن حضارة الصينيين أو الجنس الأصفر تتمثل على نحو أشمل في أصابعهم وحضارة الإغريق في فكرهم أما حضارة العرب فهي في لسانهم. ولا ريب أن كل البشر يستخدمون أصابعهم ولسانهم وفكرهم لكن الإشارة هنا إلى علامات تمايز ذات دلالات حضارية متباينة.

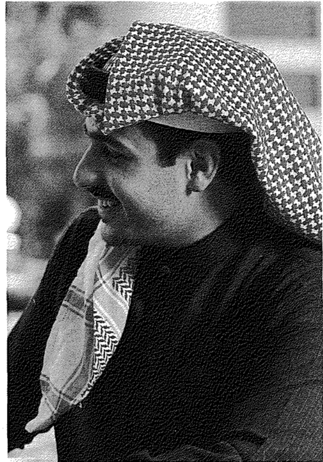
تتمثل حضارة الصينيين (الجنس الأصفر) في أصابعهم مختصرة صنيعهم الحضاري من خلال ابتكار خيوط الحرير والقز ونقش الخزف انتهاء بصناعة الكمبيوتر. وتتركز حضارة الإغريق في فكرهم المتمثل في الركام الفلسفي الذي تتكئ عليه معظم مراجع التفكير الإنساني عامة. أما العرب فحضارتهم تختزل في «لسانهم». وتلك إشارة مباشرة إلى المعجزة القرآنية. فالعرب لم يكونوا في حاجة إلى معجزة حسية نفعية كما كان بنو إسرائيل يطلبون من أنبيائهم إنزال المائدة، كما لم يطلبوا معجزة خوارقية كولادة المسيح من العذراء أو أن يمشي المسيح على الماء أو أن يشق البحر بعصاه. لذا كانت معجزة القرآن في بلاغته.

والأمثلة المنتشرة في الجزيرة والبلدان العربية قديمًا وحديثًا تدل على مدح القول اللين اللطيف وأثره في النفوس، ويدل أيضًا على اهتمام العرب منذ القدم بالكلام اللبق ودوره في صناعة العلاقات الحميمة. فقد ورد عن الإمام علي قوله: «من لانت كلمته وجبت محبته»

وقالت العرب في أمثالها الدارجة:«الكلام اللين يغلب الحق البين». ولعلنا بمراجعة سريعة لكتاب ابن القيم الجوزية «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» نلاحظ فيضًا جميلاً من الكلمات ودرجاتها والتي تزيد على الخمسين، لكل منها معنى متدرج ورقيق، حيث حاول (ابن الجوزية) جمعها ويأتي في طليعتها : (المحبة، الود، الخلة، الرسيس، الهوى، الصبابة، الشغف، الوجد، الكلف، الجوى، الشوق، الغرام، العشق، الهيام، الوله ...إلخ). هذا التقسيم للمفردات الراقية لا وجود له في اللغات الأجنبية، فلقد انفردت اللغة العربية بدقة البيان وإصابة المعنى وغنى المفردات. وقد علق أحد الأدباء «أنه لو اطلعت الزوجات في البلاد الأجنبية على جمال مفردات اللغة العربية وتقسيماتها من الحب لشاقهن أن يتعلمن العربية ليعرفن مواقعهن بالنسبة إليها عند أزواجهن»!

اللباقة حكمة التصرف

إذا كان حديثنا فيما سبق يتركز على



اللباقة والتهذيب في الكلام فإن الإيجاز والتوقف عن الكلام يعتبر أحياناً لباقة؟ فغالبًا ما نقوم نحن معاشر المعلمين بتذكير الدارسين والمتدربين بفن وأصول الاستماع والإصغاء الفعال. على سبيل المثال لو أنك كنت تلقي خطبة وهناك أناس تحت المطر أو في القيظ الحار فإنه من النباهة عليك أن توجز كل الإيجاز في الحديث. وبالمثل لو تعطل مكيف الهواء وأصبح الجو خانقًا على المستمعين فيجب عليك التوقف عن الكلام . ويعرف هذا في فن الاتصال بـ (Time of Communication) فليس المهم رمي الرسالة على الناس دون مراعاة الظروف المحيطة. ويشبه ذلك ما إذا كان لدينا طرد وقد تعين علينا تسليمه لشخص محدد ولكننا لم نجد العنوان الصحيح. فإنه ليس من الحكمة أن نقوم بالتخلص منه وتسليمه لأي شخص كان، بل لابد من الاحتفاظ به وتسليمه في الوقت المناسب وعلى العنوان الصحيح.

ونحن كثيرًا ما نقرأ مواقف وأحداثًا ونتعلم منها حكمة الرد أو طريقة الاستجابة لها وكأن اللباقة تمثل الحكمة في القول والتصرف في وقت واحد. ويحضرنا هنا ما كتبه (طه حسين) في كتاب «الأيام»، حيث يروي حادثة الإضراب التي قام بها طلبة الجامعة المصرية ضد أستاذهم المستشرق الكبير «نالينو» وكان ذلك بسبب اعتداء إيطاليا على ليبيا وكان الإضراب نوعًا من الاحتجاج وقد امتنع الطلاب عن الحضور فلما دخل (نالينو) وجد القاعة فارغة إلا من الكراسي الصامتة! عندها خرج مارًا على الطلبة الغاضبين في فناء الجامعة وخاطبهم بصوت عربي فصيح قائلاً: «مثلكم - أيها السادة - مثل من أراد أن يغيظ امرأته فخصى نفسه»!!

وقد جاء في تراثنا العربي والإسلامي زخم كبير من الأقوال الدالة على «ربط اللسان بالعقل» وبذلك نستطيع أن نتبين أن «اللباقة» ليست كلمات تخرج من بين الشفتين ولكنها أداة دالة على مكنون ومعدن الإنسان ورجاحة عقله، يقول الإمام علي رضي الله عنه :«تكلموا تعرفوا فإن المرء مخبوء تحت لسانه» وقال: «صورة المرأة في وجهها وصورة الرجل في منطقه» «الألسن تترجم عما تجنه الضمائر» «يستدل على عقل كل امرئ بما يجري على لسانه». وقال أيضًا: «إن في الإنسان عشر خصال يظهرها لسانه: شاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يرد به الجواب وشافع يدرك به الحاجة، وواصف يعرف به الأشياء،

وأمير يأمر بالحسن وواعظ ينهى عن القبيح، ومعز تسكن به الأحزان، وحاضر تجلى به الضغائن، وموفق تلتذ به الأسماع». وهكذا تتجلى لنا صورة جمال الرجل بفصاحة لسانه وطيب القيم والمبادئ التي تنبعث رائحتها في طيات لسانه.

فاللباقة لها صور متعددة، فالإنسان قطعة كريستال له صورة لا معة الضوء ومتعددة الجوانب ويعتمد ذلك على مخزون القيم لدى الإنسان والذي يتحرك من خلاله في قراءة المواقف والأحداث، فعندما نتعرض للإساءة قد نرد عليها بالمثل وقد ندعو لصاحبها بالهداية (والله يحب المحسنين)، على سبيل المثال طالعنا تحت عنوان (ظرف حجازي) في نوادر الفقهاء والطفيليين، إعداد مفيد قميحة أنه نظر حازم المديني - وكان من أعبد الناس وأزهدهم - إلى امرأة تطوف بالبيت مسفرة من أحسن خلق الله وجهًا فقال: أيتها المرأة اتق الله فقد شغلت الناس عن الطواف. فقالت : أو ما تعرفني؟ قال : من أنت؟ فقالت:

من اللائي لم يحججن يبغين حسبة

ولكن ليقتلن البريء المغفلا

فقال: فإني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار. فبلغ ذلك سعيد بن المسيب، فقال : رحم الله حازمًا أما والله لو كان بعض عباد العراق لقال: اغربي يا عدوة الله ولكنه ظرف أهل الحجاز!

وكان من بين ذوق وآداب العرب ولباقتهم أيضًا اختيار اللفظ المناسب الذي لا يؤول أو يحتمل معنى مخالفًا للذوق العام. وانطلاقًا من قناعتهم بالقول البلاغي المشهور «لكل مقام مقال» أو ما يعرف «بمطابقة المقام لمقتضى الحال». يذكر في هذا المقام (الأنباري) صاحب كتاب «نزهة الألباء» تحقيق محمد أبو الفضل أنه كان عند المهدي مؤدب يؤدب الرشيد فدعاه يومًا المهدي وهو يستاك فقال له: كيف تأمر من السواك؟ فقال: استك يا أمير المؤمنين؟! فقال المهدي: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم قال: التمسوا لنا من هو أفهم من هذا الرجل فقالوا: رجل يقال له: علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة قدم من البادية قريبًا فطلب إحضاره فلما دخل عليه قال له: يا علي بن حمزة كيف تأمر من السواك؟ فقال: سك فاك يا أمير المؤمنين، فقال: أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم «انتهى الخبر».

اللباقة نوع من الذكاء الاجتماعي

واللباقة من خلال الاسترخاء والدعابة نجدها في كتابات الحكاية الفكاهية وهي فن راق من فنون الكتابة العربية، فقد أبدع في روايتها وكتابتها كثيرون في تراثنا العربي. نذكر منهم عبدالرحمن بن علي الجوزي في كتابه الفكاهي التراثي «الأذكياء» والجاحظ في كتابه «البخلاء» والعديد من النوادر المروية في «العقد الفريد» لابن عبدربه وغيرهم .

أما على الصعيد العالمي فقد تدفقت علينا كتب جديرة بالمطالعة وقد تميز بعض هذه الكتب بأنها طرزت لنا سمة «اللباقة» بثوب جديد كما هو الحال في كتاب «الذكاء العاطفي» لمؤلفه داهيل جولمان The Emotional Intelligence وقد عالج الكتاب تلك النظرة الضيقة للذكاء والتي تختصر المقولة في أن الذكاء هو حاصل المعطيات الوراثية.

فاللباقة نوع من الذكاء هذا إذا تجاوزنا مقولة علماء النفس التقليدية بأن الذكاء هو حاصل قسمة العمر العقلي على العمر الزمني! وهذا يتوافق مع ما كتبه (هنري برجسون) في كتابه (الضحك) عندما يثير السؤال التالي: لماذا نضحك من خطيب يعطس في اللحظة التي يبلغ فيها الخطاب أقصى حماسته؟ ولماذا تضحكنا هذه الجملة التأبينية التي قالها الفيلسوف الألماني: «كان رحمه الله فاضلاً سمينًا»؟! السبب في نظر الكاتب يكمن في لفت الانتباه والانتقال فجأة من عالم الروح إلى عالم الجسد. وفي هذا السياق نستشهد بما قام به الكاتب الساخر «مارك توين» حين كان يحاضر عن موضوع «الأمانة» وكان المستمعون متهيئون لسماع بعض الدعابات وأجواء من المرح لكن موضوع «الأمانة» من الموضوعات الجادة وكان الكاتب لبيبًا ولبقًا بمعنى أنه كان يريد أن

ليس البراعة أن نقرأ الكتب الكثيرة وهي كالزبد ، بل يجب قراءة الكتب القيمة عددًا من المرات لنكتشف الجديد فيها

يفاجئ الجمهور بدعابة ولكنها ضمن توقيت معين! فاستمر الكاتب الساخر يتحدث بوقار وسكينة عن «الأمانة» قائلاً: عندما كنت صغيرًا شاهدت عربة بطيخ جعلتني أشعر بإغراء شديد للسرقة! فتسللت نحو العربة وسرقت بطيخة وابتعدت بها إلى زاوية الشارع لكي ألتهمها، لكني لم أكد أضع أسناني في البطيخة حتى توقفت فجأة؟ فقد سيطر عليَّ إحساس غريب جعلني أحمل البطيخة إلى العربة. وقبل أن يصل الموقف الدرامي إلى نهايته، ويصفق الجمهور لأمانة (مارك) علق الكاتب الساخر مبينًا دوافعه النبيلة لإعادة البطيخة المسروقة (..عدت بها.. لأستبدل بها بطيخة ناضجة)!

فن إزاحة الكآبة

ومن الدراسات النفسية المتميزة لظاهرة اللباقة هي تلك الدراسات التي ربطت بين الأفكار في العقل وبالحالة النفسية للإنسان. فقد يكون للناس مجموعة من الأفكار الكئيبة والعدوانية التي ترد على أذهانهم بمجرد الشعور بالتعاسة. ومن المفارقات في هذه الدراسات أن الأفراد الذين يعانون الاكتئاب يستخدمون الموضوعات التي تبعث على العدوانية والاكتئاب. لذا يفضل علماء النفس استخدام وسائل معاكسة للخروج من الكآبة. على سبيل المثال قام أحد علماء الاجتماع بتوظيف تلك الاستراتيجية وبشكل لبق حين دعي إلى إلقاء محاضرة في الأخلاق والسلوك في أحد السجون! فحين توجه المحاضر إلى المنصة تعثر (أمام جمهور السجناء) بالسجادة وسقط! فضج السجناء العتاة بالضحك في لحظة تهكم وعدوانية تجاه (الخطيب المفوه)! غير أن المحاضر العارف بالنفسيات وما يخالج العقول نهض بهدوء، حيث ترسمت على محياه ابتسامة جلها أمل وثقة وقال : «لقد أردت أن أقول لكم أيها السادة إن الإنسان قد يسقط، لكنه يستطيع النهوض ثانية حين يريد»!! عندها صفق السجناء احترامًا لذلك التصرف اللبق. لقد استطاع (المحاضر) أن يبدل مثلبة تعثره بالسجادة إلى موعظة!

إن حديثنا عن اللباقة يبعث برسالة حانية



للمحيطين بنا ويبعث بصور من تراثنا الزاخر ليعزز القدرة فينا على أن نكون حاذقين اجتماعيًا، ولتكون قدرتنا أفضل فيما نرسله من إشارات وألفاظ نضمن بواسطتها الحفاظ على تأسيس بنية معرفية لمجتمع مهذب - إنها بشكل مباشر - الوسيلة التي تضمن عدم تسرب الانفعالات المزعجة التي تسبب الضيق والكدر إلى علاقاتنا. وقد حدثنا معلم البشرية الرسول ﷺ: «إن في الناس شر لو بدا ما تعاشروا» أو كما عبر القرآن الكريم: ﴿**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾.

ونحن جميعًا بحاجة إلى قواعد ونماذج نتذكرها ولا مانع من وضع ورقة الحكم والمقولات الجميلة أمام أعيننا في المكاتب وغيرها لتنغرس في اللاوعي. إن أكبر الحكمة هي التكرار اليومي للحكمة. فليس البراعة أن نقرأ الكتب الكثيرة وهي كالزبد، بل يجب قراءة الكتب القيمة عددًا من المرات لنكتشف الجديد فيها. وبحسب ما ذكره (اينشتاين) أن اكتشاف الحقيقة مرة واحدة غير كاف، فهي تشبه تمثال الرخام المنصوب في الصحراء مهدد بالطمر من الرمال المتحركة مع الريح فلا بد من تنظيفه الدائم لكي نحافظ على لمعانه تحت أشعة الشمس.

مواقع تعليمية

منى الخضيري . الرياض

حديثنا هذا العدد عن المواقع التي توفر دروسًا للطلاب في جميع المراحل الدراسية، منها العربية والأجنبية، بالتأكيد كلها مفيدة لطلاب المدارس أو الجامعات والكليات أو حتى الدراسات العليا، هذه «المكتبة» العريضة تحوي العديد من المواقع التي يمكن الاستفادة منها بعدة أشكال، للمعلم والمتعلم على حد سواء.

نود أن نلفت انتباه القراء الأعزاء إلى أن بعض المواقع رسمية وبعضها خاصة، لذا قد لا توفي بكل احتياجاتنا نظرًا لكونها اجتهادات فردية نشكر أصحابها عليها.

هذه القائمة منكم و إليكم، سنحاول دومًا إضافة المزيد من المواقع حال توفرها ولمن يريد إضافة موقعه الخاص ـ في هذا النطاق ـ يرجى منه مراسلة المجلة.

موقع مدارس الشمس

توفر إجابات عن أسئلة الاختبارات لكل المراحل الدراسية

www.saudiquestion.com/choose.asp

موقع مدارس الأندلس

http://alandalus-school.edu/cgi-bin/qa_wizard.pl

نادي اللغة الإنجليزية في متوسطة و ثانوية آل موسى بالباحة

www.englishclub.8m.net

شيء جميل أن نرى مثل هذه المواقع على الشبكة لتعزيز قدرات الطلاب وثقتهم بأنفسهم وتطوير قدراتهم لاستخدام التقنية بالشكل السليم.

اختبار التوفل الشهير

www.tofel.com

موقع المعلم حامد المالكي

www.geocities.com/hamidalmalki

موقع شخصي للمعلم حامد المالكي يهتم بخدمة معلم اللغة الإنجليزية للمرحلة المتوسطة، يحتوي على تحاضير دروس وأفكار تفيد المعلم.

شبكة الفيزيائيين العرب

www.phys4arab.net

موقع عربي غني عن التعريف يوفر الكثير من الحلول والوسائل للمهتمين بعلم الفيزياء.

قصة الفيزياء

www.allsciences.net

موقع آخر يهتم بعلم الفيزياء يحوي تجارب وتطبيقات فيزيائية تهم الطلاب والعاملين في مجال الفيزياء، الأجمل أنه يحوي روابط لمواقع صديقة تهتم أيضًا بعلم الفيزياء.

علم الأحياء

www.biointeractive.org

يخدم المهتمين بعلم الأحياء من الطلاب أو المعلمين، يحوي نظريات وتجارب ومحاضرات مرئية عن هذا العلم.

اكتشف العلوم

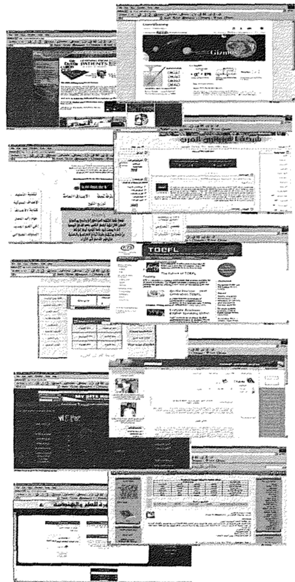
www.explorelearning.com

موقع شامل لكثير من العلوم الطبيعية والرياضية، يحوي تجارب وأمثلة وشروحات لتطبيقات كثيرة باللغة الإنجليزية.

المدرسة العربية

www.schoolarabia.net

مؤسسة معرفية رقمية توفر بيئة تعلم وتعليم عربية تفاعلية مجانية للدارسين في مراحل التعليم المختلفة، تعد المدرسة العربية الإلكترونية أحد المواقع القليلة من نوعها في المنطقة، الهادفة إلى إدخال تكنولوجيا المعلومات للدارسين العرب كوسيلة لتعزيز قدرتهم على



التعلّم إلى أقصى حدودها، تقريبًا يحوي جميع العلوم.

الموسوي

www.al-musawi.com

وهذا موقع الدكتور علي بن شرف الموسوي والذي سيوافيك بمعلومات عن دراسات وبحوث قام بها عن تقنيات ووسائل التعليم ، بالإضافة إلى البحث في الوسائط التعليمية والتعلمية والتربوية والتعلم التعاوني ومراكز تكنولوجيا ومصادر ووسائط التعليم والتعلم الإلكتروني والشبكي والافتراضي.

تعلم الإنجليزية

www.learnenglish.org.uk

موقع لتعلم اللغة الإنجليزية، منها وإلى لغات عالمية متعددة منها اللغة العربية، يحوي ثلاثة أقسام للأطفال والمراهقين والكبار.

موقع منهاج

www.menhaj.com

يوفر دروسًا عديدة ومثيرة لمجموعة من المواد الدراسية، يمكن الاشتراك فيها بمبلغ رمزي، يحوي أيضًا توجيهات تربوية للمعلمين وأولياء الأمور.

مركز المدينة للعلم والهندسة

www.mmsec.com

يحاول الموقع بناء قاعدة بيانات علمية، وفنية، وهندسية باللغة العربية متنوعة المواضيع تفيد الباحث العربي.

منتديات الشريف التعليمية

www.alshref.com

منتديات حوار تهتم بكل أطراف العملية التعليمية من معلم ومتعلم وإدارات تربوية.

منتديات التربية والتعليم

www.moudir.com

أيضًا منتديات التربية والتعليم تهتم بوسائل التعليم وتوفير إجابات قدر المستطاع للمعلمين والمتعلمين.

موقع توجه الكيمياء

www.chemistry.dubaiezone.com

موقع يختص بالكيمياء، يحوي أنشطة وتجارب كيميائية باللغة العربية.

الرياضيات

www.mqt.8m.com

موقع شخصي لمعلم رياضيات هو الاستاذ محمد قاسم، يحتوي على روابط لعلوم عديدة.

كذلك طلاب الجامعات يستطيعون تصفح مواقع جامعاتهم على

www.raddadi.com/ksauniv.html ■

برنامج مفيد

Folder Lock

الحجم : ١,١٧ م.ب

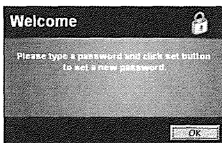
متوافق مع جميع إصدارات ويندوز

النسخة : ٤,٢٨٦ تجريبية

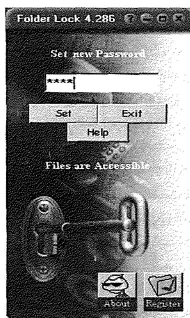
الموقع : www.newsoftwares.net

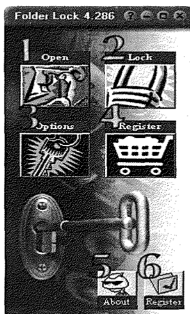
مهمة البرنامج: يقوم بصنع مجلد خاص تضع فيه كل مستنداتك الخاصة التي تريد إخفاءها عن الأعين أو تخشى أن يتم التعديل عليها، لن يتمكن أحد من الدخول إليها إلا بكلمة سرية تحددها بنفسك.

بعد تحميل البرنامج من الموقع وتنصيبه على النظام، نقوم بالنقر المزدوج على أيقونة البرنامج، ستظهر شاشة تطالبنا بوضع كلمة سر خاصة بنا:



نقوم بإدخال كلمة سرية ونضغط زر Set.





ستظهر بعدها شاشة أخرى تطالب بإعادة إدخال الكلمة السرية للتأكيد وضغط زر confirm.

الآن سنتحدث قليلاً عن مهمة الخيارات الموجودة في واجهة البرنامج بالترتيب:

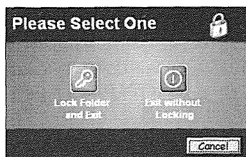
* Open هذا الزر يقوم بفتح المجلد الذي سيتم حفظ ملفاتك السرية في داخله وسيكون بالامتداد التالي C:\Program Files\Folder Lock\Locker
* Lock هنا يتم إقفال وإغلاق المجلد.
* Options هذه الخيارات تمكنك من تغيير لون البرنامج وتغيير الكلمة السرية وإلغاء تنصيب البرنامج.
* Register لتسجيل البرنامج.
* About معلومات عن البرنامج.

الآن لكي نحمي مستنداتنا الشخصية كل ما علينا فعله هو الضغط على زر open وسحب وإفلات المستندات أو الصور أو البرامج داخل هذا المجلد، بهذه الطريقة أوجدنا خزانة سرية نحمي بوساطتها أسرارنا، هذه الخزانة قادرة على استيعاب الكثير من الملفات والصور والبرامج الخاصة بك، لا حد لسعتها، أيضًا تستطيع إنشاء مجلدات فرعية داخل خزانتك ليسهل عليك ترتيبها.

عندما تنتهي من عملك و تريد مغادرة الجهاز كل ما عليك فعله هو أن تضغط على زر Lock وسيتم قفل المجلد، الأجمل أن المجلد يختفي حالما يتم قفله لكي لا يتم فتحه بوساطة قائمة البرامج.

ملاحظة

عند الضغط على زر × في أعلى البرنامج سيظهر لنا خياران:



Lock Folder and Exit ويقوم بنفس عمل Lock في البرنامج.

Exit without Locking ويقوم بإغلاق البرنامج دون إقفال الخزانة، وهذهِ تفيد في حالة العمل المطول على الجهاز أو عندما نثق بأن لا أحد سيقوم باستخدامه، بهذه الطريقة نستطيع فتح المجلد عن طريق البرامج وسيكون بالامتداد التالي:

C:\Program Files\Folder Lock\Locker

أفكار و حيل

بعيدًا عن أنظار المتطفلين

قم بعمل كلمة سرية على مستنداتك في برنامج المايكروسوفت وورد تمنع الغرباء من الاطلاع على خصوصياتك، لعمل ذلك اتبع التعليمات التالية:

* اذهب إلى أدوات ثم خيارات.
* انتقل إلى الأمان.
* اكتب كلمة مرور ثم اضغط موافق.
* قم بتأكيد كلمة المرور.
* الآن احفظ الملف بالطريقة العادية.



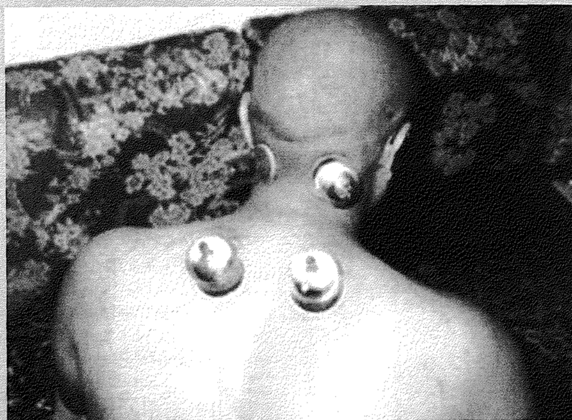
عندما تقوم بنقل هذا المستند من مكان لآخر أو إرساله إلى صديق أو حتى إن فقد أو سرق منك، لن يستطيع أحد فتحه إلا بكلمة السر التي وضعتها مسبقًا.

لإلغاء الحماية على المستند قم بالخطوات السابقة نفسها و امسح الكلمة السابقة بوساطة backspace وحفظ التغييرات.

سنة نبوية وعلاج فعّال :

الحجامة تعالج ٨٠ عرضًا ومرضًا

دلال عبدالله . الرياض



تعتبر الحجامة أقدم ممارسة طبية عرفها الإنسان، حيث انتشرت لدى الكثير من الشعوب واستخدمت كوسيلة فعالة لعلاج العديد من الأمراض، ابتداء من القدماء المصريين قبل الميلاد، مرورًا بدول شرق آسيا، وإن كان الآشوريون (وبما دلت عليه آثارهم والصور المنحوتة) أكثر الشعوب العربية البائدة استخدامًا لها.

ثم جاء الإسلام ليعلي من شأنها ولتحتل مكانة مميزة وعناية خاصة، حيث أصبحت الحجامة علمًا له قوانين وضوابط. فقد حوت السنة النبوية الكثير من الأحاديث التي تبين ممارسة الرسول الكريم ﷺ لها والثناء عليها وترشيحها كأفضل وسيلة سواء للوقاية أو العلاج.

فكان له الفضل ﷺ في سنّها وتقنينها للمسلمين، إلا إنه ما لبثت تلك السنة النبوية أن أحاطها شئ من الدجل والشعوذة. نتيجة الاستهتار والإهمال والانبهار بالطب الغربي، مما أدى إلى ابتعاد الناس عن التداوي بها، وانحصرت ممارستها كطب شعبي ليس عليه أي ضوابط أو قيود، بل وفيه الكثير من التجاوزات!

ومع فشل الطب الغربي وعجزه في معالجة بعض الحالات المرضية عاد الاهتمام بالحجامة أو (cupping) والطب البديل عمومًا وممارستها على أسس متينة تتبناها مدارس متخصصة في أنحاء العالم وفي الغرب قبل الشرق. ولكن للأسف ومع العودة القوية لهذا العلم نجد أن الحجامة بمفهومها النبوي غائبة عن ساحة الطب البديل، فلم تأخذ حقها من الاهتمام والاعتراف بها كمعالجة ناجعة للعديد من الأمراض.

ماهية الحجامة:

الحجامة أو (cupping) هي امتصاص قطرات الدم والأخلاط الفاسدة عن طريق محجم، إما بتشريط الجلد واستخراج الدم من مكان التشريط، أو بالضغط على مكان الألم دون تشريط.

وقد ثبت بالأبحاث فعالية الحجامة في علاج ثمانين حالة ما بين عرض ومرض. منها على سبيل المثال لا الحصر: الصداع وارتفاع ضغط الدم والآلام العضلية والعصبية والروماتيزم والأمراض النسائية... وغيرها.

ويثبت ذلك حديث ابن عباس، رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الشفاء في ثلاثة: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي» أخرجه البخاري.

لماذا الحجامة؟

تقوم الحجامة على التخلص من الدم الراكد، وهو الذي يحمل كرات الدم الحمراء الهرمة والشوائب الدموية والأخلاط الرديئة ويتجمع بمواضع معينة من الجسم. وهي

الأماكن التي تتميز ببطء حركة سريان الدم (المواضع التي احتجم بها الرسول) فيساعد التخلص منه على تدفق دم نقي مليء بكريات دم حمراء جديدة فتية، إضافة إلى زيادة مادة الإنترفيرون (مادة بروتينية تصنعها كرات الدم البيضاء) وهي مضادة للفيروسات، وتزيد من مناعة الجسم ضد الأمراض والعدوى. وصدق القائل: «الحجامة شفاء كل داء سببه غلبة الدم».

أوقات الحجامة ومواضعها

حدد الرسول ﷺ أوقاتًا بعينها يستحب الحجامة فيها، ففي حديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد الحجامة فليتحر لسبع عشرة، أو تسع عشرة. أو إحدى وعشرين، لا يتبيغ بأحدكم الدم فيقتله» رواه الترمذي.

أما التفسير العلمي لهذا التوقيت فإن للقمر تأثيرًا في الأرض في جذبه للمحيطات، وتكوّن المد وتأثيره في اليابسة والحيوانات أيضًا، منذ مولده كهلال إلى بلوغه مرحلة البدر حيث يساعد على زيادة نشاط الحيوانات في هذه الفترة، ويؤدي أيضًا إلى ارتفاع ضغط الدم عند اكتمال القمر. وهذا ما جعل الغرب يربط بين زيادة معدل الجريمة في هذه الأيام من الشهر ومراحل القمر.

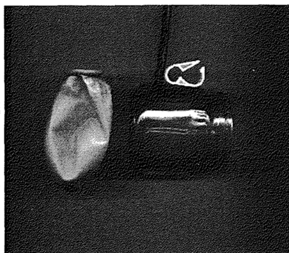
ففي الأيام الأولى وحتى الخامس عشر من الشهر يهيج الدم ليبلغ ذروته، محركًا كل الترسبات والشوائب الدموية لتحط رحالها في أهدأ منطقة بالجسم وهي الكاهل حتى تاريخ ١٧ ـ ٢٧ من الشهر، حيث يقل تأثير القمر في الجسم. وبهذه الفترة ينصح بالحجامة. بعكس لو أجريت الحجامة في تاريخ ١٢ ـ ١٥ من الشهر، فإن الدم يكون هائجًا ويحمل معه الكرات الفتية التي يحتاج إليها الجسم. أما في الأيام الأولى لولادة القمر لا يكون الدم قد حمل الشوائب والأخلاط الرديئة من الداخل إلى الخارج ليتجمع في أكثر الأماكن ركودًا.

وبذلك يتبين جليًا حكمة تحري أيام بعينها للحجامة، أما موعدها الفصلي فكما قال ﷺ: «استعينوا على شدة الحرِّ بالحجامة»، حيث تتسع الشرايين ويزيد تدفق الدم في الحر، ولذلك نجد أن العرب في السابق كانوا يستعينون بها في فصل الصيف.

وبهذا التوجيه النبوي حكمة تنطلق من قوله تعالى ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾.

أما مواضع الاحتجام من الجسم فهو في







الكاهل والأخدعين (عرقين في العنق) وباطن القدم، وهي ليست مواضع توقيفية بل بالإمكان عملها على مسارات الطاقة كما في الإبر الصينية.

وكثيرًا ما يتراءى للبعض أن التبرع بالدم مكمل للحجامة وأنه يقوم بالعمل نفسه، ولكن هناك اختلاف جذري بينهما، فبينما الحجامة تقوم بتنقية الجسم من الشوائب والأخلاط الدموية التي تسبب غلظة للدم وتزيد العبء على أعضاء الجسم الأخرى كالكبد والطحال. نجد أن التبرع بالدم يخرج من دم الشرايين النقي، وما يحمله من كرات دم حمراء فتية ومعادن وأملاح يحتاج إليها الجسم. وبذلك لا يوجد شبه بين العمليتين إطلاقًا، وإن كان التبرع بالدم أشبه بالفصد نوعًا ما.

الحجامة والإسلام

اعتنى الإسلام بالحجامة، حيث أوصى بها سيدنا محمد ﷺ واستحبّ التداوي بها، ورشحها في كثير من أحاديثه. فقد ورد ذكرها في أكثر من خمسة وعشرين حديثًا صحيحًا.

وكانت وصية الملائكة للرسول الكريم حين أُسري به ليلة الإسراء والمعراج، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: «ما مررت ليلة أسري بي بملأ من الملائكة إلا كلهم يقول لي عليك يا محمد بالحجامة» وفي رواية أخرى: «... يا محمد مر أمتك بالحجامة» رواه الترمذي.

وقد احتجم الرسول ﷺ مرات عدة طوال حياته، إما وقاية وإما علاجًا، وبذلك تكون الحجامة سنة من سنن الرسول ﷺ الغائبة عن أذهاننا، والتي ينبغي علينا الاقتداء بها. ومعنى الاقتداء هنا ليس وقت المرض فقط، بل تُتخذ كما اتخذها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أيام المرض والصحة على السواء.

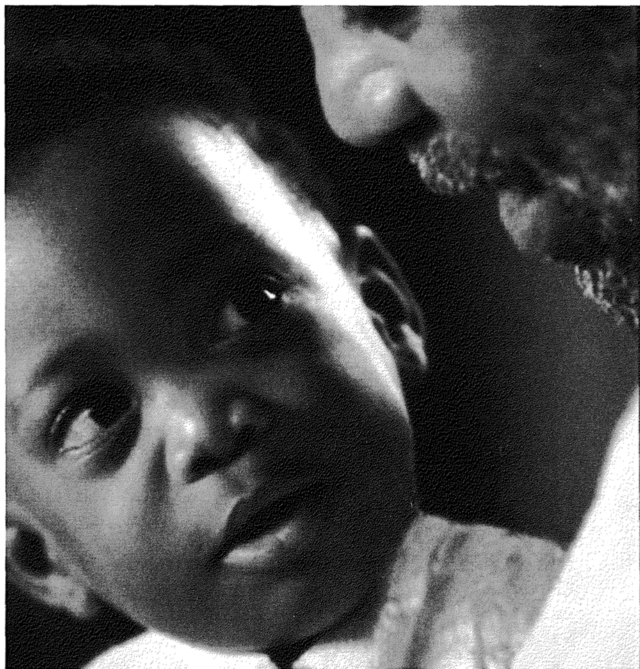
للأسف في الوقت الذي يعود فيه الطب البديل إلى الساحة مثبتًا جدارته، وتتفنن الشعوب في إعادة ما لديها من أنواع الطب البديل، نجد تجاهلاً كبيرًا من قِبل المسلمين للطب النبوي، بل ويقابل هذا الطب باستهتار وتقليل من جدواه اعتقادًا ممن جهل أنه طب شعبي لا يمارسه غير الأميين والدجالين.!

فلا نجد من يمارسه بمصداقية أو على أسسه التي وضعها سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم إلا ما ندر. ولا نجد مراكز أو دورًا تعليمية متخصصة في الطب الإسلامي تضع له ضوابطه وتقام فيها الأبحاث والدراسات الموثقة! والغريب أنه تُنشأ لدينا مراكز للتداوي بالحجامة الصينية، مستهينين بما نملكه من تراث إسلامي زاخر!! في حين تنتشر في مراكز الدول الغربية أبحاث حول الحجامة، وقد أضافته دولة كندا في بعض جامعاتها كعلم من علوم الطب البديل ينال عليه الطالب شهادة جامعية كمعالج بالحجامة. وفي أمريكا هناك جمعية متخصصة عملت أكثر من مئتي بحث في الحجامة. وتجدر الإشارة إلى ما قام به فريق الأبحاث السوري في كلية الطب بجامعة دمشق من أبحاث في الحجامة الإسلامية ساعدت على إحياء سنة الرسول ﷺ. ■

في الحوار مع الطفل

قل له: من فضلك...

نيفين عبد الله. مصر



«إن الفرق بين تأثير كلمة وأخرى يكمن في اختيار الكلمة المناسبة في الوقت المناسب». فالمشكلة الحقيقية تكمن في تواصلنا مع الطفل في الرد بنفس الأنماط المختزنة في الذاكرة من النماذج التي تعرضنا لها خلال مراحل الحياة المختلفة. وأغلبنا يرد دون ترك مساحة للتفكير في أسلوب الحوار الأكثر فاعلية.

وحوارنا اليومي مع الطفل يفضي حتمًا لأي من هذه النتائج الثلاث:

- الخلاف.
- التحاشي والانسحاب.
- التقارب والانسجام.

فإلى أي من هذه النتائج يفضي حوارك مع طفلك؟.. لمد جسور التواصل، إليك طرق الحوار مع طفلك:

*** أولاً: طريقة التعليم**

هذه الطريقة هي الأكثر شيوعًا بين الآباء، حيث يرى معظم الآباء أن مهمتهم الأولى في حياة الطفل هي تعليمه وإرشاده، وهذا يحدث يوميًا بل لحظيًا. فدائمًا ما يمر الابن بتجربة جديدة، أو تتاح له فرصة للتعلم. وقد يؤتي هذا ثمرته تعلمًا وتقاربًا، أو توترًا وإخفاقًا وضربًا لجذور تقدير الذات لدى الطفل، الأمر الذي يضيع معه الهدف في هذا النوع من الحوار (التعلم).

وحين تلجأ لهذا النوع من أنواع الحوار قل:

* «دعني أشرح لك ...».

* «يمكنني أن أساعدك في ...».

* «ما رأيك أن نجرب ...».

* «اختيارك رائع، أخبرني لماذا اخترت هذا الاختيار؟».

* «من فضلك.. انظر لي ثم افعل تمامًا كما أفعل ...».

* «لا يمكنك الذهاب لحمام السباحة لأن ...».

* «حين أخذت قلم أختك دون إذنها.. بماذا تظن أنها شعرت؟».

ولا تقل:

* «هذا غباء منك».

* «لا أصدق أنك فعلتها أخيرًا».

* «لا يهمك، سأفعلها أنا».

* «إذا بقيت هكذا، فلن تتعلم أبدًا».

* «خطأ.. ألم تقل إنك ذاكرت جيدًا؟».

* «لم لا تكون مثل أخيك - صديقك؟».

انتبه تمامًا لنبرة الصوت وملامح الوجه وطريقة الإلقاء. ولا تعلم طفلك وأنت مشغول أو متوتر أو محبط. كذلك تحيَّن فرصة استعداد الطفل ورغبته للتعلم. وتذكر دائمًا قول الله تعالى: **﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . . .﴾**.

*** ثانيًا: طريقة التعاطف**

إذا جاءك طفلك سائلاً: «أين تقع كوالالمبور؟»، وفي مرة أخرى سمعته يحدث نفسه غاضبًا: «ما شأني أنا بموقع كوالالمبور؟!».. ترى ما الفرق بين الحالتين؟ وترى هل نجيب بنفس الطريقة في الحالتين؟

الطفل في الحالة الأولى يسأل ليعلم، وهو في الحقيقة يريد مساعدته للحصول على إجابة. أما في الحالة الثانية فعليك أن تنفذ إلى ما وراء الكلمات من مشاعر إحباط وضيق من هذا الواجب الممل أو الصعب بالنسبة له، وما عليك هو تحسس احتياجه في هذا الوقت، فما يحتاج إليه ليست الإجابة، بل يحتاج إلى التعاطف مع مشاعره السلبية، وإدراك ما يعانيه من ألم أو إحباط أو مخاوف أو حزن أو غضب، والتحدث عن هذه المشاعر ووصفها بطريقة تساعد الطفل على تفهم حقيقة ما يشعر به.

فمثلاً تخيل أن ابنة جاءت إلى أمها من المدرسة شاردة، يبدو عليها الضيق، وأخبرت أمها أن صديقاتها لا يردن اللعب معها. ترد الأم: «ولا يهمك سيعود أخوك حالاً والعبي معه».

ما حاولته الأم التشجيع، وحل ما اعتقدت أنه مشكلة ابنتها. ولكن الابنة كانت تحتاج إلى شيء آخر: التعاطف مع مشاعر الإحباط لديها. وكان على الأم أن تقول شيئًا كهذا: «لا بد أن ذلك جعلك تشعرين بالضيق والغضب».

في هذه الحالة تدرك الابنة أن أمها تعرف وتفهم وتقدر مشاعرها، وأن مثل هذه المشاعر الغاضبة مقبولة وغير محرمة أو مرفوضة. والمتوقع غالبًا في مثل هذه الحالة استرسال الابنة في التحدث عن تفاصيل الموضوع، وربما طلب المشورة، إضافة إلى تخلصها من هذه المشاعر السلبية.

ويمكن أن يتبع التعاطف تعليم أي مساعدة في الحصول على إجابة أو تقديم نصح. ويصعب التعاطف وقت انزعاجك أو غضبك أو اضطرابك الشديد مما فعله ابنك. ويجب ألا تخلط بين التعاطف والتشجيع. ولذا قل:

* «أظنك محبطًا من سؤال كهذا...».

* «لا يمكنك تذكر هذه المعلومة...».

* «أرى أنك تجد صعوبة ما في فهم هذا الدرس، وهذا يضايقك...».

* «أنت حزين، عصبي، محبط، متضايق، من ...».

* «أخفقت في تسديد الهدف.. تشعر بالحزن لأنك سبب خسارة فريقك».

* «أعرف أنك تخاف من صعود السلم وحدك.. ولكن ما رأيك لو...».

* «أظنك سعيدًا بهذه الصداقة الجديدة مع...».

* «أراك سعيدًا جدًا باختيارك لقيادة الفريق... هذا جميل حقًا...».

ولا تقل:

* «أدرك تمامًا حقيقة مشاعرك...»، فأنت لم تقدم وصفًا لهذا الشعور، ولم تقدم دليلاً على أنك تفهمه.

* «أنا ما زلت أحبك على الرغم من ذلك»، ليس هذا ما يفكر فيه طفلك الآن، فلا تقدم للأرنب اللحم الذي تحبه أنت، فهو يحتاج إلى الجزر.

* «الموضوع ليس مشكلة كما تتصور»، لا تسفه مشاعره، فهو متضايق أو غضبان أو محبط حقًا، لأنه يرى بطريقة مختلفة عنك.

* «أعرف أنك غاضب، ولكن هذا أسلوب سخيف منك»، ليس هذا وقت التعليم أو التأديب الفاعل.

*** ثالثًا: أسلوب التشجيع والثناء**

هذا من أهم الطرق للإبقاء على السلوكيات السليمة في طفلك. اقتنص فعلاً حسنًا فعله طفلك وأثن على هذا الفعل المحدد. ولا تضيع فائدته باتباعه بنقد: «لقد فعلتها. ولكن بعد نفاد صبري».

قل:

* «أعجبتني الطريقة التي رتبت بها حجرتك»، كن محددًا بشأن ما تمدحه.

* «هل تذكر كيف استطعت فعل... من قبل؟ أعتقد أنك يمكنك فعلها مرة ثانية»، ذكّر طفلك بجهوده ونجاحاته السابقة.

* «كان من الممكن أن يغضبك تصرف أختك، ولكنك تحكمت في غضبك، هذا يدل على سعة صدرك. أشكرك».

ولا تقل:

* «ممتاز.. ممتاز»، حدد ما هو الذي تراه ممتازًا، ولا تفرط لدرجة عدم تصديق



طفلك ثناءك.

* «لا تقلق.. أنا واثق أنك يمكنك عمل...»، لا بد أن تتعرف أسباب قلقه عن قرب بما يجعله متأكدًا من فهمك له، وربما استخدمت أسلوب التعاطف قبل التشجيع.

* «كلنا معرضون للخسارة»، هذه ليست عبارة تشجيع أو تعاطف.. وقليلة هي الأوقات التي تصلح للوعظ.

*** رابعًا: طريقة التفاوض**

طفل يريد شراء دراجة جديدة. الأب لديه تخوف من نقطتين: عادة ابنه في التأخر في واجباته المدرسية، ولعب الطفل بالدراجة في الطريق.

عرض الأب على الطفل هذه المخاوف. وجاء رد ابنه مفاوضًا: «إذا لم أنه واجبي قبل السابعة، فلن ألعب بها».

رد الأب: «وإذا لعبت في الطريق؟».

الابن: «لن ألعب بها في اليوم التالي».

التفاوض طريقة يمارسها الطرفان عن قناعة وانضباط. فكلا الطرفين ينوي تنفيذ الجزء المسؤول عنه في الاتفاق. وهذا يختلف كثيرًا عن التفاوض الذي يحمل في طياته يأسًا. كأن تكون متوقعًا سلوكًا سيئًا، ثم تعرض مكافأة: «إذا لم تصرخ في المحل فسأشتري لك الآيس كريم» هذه رشوة وليست تفاوضًا.

والتفاوض عادة يستخدم حين الرغبة في الحصول على مزيد من الحرية مثلاً من قبل الابن، كأن يقضي وقتًا أطول مع أصدقائه أو السهر وقتًا أطول مع الأسرة في المنزل. وفي هذه الحالة لا بد من ذكر أن كل حرية يقابلها مسؤولية. والتفاوض بفاعلية يعني أنك مستعد للتكيف مع رغبات ابنك الممكنة، وفي الوقت نفسه لا تتوان عن محاسبة المسؤول، وهذا يزيد من فرص التعاون بين الطفل والأهل مستقبلاً.

قل:

* «قبل أن تذهب إلى المباراة عليك عمل...».

* «أعرف أنك تريد الذهاب للرحلة، ولكن لن يمكنني دفع كل التكاليف.. هل لديك مقترحات؟».

* «أعرف أن هذا سيكون رائعًا.. فكيف...».

ولا تقل:

* «هل تعدني أن ترجع مبكرًا إذا وافقت على ذهابك...» بالطبع سيعدك، ولكن هذا ليس تفاوضًا، لا بد أن يكون هناك تبعات لوفائه بوعده أو عدم وفائه.

* «إذا كنت هادئًا في نصف الساعة المقبلة فسأشتري لك...» هذا ابتزاز ورشوة وليس تفاوضًا.

التفاوض هو الحالة التي نصافح بعضنا بعضًا ونهتف بحماس: اتفقنا.

*** خامسًا: طريقة الأوامر والنواهي**

هناك بعض الأوقات التي نفضل فيها هذا الأسلوب دون غيره من أساليب التعليم أو التفاوض. وغالبًا ما يتم ذلك وقت الخطر. أو عدم الاستعداد لإبداء الأسباب أو التفاوض وقبول بدائل.

قل:

* «أعرف أنك لا تحبذ فعل ذلك، ولكن القاعدة تقول...».

* «ارتد معطفك قبل الخروج».

* «كف حالاً عن لعب الكرة في المنزل».

* «مرفوض أن تضرب أخاك».

* «يحين موعد نومك بعد ٥ دقائق.. اغسل أسنانك».

* «هذا موعد العشاء.. قم بإطفاء التلفاز».

ولا تقل:

* «ما الذي تحدثنا عنه حالاً؟» .

* «طالما أخبرتك أن...».

* «لم يعجبني ردك عليَّ بهذه الطريقة».

لا بد من أن يعبر الأمر أو النهي عن رأيك الشخصي: «لا أريدك أن تخرج دون معطفك».

الأمر والنهي لا بد من أن يكون واضحًا تمامًا، فلا تستخدم الكلمات الغامضة مثل: لا تفعل هذا... سم هذا الذي تقصده.

كل من هذه الطرق يمثل جسرًا للوصول إلى أطفالنا، وكلما استخدمنا عددًا أكبر منها زادت الجسور وزادت احتمالية الوصول.

«إذا كنت هادئًا في نصف الساعة المقبلة فسأشتري لك . . .» هذا ابتزاز ورشوة وليس تفاوضًا .

التفاوض هو الحالة التي نصافح بعضنا بعضًا ونهتف بحماس : اتفقنا

■ في جازان حرارة المشاعر تبرد حرارة الصيف

■ عادوا من الحج

■ المشرف التربوي . . «صفوة الصفوة»!!

سبورة

تعقيبًا على «جازان في الذاكرة»:

في جازان حرارة المشاعر تبرد حرارة الصيف

حجاب الحازمي - جازان

من العوامل التي جذبتني لإعادة قراءة يوميات معلم للعدد (١٠١) أنني أشترك مع كاتبها في أمور كثيرة، أهمها كوني كنت معلمًا خلال الفترة التي تحدثت عنها تلك اليوميات، ولعل الأهم أنني واحد من مواطني تلك البلدة العلمية العريقة (ضَمَدْ) التي كانت مسرحًا لذكريات كاتب يوميات ذاك العدد حيث تحدث الأستاذ مصطفى ياسين عن طيبة أهلها، وحسن رعايتهم للضيف، وعن حبهم للعلم وتقديرهم للمعلمين كما تحدث عن بعض مفردات حياتهم الاجتماعية، وعن لهجتهم المحلية التي يشاركهم فيها وفي كل المحامد مواطنو منطقة جازان. كما أشار إلى بداية مراحل التنمية التي غيّرت وجه الحياة في (ضَمَدْ) وفي منطقة جازان بل في كل أرجاء بلادنا الغالية (المملكة العربية السعودية) حفظها الله من كل سوء.

لذلك ولغيره وجدتني مدفوعًا لمشاركة زميلي المعلم (مصطفى ياسين) في بعض هذه الذكريات. أما عن بلدة ضمد التي آثر العودة إليها المعلم الوفي (مصطفى ياسين) فقد كانت جديرة منه بهذا الحب وبهذا الحنين ليس لأنها بلدتي ومسقط رأسي، بل لأنها إلى جانب ما ذكره عنها وعن أهلها وعن أهالي منطقة جازان من طيبة وحسن تعامل بلدة العلم والتاريخ والأدب، بلدة علامة الجزيرة العربية وشاعرها في القرن السابع الهجري: القاسم بن علي بن هتيمل الضمدي ومواطنه ومعاصره الشاعر منصور بن سحبان الضمدي الذي ترجم له العلامة المؤرخ الفاسي في كتابه الموسوعي العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»، ولأنه بلد الأسر العلمية العريقة في القرون: العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر الهجرية: كأسرة العلامة محمد بن علي بن عمر أحد أجداد العلامة الشيخ يحيى بن أحمد عاكش مدير المدرسة التي عمل بها الأستاذ مصطفى ياسين، وكأسرة آل البهكلي، وأسرة آل الحازمي، وأسرة آل المعافى... وغيرها من أسر تلك البلدة العريقة التي قال عنها مؤرخ الجزيرة العربية في القرن العاشر الهجري العلامة أحمد بن أبي الرجال في كتابه الشهير «مطلع البدور ومجمع البحور»: إن ضمد لا تخلو من عالم بليغ أو أديب محقق!

وهي البلدة التي عُثر في إحدى مكتباتها في عصرنا الحاضر على النسخة الخطية لكتاب (فتح الباري شرح صحيح البخاري) وكانت النسخة الكاملة لهذا السفر العظيم الذي تم تحقيقه وطبعه بالاعتماد عليها. لذلك فلا غرو أن تكون بلدة ضمد مُحبَّة للمعلم ومقدرة للمعلمين ومحتفية بهم ومكرمة لهم، كما وصفها وأهلها بذلك الأستاذ مصطفى ياسين. إذًا فلا غرابة إن أحببتها أيها المعلم الوفي مصطفى ياسين بل شكرًا لنبلك، وشكرًا لوفائك، شكرًا لحبك الذي ما زلت تحمله لهذه المدينة العريقة وأبنائها الذين أحبوك كما أحببتهم. وأود أن أطمئنك أن ضمد العلم وضمد التاريخ وضمد التآلف مازالت تذكر بالخير أيديكم التي أسديتموها في خدمة أجيالها المعاصرة، أنت وزملاؤك الكرام مازالت تذكر بكل التقدير وبكل الحب:مصطفى ياسين، وخليل عوض، وموسى خير، وإبراهيم عثمان، وعبدالإله أبوالمحسن رحمه الله، وأحمد ناشد رحمه الله، ومحسن البلتاجي، وسعد أبويمن ووو....، وكواكب سيارة من رجالات التربية والتعليم مرت على هذه المدينة العلمية العريقة، فأسهمت بجهود علمية وتربوية مشكورة في خدمة أبنائها وتربية أجيالهم فجزاكم الله خير الجزاء وليسمح لي الأستاذ مصطفى ياسين بعد أن أعادنا إلى بعض الذكريات الجميلة إلى ذلك الماضي الأجمل بأن أستعيد معه بعض الصور مع الاحتفاظ بالبعض الآخر لتظل في مخدع الذكريات الحلوة:

وحبب أوطان الرجال إليهم

مآرب قضّاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو

عهود الصبا فيها فحنوا لذالكا

ليسمح لي بأن أقف معه بعض الوقفات:

الأولى: تذكير أخي الأستاذ مصطفى ياسين الذي أشار في ذكرياته الجميلة إلى (استغراب ذلك المسؤول من رغبته في العودة إلى منطقة جازان بعد انتقاله منها) بما يلي:

أولاً: استغراب الوفاء من مثلك غير مقبول فأنت يا أستاذ مصطفى من ذوي الفضل ولا يعرف الفضل إلا أهله، فالذين

استغربوا - آنذاك - رغبتك في العودة إلى منطقة جازان بعد انتقالك منها وهي بلد الحب والعطاء لا يعرفون طيبتك ولا يعرفون طيبة أهاليها كما عرفتها أنت وبعض من عمل بها أو أقام فيها وتعامل معهم، فمنطقة جازان كما تعلم تتميز بالكرم وحسن التعامل وحرارة مشاعر الود والإخاء والتآلف وحب أهاليها للضيف، وحرصهم على دمجه في مجتمعهم المتآلف المتعاطف، لذلك فإنني ومع تقديري لنبلك ووفائك الذي عبرت عنه في مواقف كثيرة، أود أن أطمئنك بأنك واحد من محبين كثيرين ممن أسهموا في دعم مسيرة التعليم أو قدرت لهم المشاركة في برامج تنموية أخرى لهذه المنطقة وظلوا على وفائهم الصادق يحنون لها مثل حنينكم، ويحتفظون لها بمقدار كبير من رصيد المحبة والوفاء ونبل المشاعر مثلكم، ويتواصلون مع زملائهم ومعارفهم وتلاميذهم ومحبيهم مثل تواصلكم، ويؤكدون وفاء الرجال. ولأنني ممن يحتفظون ببعض الرسائل، فلدي عدد من رسائل بعضهم تؤكد هذه الجوانب الإنسانية الرفيعة وتمثل شرائح من بلدان عربية شقيقة ما زالوا يتواصلون معنا ويعبرون في رسائلهم عن صادق الود.

ولعل صديقنا الكريم الأستاذ مصطفى ياسين قد أوضح لأولئك الذين استغربوا رغبته تلك في العودة إلى منطقة جازان ممن لا يعرفون بأن حرارة المشاعر الصادقة وكريم التعامل لدى أبنائها يطغى على حرارة وغبار الصيف!! وتجعل من يتعامل معهم ينصهر في مجتمعهم ويختلط نسيجه الاجتماعي بنسيجهم فيظل غالبيتهم يحتفظون لهذه المنطقة وأبنائها بكل الحب وكل الوفاء أينما رحلوا !!

ثانيًا: أرجو أن يسمح لي الأستاذ مصطفى ياسين ببعض الطلبات:

الأول: دعوته لزيارة المنطقة على أن تتزامن مع قيامه بزيارة لبيت الله الحرام والتمتع بالعمرة، راجيًا أن يسمح لي أخويًا بتقديم تذكرة السفر والعودة، وأن يكرمني بالإقامة في ضيافتي (إن لم يكن في ذلك إزعاج له أو مضايقة) ولكنه رجاء الصديق الذي يحتفظ له بصادق المودة. آملاً أن أجد رده بالموافقة عبر رسالة شخصية على عنواني.

الثاني: أستأذنه في الإشادة ببعض مواقفه النبيلة التي تؤكد أصالته ونبله ووفاءه ومنها:

* عدم نسيانه لمن تعامل معهم بأخلاقه الإسلامية العالية وعامله بما هو أهله من حسن تعامل وكرم معشر، فها هو يذكر في مقاله الأخير هذا وذاك، وها هو يتذكر بكل التقدير ذلك الموظف بوزارة الصحة آنذاك، ويشير إلى حسن استقباله له وكرم ضيافته.. وما غمره به من حب وحفاوة وترحاب.

ولو شاء لقال: إنه الأستاذ عابد بن يحيى الحازمي ذلك الرجل الاجتماعي الخلوق المثقف سليل الأسرة العلمية الشهيرة. والجميع هنا في ضمد عابد الحازمي، والجميع نشكر له مشاعره النبيلة.



ومصطفى ياسين سبق أن أشاد بأحد طلابه النابهين، سبق أن أشاد بالمهندس الخلوق جدًا جدًا: (حسن محمد صديق) ونعته بما هو أهله مما جعل المهندس (حسن) لا يكتفي برسالة أو مقال مماثل يرد به على ثناء أستاذه مصطفى بل زاره في مكان إقامته بالأردن الحبيب، ومصطفى ياسين هذا هو ذلك الإنسان الوفي المحترم الذي فاجأني وفاجأ طلابي وطلابه أبناء ثانوية ضمد في أثناء التجمع الكشفي بمنطقة الجوف الذي فازت فيه ثانوية ضمد بالمركز الأول على مستوى المملكة وذلك في عام ١٤٠١هـ، حيث قام بزيارة أخويه لمخيم ثانوية ضمد وفرغ نفسه من أعماله الكبيرة والكثيرة آنذاك يومًا كاملاً، شارك فيه كشافي ثانوية ضمد نشاطاتهم الثقافية والكشفية وبارك لهم فوزهم وعبر لهم عن كامل سروره وبهجته كواحد من مسؤولي المدرسة بل من أهالي المنطقة التي حقق أبناؤها الفوز، ولم نستغرب ذلك من رجل شهم كمصطفى.

ولا أنسى موقفه الأروع وهو يودعنا بدموع الإخاء الصادق، ويحمّلنا هدايا لبعض محبيه في بلدته ضمد، وأستأذنه لأكشف عن إرساله معنا بصدقات لفقيرات يعرفهن بالاسم من مواطني بلدته ضمد اللواتي جاورهن في أثناء فترة إقامته بهذه المدينة.

فتحية لرجل الوفاء والنبل والأصالة الأستاذ مصطفى ياسين الذي أعادنا إلى هذه الصور الجميلة، وتحية لمجلة المعرفة والقائمين عليها.

سبورة

عادوا من الحج

شعر: محمد أبو العز - شرورة

وركب كمثل الفجر يقبل مشرقًا ... بهيًا مضيئًا باسم القسمات
يجيءُ إلى أرض الحجاز ملبيًا ... عليه وقار واثق الخطوات
يسير بأرض سار فيها نبينا ... ينير بهدي حالك الظلمات
مطهرة الأجواء طيبة الثرى ... منورة الأعلام والجنبات
ملائكة الرحمن تزجي تحية ... لزوار بيت طاهر العرصات
هنيئًا لمن لبوا نداء مليكهم ... وجازوا إلى أم القرى الفلوات
وجاؤوا يحثون الخطى لمغانم ... وكلهم شوق إلى عرفات
كأنهم ما عاينوا من مشقة ... وما كابدوا في الدرب من عقبات
إذا شاهدوا بيت المليك تحادرت ... دموعهم كالغيث منهمرات
يطوفون بالبيت المطهر سبعة ... متممة الأشواط مكتملات
و«زمزم» يجري ماؤها متدفقًا ... تفيض على قصادها البركات
ويسعون سبعًا بادئين من الصفا ... يسيلون في الوادي مسيل فرات

* * *

ويوم يرى فيه الحجيج كأنهم ... لحشرهم سيقوا بغير أناة
أفاضوا من «الخيف» الرحيب ومن «منى» ... ومن كل فج قد أتوا عرفات
وقد لاح نور الفجر في كل جبهة ... مطهرة فيها سنا السجدات
وفي عرفات الله أعظم مشهد ... كمشهد يوم العرض بعد ممات
يباهي به الرحمن أهل سمائه ... ويدنو إليه ينشر النفحات
يقول انظروا ها هم عبادي قد أتوا ... يُرَجُّون نيل العفو والحسنات
فأشهدكم أني محوت بعزتي ... وعفوي وجودي ماضي الهفوات
وأشهدكم أني أفيض عليهم ... بموقفهم من واسع الرحمات
وساروا إلى جمع يلبون ربهم ... وقد ودعت شمس السما عرفات
وباتوا «بجمع» والملائك أنزلت ... عليهم من الرحمن بالبركات
إلى الجمرة الكبرى أفاضوا لرجمها ... بأيديهم سبع من الجمرات
يذيقون إبليس الرجيم لهيبها ... ويصلونه نارًا من اللعنات
أفاضوا إلى البيت المقدس من «منى» ... وطافوا به سبعًا بكل أناة
وآبوا إليها يرجمون جمارها ... يهلون بالأذكار والدعوات
ولما دنا وقت الرحيل توافدوا ... يفيضون حول الكعبة العبرات

يودون لو أن الحجاز مقامهم ... ومثواهم من بعد طول حياة
وعادوا وقد أدوا مناسك حجهم ... وسالت بهم وديان كل فلاة
فسبحانك اللهم أنت جمعتهم ... صنوفًا من الألوان واللهجات
وساويت بين الكل دون تفاوت ... وفاضلت في الإيمان والقربات
سواسية لا يعرفون وجاهة ... لمال غني أو لقدر سراة

* * *

وللحج غايات ونبل مقاصد ... وفي الحج آيات وحسن عظات
وخفض جناح للخلائق رحمة ... وصبر على العاتي من العقبات
وما الحج إلا دوحة عذبة الجنى ... مذللة الأفنان والثمرات
فيا رب يسر لي بفضلك حجة ... تجب ذنوبًا سودت صفحاتي

المشرف التربوي.. «صفوة الصفوة»!!

ناجي بن عايض السبيعي - بيشة

يتحدث كثير من التربويين وعلى رأسهم معالي الوزير عن المشرفين التربويين بأنهم صفوة الصفوة، ويتحدث بعضهم الآخر عن الإشراف التربوي بأنه العملاق النائم، ويترنح المشرفون التربويون في الميدان التربوي في ظل عدم وجود آلية محددة ودقيقة تبين عمل المشرف التربوي!!

ويطالب المشرف التربوي بالكثير والكثير، ولم يُقدم له إلا النزر اليسير، فهو يفتقر إلى الدورات المتخصصة في الجامعات والمعاهد المتخصصة سواء داخل المملكة أو



خارجها، فلا تتوفر سوى مقاعد قليلة يتنافس عليها الكثير فيمضي المشرف أعوامًا عدة لم يتلق فيها دورة تدريبية واحدة.

ورغم حرص الوزارة على كل ما يخدم أطراف العملية التعليمية بدءًا بالطالب ثم المعلم وانتهاء بما يتعلق بهما من مبان وتجهيزات إلا أنها تتناسى المشرف التربوي ودوره الفاعل في العملية التربوية والتعليمية، فالضبابية وعدم الوضوح تكتنف عمله، والاختلاف وارد بين إدارة وأخرى، ثم تأتي الوزارة - مشكورة - هذا العام بخطاب وكيل الوزارة للتعليم رقم ١٥٥٧٩١ وتاريخ ١٤٢٤/٤/٢٣هـ لتؤكد حقيقة العراقيل التي تحبط المشرف التربوي، فلا يتمكن المشرف التربوي من النقل إلى محافظة أو إدارة تعليمية أخرى إلاوفق ضوابط معينة في تلك الإدارة رغم وجود الاحتياج فيها وضمن حركة نقل المعلمين الداخلية أو الخارجية!! بل ويحرر تعهدًا بأن يعمل معلمًا بعد أن أمضى سنوات عدة في مجال الإشراف التربوي، وكأن تلك الإدارة أو غيرها لا تندرج تحت منظومة وزارة التربية والتعليم، ولها من الأنظمة والضوابط ما يختلف عن غيرها من الإدارات!!



عبدالله القرعاوي:

عملت بالمثل القائل

«أخسر فلوس تكسب أخوان» .



نوتة:

هل «التربية»

من نافلة «التدريس» ؟



عبدالله عبدالرحمن الزيد:

لا نريد صناديق للأدباء!

حياة كل واحد منا جملة من النجاحات والإخفاقات . .
وأجمل شيء أن يترك الواحد منا الحديث عن نفسه، ويدع الآخرين يتحدثون عن إنجازاته ونجاحاته. حسنًا . . وعماذا هو يتحدث إذًا، عن إخفاقاته؟ ربما!
الفشل ليس عيبًا، فهو وقود الانتصارات . .
«المعرفة» تريد من هذا الباب أن تقول للشباب من الجيل الجديد إنه ليس هناك إنسان لم يذق طعم الفشل في حياته، نريد أن نقول لهم إن الجيل الذي سبقهم هو جيل إنساني يخطئ ويصيب . . ينجح ويفشل، ثم ينجح مع الإصرار.
ف: فرصة تمنحك إياها – المعرفة – لتسجيل اعترافاتك.
ش: شهادة.
ل: ليس عيباً أن تفشل . . ولكن العيب أن تزعم أنك لم تفشل في حياتك!
وضيف هذا العدد هو:الاستاذ الأديب / عبدالله القرعاوي.



عبدالله القرعاوي :

فشلت في جمع «التحويشة»!

أهم ما يميز تجربتي الطويلة والعميقة مع الفشل، انه كان فشلاً متنوعًا، ومنحني خبرات أكثر تنوعًا، حيث عاصرت تجربتنا ـ أنا وأبناء جيلي ـ فترة تاريخية زاخرة بالتغير السريع، والتطور المتنامي، وكانت هذه التغيرات والتطورات تضع معارفنا وخبراتنا الحياتية في محكات حقيقية، تتعلق بقدرتنا الذاتية وبالظروف المحيطة بنا: اجتماعيًا،واقتصاديًا، وثقافيًا.

من هنا جاء التنوع الذي جعلنا نحصل على خبرات متنوعة ونجاحات متنوعة كذلك.

* فشلت في، اجتياز أول اختبار (عاطفي) واجهته، فقد كان هذا الاختبار العاطفي هو الأهم في حياتي، كنت في السادسة من عمري حين فتحت المدرسة الحكومية في مدينة عنيزة ١٣٥٦هـ فدخلتها مع أبناء خالي عبدالله الخويطر ـ رحمه الله ـ ثم تركوا المدرسة لسفرهم إلى مكة المكرمة للالتحاق بوالدهم، وكنت متعلقًا بهم كأنهم أشقائي، وهم اثنان: أحدهم في سني وهو معالي د. حمد الخويطر، والآخر أكبر مني وهو معالي د.عبدالعزيز الخويطر. وكان هو مرشدنا، وإخوتي الأشقاء أحدهم أكبر مني والثاني أصغر مني سنًا. لم أكن قادرًا على الالتحاق بقافلة السفر الصغيرة التي كانت تضم معهم والدتهم وأختهم الصغيرة، واكتفيت بالأسى والحزن والبكاء والإضراب عن الذهاب إلى المدرسة، ولكن والدتي ـ رحمها الله ـ وقفت مني موقفًا حازمًا فأجبرتني إما على العودة إلى المدرسة بجدية وإما البدء عند المطوع أو الكتاب كحل نهائي لمشكلتي التي أحدثها سفر أبناء خالي.

* كثيرًا ما كنا نفشل في تدبير ما تحتاج إليه مدرستنا الناشئة من الطباشير التي كانت تصلنا على فترات متباعدة من مديرية المعارف في مكة، وربما لا تصل أحيانًا وكان أستاذنا صالح بن ناصر الصالح يلقننا ـ رحمه الله ـ أشياء نافعة جدًا لدراستنا ولحياتنا في المستقبل ما يجعلنا نعتمد على أنفسنا ونبتكر أشياءنا التي نحتاج إليها، فكان إذا انقطع وصول الطباشير من مديرية المعارف بمكة المكرمة خرج بنا إلى البر وعلمنا كيف نختار نوعًا من الجص الهش الأبيض وهو ما يطلق عليه في عنيزة (مصلى الغراب) ونشويه على النار، ثم (نسحنه) بحجر حتى يصبح دقيقًا ناعمًا، ثم نبلله بالماء ونلفه بورق على هيئة أصبع لنعمل منه طباشير للمدرسة.

كانت هذه العملية في أولها شاقة، ولكن الطلاب بعد فترة أصبحوا قادرين على إنتاج كميات كبيرة تغني المدرسة عن الانتظار الطويل، وسارت المدرسة وطلابها ووراءهم



- تركت المدرسة بعد فشلي في أهم اختبار (عاطفي) .
- صنعنا الطباشير في عنيزة من (مصلى الغراب) .
- في مكة المكرمة فشلت في مواجهة (الهواجس) .
- قسوة مدير المعارف لقنتني درسًا في الاجتهاد .

لازلت أتمنى أن أدرس اللغة الألمانية .

أخطأت في اختيار طريق المستقبل .

نجحت مع اليمامة «شكلاً» وفشلت «مضموناً» .

عملت بالمثل القائل « أخسر فلوس تكسب أخوان» .



عبدالله القرعاوي

أساتذتهم ومدير المدرسة، ومنشئها شيخنا الأستاذ صالح بن صالح على هذا المنوال فترة حتى فرجت أزمة الطباشير.

* فشلت في التعبير عن فرحتي وسعادتي بالسفر إلى مكة المكرمة، وحين رأيت الكعبة المشرفة للمرة الأولى، وما زلت أتذكر وبعد أكثر من نصف قرن كيف كانت تلك الرعشة في قلبي الصغير، إنها لحظة من اللحظات التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات، فهي لحظات يمكن التعبير عنها بدموع الفرح وبدموع التأثر. إنها رعشة العجز الذي يقابل الإنسان فيقف أمام تلك اللحظات الكبرى في حياته موقف الحيرة، موقفاً لا يمكن تفسيره إلا إنه التحام روحي على درجة كبيرة من السمو والانعتاق!!

* فشلت في مواجهة هواجس النقلة النوعية الأولى في مسيرتي التعليمية، فعندما انتقلت إلى مكة المكرمة لإتمام دراستي، أقلقني وشغل تفكيري - بدرجة كبيرة - أنني سأتعامل مع طلاب جدد في مكة لا أستطيع أن أفهم لهجتهم، وسوف أتعامل مع مدرسين ومدرسة قد يكون نظامها مختلفاً عن نظام مدرستي في عنيزة، فبدأ يساورني شعور بالخوف من الفشل في الدراسة، وأنا الذي كنت متفوقاً بين أقراني، ولكن هذا الشعور دفعني إلى نوع من التحدي الإيجابي، فصرت أسأل أبناء خالي عن كل صغيرة وكبيرة فيما يخص المجتمع من حولي.

* وجدت في اللهجة المكية اختلافاً بيناً في تسمية كثير من الأشياء، أو في التخاطب والتواصل بين الناس أو بين الأطفال في الشارع؛ فأبديت خوفاً من أنني لن أنسجم مع زملائي في المدرسة، ولكن ابن خالي (عبدالعزيز) بدأ يسهل لي الأمر ويشرح لي بعض الكلمات التي لا أفهمها ويرددها أمامي ويشرح لي معناها.

* فشلت في اختيار التخصص الدراسي الذي يلائم طموحي وميولي وقدراتي، فلو استقبلت من أمري ما استدبرت لاخترت تخصص الصحافة لأكمل دراستي، وأرضي حاجة عميقة في نفسي، وهواية لها في فؤادي كل احترام، وحين أنظر الآن إلى المشوار الذي قطعته بعد إكمال دراستي الجامعية، أبدأ في فتح حوار ساخن مع نفسي، ألقي فيه باللائمة على الظروف التي كانت تحيط بي، وأحمل شبابي الغض تلك الخطوة التي لم أحسب لهاحساباً لأنني لم أستطع أن أستجلي آفاق المستقبل.

فالطالب حينما ينهي دراسته الثانوية يجد نفسه على مفترق طرق طويلة وغامضة، حائراً بين عدة تخصصات، وتتقاسم آماله وطموحاته آفاقاً كثيرة بموازين تتحكم فيها العاطفة الغضة التي لا تستطيع أن تحسن الحكم على الأشياء، ولذا يندفع الشباب إلى دروب المستقبل بحسب هواجس الشباب المقصر وبحسب تأثيرات البيئة التي تحيط به، والشلة من الإخوان والزملاء الذين تجمعهم به مقاعد الدراسة،ولذا فإنني في كل مناسبة أسجل هذا الألم المر. إنني أخطأت طريق المستقبل إلى عالم الصحافة الفسيح.

* فشلت في اجتياز اللغة الإنجليزية التي كان عليّ اجتيازها لإتمام مؤهلاتي للابتعاث إلى مصر، فقد كان فضيلة الشيخ محمد بن مانع، مدير المعارف آنذاك، حريصاً على أن يختار للبعثات من يرى أنه قد اجتاز الامتحان بكفاءة واقتدار.

وحين قابلته، قال: هل تجيد اللغة الإنجليزية يا قرعاوي؟

فارتبكت وزاد ارتباكي حين قال لي: أنه سوف يطلب من أحد الأساتذة المصريين أن يمتحنني فإذا نجحت فسوف يوافق على بعثتي وإلا فخير لي البقاء هنا!

دارت الدنيا بي وأصبحت في موقف لا أحسد عليه ولم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة إجابة له، وخرجت بالصمت

عن (لا ونعم).كما يقول الشاعر!

ونادى علي أستاذ يعمل معه ووجه لي بعض الأسئلة التي أجبت عن بعضها ولم أستطع الإجابة عن أكثرها.

ألقى عليّ الشيخ ابن مانع محاضرة في أهمية اللغة الإنجليزية للدراسة في الخارج، والمستوى المطلوب، وأن مستواي متواضع ولن يجعلني قادرًا على دخول الجامعة في مصر.

خرجت من مكتب الشيخ ابن مانع والدنيا أمامي كأنها سم الخياط.

لقد أصدر قراره ضدي بقسوة لم أكن أتوقعها فهو مشهود له - رحمه الله - بالعطف على الطلاب، ولكنه فيما يبدو أراد أن يؤدبني ويلقنني درسًا في الجد والاجتهاد حتى أحصل على ما أريد.

* فشلت في إكمال دراستي العليا والانضمام إلى سلك الجامعة كعضو في هيئة التدريس لأسباب تعود إلي شخصيًا ولأسباب أخرى تعود للآخرين، فقد شغلني العمل الإداري وأخذ جل وقتي ولم يسعفني لاستكمال الأبحاث التي تؤهلني لمثل هذا.

وفشلت في دراسة اللغة الألمانية، وما زلت حتى الآن أتمنى أن أسافر مرة أخرى إلى ألمانيا وأدرس اللغة الألمانية من جديد لفترة بسيطة وسوف يعينني على إتقانها ما أعرفه من قواعد ومعلومات درستها من قبل ٣٧ عامًا

* فشلت في ادخار المال اللازم لتمويل مشاريع المستقبل، بعد التقاعد لا يوجد لي سوى أفكار تتعلق بالكتابة والنشر ولا أفكر في المشاريع التجارية، وقد أفكر في إقامة دار نشر لو وجدت أحدًا يساعدني ماليًا، فلم أنجح في أن «أحوش» حتى ما يسند مثل هذا المشروع، لكنني أؤمن بأنني نجحت في «تحويش» ما هو أجمل من ذلك، هذا المجموع المهيب من الأصدقاء والمحبين. فقد عملت بالمثل القائل: اخسر فلوسًا، تكسب إخوانًا.

* فشلت في تحقيق عدد من الطموحات عندما كنت مسؤولاً عن مؤسسة اليمامة الصحفية، فقد تمنيت لو أنني نجحت في تطوير مجلة اليمامة في إبان مرحلتي، حيث حصل تطور في الشكل لكن الموضوعات ظلت تراوح في محلها دون تطوير.

* فشلت في تحقيق حلم سعودة الكادر الفني في مؤسسة اليمامة الصحفية، وقد استعنت بوزير الإعلام حينذاك د. محمد عبده يماني لمساعدتي في ذلك، ووعد خيرًا وخرجت من مؤسسة اليمامة قبل أن أرى السعودة في مثل هذه الأعمال، وحاولت التغلب على مشكلة التوزيع في المحافظات البعيدة التي تعجز إمكانات المؤسسات عن الوصول إليها، وقد تلقيت المساعدة من د. يماني ومن الخطوط السعودية.

* فشلت حتى الآن في أن أنجز جمع قصائدي في ديوان واحد يضمها جميعًا، وما زال هناك محاولات للتخلص من هذا الفشل، وساهم في ذلك الأستاذ حمد القاضي ومعالي د. عبدالعزيز الخويطر، وقد تمكنا من إقناعي بإصدار كتاب سيرتي الذاتية الذي أنوي كتابة جزء ثان منه يشتمل على تجربتي العملية في الدولة وفي المؤسسات الصحفية وفي الكتابة والشعر.

* فشلت في التغلب على صفة المجاملة لزملاء المهنة في المطبوعات المختلفة، والتي تنقّل قلمي للكتابة فيها، وفشلت أيضًا وبالمقدار نفسه في مواجهة مطالب أعضاء مؤسسة اليمامة أن أعود إلى جريدة الرياض مرة أخرى.

* كتبت زاوية «قوس قزح» في جريدة الجزيرة ووجدت فيها مساحة لمناقشة المشكلات الاجتماعية، وانتقلت الزاوية إلى اليمامة ثم إلى جريدة الرياض لأن عضويتي في مؤسسة اليمامة جعلت زملائي من أعضاء المؤسسة يرون فيها دعمًا لجريدة منافسة على حساب جريدة الرياض ثم نقلتها تحت تأثير معاتباتهم المتكررة.

وقد تمنيت لو استمرت الزاوية مع صحيفة واحدة لكان ذلك أقوى لها وأبقى في ذاكرة القارئ.



عبدالله الفرعاوي

الحياة صور وشخصيات و.. أحداث..
الحياة قصص صغيرة تصب في روايات طويلة..
نحن نرى.. نسمع.. نتكلم و.. نسجل..
حروف مبعثرة تكوّن فيما بينها مفردات واقع يصافحنا كل يوم.. ونحياه.



هل «التربية» من نافلة «التدريس»؟

فاطمة السهيمي - القنفذة

تغير اسم الوزارة من آفاق المعرفة إلى جنبات التربية، وكم من «عارف» لم يدر للأدب والذوق معنى، وكم من مترب لا يعرف من المعرفة حتى أبجدياتها.

ولقد مر عليَّ تجربتان لا تكادان تنفكان عن هذه المقدمة الخاطفة تتعلقان بأمّين: إحداهما لا تفك الحرف، ولم تدر يومًا ما التربية والتعليم، والثانية حصلت على أعلى الشهادات واطلعت على عدد ضخم من كتب التربية والفكر والأدب والثقافة.

الأولى متزوجة رجلاً لديه امرأتان أخريان سواها، ولديها من الأطفال تسعة، والأخرى زوجة وحيدة ولديها من الأطفال أربعة.

الأولى لا تتحدث عن التربية وهمومها إلا بقدر ما تسمح به المجالس النسائية البسيطة، فيما تتناول الأخرى مع نظيراتها نظريات التربية والفكر وآخر ما توصل إليه علم النفس والطفولة، والأساليب القديمة والحديثة في تربية الأبناء... إلخ.

بعد مرور سنوات عدة بدأ يتضح الفرق جليًا..

أبناء الأولى التسعة.. تراهم فتطمئن نفسك أن المجتمع لا زال بخير، والتربية لا زالت بخير، والأم ما زالت مدرسة.. أخلاق عالية، التزام بالواجبات الدينية، تفوق في المدرسة، رقي في أسلوب التعامل مع والديهم، وسائر المحيطين بهم، حتى ولدها المراهق يمدك بإشعاعات الرجولة والشهامة، ويشعرك أنك تستند إلى ركن حصين، غير حانق على والديه لأنهما حرماه من هذه المتعة وتلك اللعبة، واثق من نفسه، معتز بتربيته، متعلق بالمسجد، ينشرح صدرك وأنت تراه يشق الليل المتبقي سائرًا نحو أنوار المسجد متقدمًا إخوانه الصغار الذين يستيقظون للصلاة وهم يرون ذلك ألزم ما عليهم من واجبات..

على الجانب الآخر..

لم أر في أبناء تلك المثقفة ما يوحي بأنها قد فعلت شيئًا ذا بال في تربية أبنائها..

تهاون في أداء الصلاة، ومستوى دراسي ما بين المتوسط والجيد جدًا، وسلوكيات لا تتميز نهائيًا عن سلوكيات بقية أولاد المجتمع المتسمة غالبًا بالاستهتار بالواجبات، وتضييع الأوقات في أمور تافهة وغير مجدية..

هي بوصفها أمًا.. لم أر في تصرفات أولادها ما يوحي باعتزازهم بها، تشتكي من شدة شقاوتهم وعنادهم، ويبدو عليها أثر السعادة حينما يستجيب أحدهم لطلب من أوامرها، مما يدل على أن ذلك لا يحدث دائمًا..!!.



إذًا، هل يمكننا أن نقول إن التربية لا علاقة لها بالتعليم، أو إن وراء كل أمة عظيمة تربية عظيمة وليس تعليمًا عظيمًا.. بالطبع ليس الأمر على ظاهره، فالقضية تحتاج إلى كثير من البحث والتمحيص، وليس هناك عاقل يمكنه أن يلغي دور التعليم في حياة أي فرد أو أية أمة..

وإذا لم يرفع التعليم شأن الأمم فمن؟

بيد أنه:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

هذا هو الرأي الفصيح الصريح للشعر - فما رأي المشتغلين بحقل التربية والتعليم..؟

* «لا مبرر للفصل بين الروح والجسد».

* «التربية أولاً».

* «الطالب الذي لم يربه البيت لن تربيه ألف مدرسة».

* «أفضل الطالب المؤدب بلا مستوى دراسي على نظيره المتفوق بلا سمو في الأخلاق».

* «ماذا سأستفيد من أخلاق طالب لا يبدي أي اهتمام بأمر التحصيل الدراسي؟».

* «من كمال الأدب الإقبال على العلم».

* الاستهتار لا يجتمع مع الأخلاق».

* «لا وقت لتأدية المناهج فهل هناك وقت لتعديل السلوكيات».

* « إذا أمنّا «شر» الطلاب فلن نبحث عنه بتقويم أخلاقهم، فالأخلاق تكونت في أنفسهم من المنزل وانتهى الأمر».

* « مهمتنا التعليم ومهمة البيت التربية».

* « لا أذكر أنني - طوال مدة تدريسي - قد خرجت عن مضمون الدرس».

* « نحن قوم أخبرنا عن التحليق في آفاق التربية، والخلق في أثناء الشرح خروج عن النص».

* « في داخل الحصة تحدث بعض المواقف التي تستوجب مني التعليق أو التوجيه، ولا أشعر أنني معلم إلا حينما أفعل ذلك، خصوصًا أنني أقرأ الرضا في عيون الطلاب».

* «المعلم الذي يؤدي الدرس فقط هو مؤد وملقن فقط، ولكنه ليس معلمًا ولا مربيًا».

* «سؤال للوزارة: على أي شيء نتقاضى أجورنا؟ هل على التربية أم على التعليم؟ أجزم أنه على التعليم، وأنا أؤديه بكل إخلاص».

* كانت تلك نخبة من آراء المعلمين أو المعلمات الذين يعنيهم الأمر بشكل مباشر..

فماذا يقول الطلاب:



* «المعلم لا شأن له بتربيتي، فوالديّ قد تكفلا بذلك».

* «لا أسمح لأي معلم أن يناقشني في أخلاقياتي».

* «قد يحدث أن يوجهني المعلم في المدرسة، وربما تأثرت، لكنه تأثر وقتي يزول بمجرد عودتي للمدرسة وانخراطي في حياتي اليومية».

* «عندما توجهني معلمتي، أتظاهر بالتأثر، وأطأطئ رأسي، وقد أذرف الدموع لتكف عن ثرثرتها، لكن كلام أي معلمة لم يحرك فيّ ساكنًا يومًا من الأيام».

* «أنا طالبة أنعت بالشقية، ولي مواقف وحكايات، ولكن معلماتي لم يفلحن في نصحي، أفضل أن توجه المعلمة طاقاتها التربوية والتوعوية لأولادها في البيت، فهم - على ما أظن - أسوأ حالاً مني».

* «كنت أمارس التدخين سرًا، كشفني أحد المعلمين، انفرد بي، نصحني، أبلغ في النصيحة، كان أسلوبه مؤثرًا، ووعدته خيرًا، وفيما أنا أراود النفس على ترك هذا الخبيث من أجل هذا المعلم فقط، إذا بابنه يطلب مني سيجارة، فأعطيته وأعطيت نفسي وعدًا بعدم تصديق نصائح المعلمين».

* «أنا أيضًا مررت بتجربة مشابهة للتجربة أعلاه، فقد قصصت شعري بطريقة معينة لم ترق لأحد، فأبدت معلمة اللغة العربية امتعاضها من الأمر، وأقنعتني بفداحة الأمر، وأنها قد صدمت بي، فقررت أن أبحث عن طريقة أخرى للتميز كما قالت لي، بيد أن أختي التي تدرس في المرحلة المتوسطة أخبرتني أن ابنة هذه المعلمة لديها القصة نفسها.. فأدركت أن تلك المعلمة تصدم من بنات الناس فقط، بينما الأمر لا يعنيها في بيتها».

شتات على كل حال..!!

وأطراف تلقي باللوم على أطراف أخرى.. فقط للتهرب من المسؤولية..

يقول هذا الأب الحانق:

ما نعلمه لأبنائنا في البيت من قيم وأخلاقيات وفضائل تأتي المدرسة لتهدمه في غمضة عين. لقد كان طفلي نموذجًا للطفل المؤدب المهذب في كلماته، المواظب على صلواته، المطيع لوالديه، حتى إذا ما دخل المدرسة، ومن الأسبوع الثاني.. جاء بألفاظ نابية، وشق عصا الطاعة علينا، وأهمل صلواته..

فماذا استفدنا من المدرسة! نحن لا نطالب بالتربية، ولكننا فقط نطالب بعدم القضاء على ما شيدناه من قيم في نفوس الأبناء..!!

هكذا إذًا..

تبدو المسألة عائمة أكثر مما ينبغي، نحن بحاجة للملمة الخيوط لنعرف عماذا نبحث، وماذا نريد، والأهم من ذلك من أين نبدأ..

حسنًا..

لقد كان موضوعنا عن التربية في مدارسنا.. لكن أحدًا من المشاركين لم يتعرض لهذا الأمر.. كان كل الكلام منصبًا على مواقف فقط، حدثت لمعلم أو طالب وفيها بعض الإشارات التربوية..

أما التربية بمفهومها العميق الواسع، فأعتقد أنها ميدان فسيح، تتعب القدم والقلم قبل أن تجول في أرجائه أو تلم بجميع أطرافه.

ولذلك هي دعوة للتربويين الفضلاء أن يدلوا بدلوهم في موضوع التربية الخطير من أين يبدأ، وأين يكمن، وكيف يكون، ومن المسؤول المباشر عنه، وكيف نعد المعلم له، وما المطلوب من المعلم تجاهها، وما هي حدود مسؤولية البيت، ومسؤولية المدرسة..

وهل في مدارسنا إشراقات تربوية تستحق أن يستضاء بها، أم أن جميع المعلمين مؤمنون بأنهم يتقاضون أجرهم مقابل التعليم وليس التربية، وأن التربية من نافلة التدريس..؟

أسئلة تدور، والفلك يدور، والزمن يتسارع، والوطن يود لو يقول..

ماذا يقول..؟

الحياة جملة من الأحداث والمواقف..
ومع كل حدث هناك وجهة نظر..
وملامح الشخصية تحددها وجهات النظر..
و«المعرفة» تريد من هذا الباب أن تقول: إن اختلاف وجهات النظر طبيعة إنسانية ينبغي ألا تفسد للود قضية كما نردد دوماً.
وإذا كان تضاد وجهات النظر نقمة، فإن تنوعها نعمة يجب أن نحسن تناولها.
ضيفنا العزيز الشاعر الأستاذ :عبدالله عبدالرحمن الزيد.
يقدم لنا شيئًا من وجهات نظره فيما يلي:



عبدالله عبدالرحمن الزيد :

لا نريد صناديق للأدباء!

*** شعراء الثمانينيات، حضور بلغة الغياب.**

هم في الحقيقة والواقع الفعلي حضور بلغة الحضور، لأن أسياد الفعل الثقافي والشعري آنذاك - أقصدهم طبعًا - قد أحدثوا - بحداثة وتجديد - ما لا يمكن استيعابه من قبل السياق السكوني البارد. فما الذي حصل؟ الذي حصل هو أن أسياد الثمانينيات - أي شعراءها - ظلت قاماتهم منتصبة يهطلون كما ينبغي بالشعر، وأشاح عنهم السياق بإيقاعه، وانكفأ على تسطيحه وعاميته.

*** يكتبُ الشعر لأن السطر فارغ، ويقرأ لأن السطر ممتلئ.**

لا يا سيدي.. يكتب الشعر لأن الشاعر لديه ما يريد أن يقوله، فهو في احتياج شديد إلى ذلك، ثم هو بذلك يغير السطر بما فيه، ثم يقرأ الشعر لأنه لغة التحرر من ربقة التجربة، ولأنه شيء جديد، والجديد له سحره، والامتلاء ليس معادلاً موضوعيًا للجاذبية وكيمياء التفاعل.

*** صندوق الأدباء رافد اجتماعي لمن يكبو به الجواد ويخونه الزمن.**

لا نريد صناديق، فالصناديق في عالم الأدباء أصبحت رمزًا للإذلال، وللإعلان عما لا يريد الفنان أن يبوح به لغير ذاته إلا لربه، لكن هناك بدائل تهطل بالكرامة والعفة والجمال:

- رابطة أدباء تشعر الأديب بالانتماء وتقدير المواقف.
- مطبوعات محترمة تدعو الأديب إلى الكتابة والإسهام الثقافي وتعطيه المقابل المحترم.



أدركت ووعيت بعد فوات الأوان أني نأيت بشكل سيئ مأساوي عن الشرط الثقافي المعرفي ، وأن المعلومة هربت مني لسبب غير معروف

الذي حصل هو أن أسياد الثمانينيات . أي شعراءها . ظلت قاماتهم منتصبة يهطلون كما ينبغي بالشعر ، وأشاح عنهم السياق بإيقاعه ، وانكفأ على تسطيحه وعاميته

العولمة تمثل خطرًا على الهوية الثقافية، فقط عند المهزومين دخليًا، وعند غيرهم تشعل العولمة الهوية الثقافية، وتمنحها مزيدًا من القوة والوضوح والرسوخ


عبدالله الزيد

أنا أحد الذين يؤمنون بأن الثقافة شيء، والإعلام شيء آخر، هذا في أكثر التعبيرات مهادنة، وإلا فإن المؤشرات تفيد بأن الثقافة ضد الإعلام، وخصوصًا في عالمنا الثالث

- نواد أدبية أو جهات ثقافية تقوم بطبع إبداع الأديب وتوزيعه.

*** الأديب العربي لا يعتمد على رواياته أو مؤلفاته كمصدر رزق وحيد.**

من المفترض ألا يعتمد الأديب العربي على إبداعه مجالاً للكسب سواء كان وحيدًا أو غير وحيد، لأن الكسب والعيش ومترتبات الحياة استهلاك مرعب لايرحم، وتبعًا لذلك لابد من وجود عمل أو مصدر معيشة معادل له تمامًا لا يخضع للحالات والتجارب والأمزجة، ثم إن الأدب والإبداع عندما يسقط في وحل المقابل والاحتياج المادي يتحول إلى شيء آخر بارد لا علاقة له بالفن وروح الفنان.

*** بعض القصائد نتاج رديء لحاطب ليل.**

نعم لاشك في هذا.. وليس الأمر مقصورًا على (بعض القصائد) بل إنه يشمل كثيرًا من الكتابات والمنظومات، والمسألة تحدد بأحد أمرين: إما أن حاطب ليل هذا ليس بمبدع ولكنه يمثل دور المبدع، وإما أنه لا يمتلك آليته الفنية التي تمنحه حق التوقيع على شروط اللعبة.

*** قصيدة «تالله لن أبرحها» تأنيب ذاتي لنفسك أم لعبدالله الزيد.**

لافرق يا سيدي بين نفسي واسمي، تمامًا كما أنه لا فرق بين ذاتي وموضوعي، لم أكن لحظتها أشعر بانشطار، لكني أدركت ووعيت بعد فوات الأوان أني نأيت بشكل سيئ مأساوي عن الشرط الثقافي المعرفي، وأن المعلومة هربت مني لسبب غير معروف، وخلعت لباس الموهبة وتركتني وحيدًا إلا من أخطائي.

*** لا أخلي نظمنا التعليمية من مسؤولية الجناية على مساحة القراءة في حياتنا.**

لا أؤيد ذلك، ولا أميل إليه على الأقل من خلال تجربتي الشخصية، لكني لا أخلي القائمين على تلك النظم، وأقصد تحديدًا (المعلم)، فالنظم على أي وجه كانت هي صوى ومعالم وتنظير، و(المعلم) هو روح الفعل والتأثير الذي يستطيع بجموده وسلبيته أن يحول النظم إلى هياكل جرداء، وهو الذي يستطيع بفاعليته وثرائه وحضوره أن يحولها إلى مصابيح لا تنطفئ أبدًا.

*** أكثر شعراء الفصحى اتجهوا لـ «خواء»!! يسمى بقصيدة النثر.**

أولاً، لا أوافق على وصف (النثيرة) بأنها خواء، فهي كتابة إبداعية بكل الأحوال، ثم هي إبداع إنسان له تجربته ومعاناته، ثم هي من بعد ذلك كله تجريب في إبداع إنساني ليس محرمًا على التجديد والإضافة، فمن الذي يمتلك جمرة التحولات في عقل الإنسان وفي عطائه، ثم ألا يمكن أن تكون (القصيدة) بأوزانها وإيقاعها وروحها وتاريخها معنا هي السبب في عدم احتفالنا بالنثيرة؟!

*** الشعر الشعبي يسبق الشعر الفصيح بمراحل.**

من عجائب ساحتنا الثقافية وغرائبها ابتسار سياق، وإيجاد مجال غير صحي أبدًا للمقارنة بين الفصيح والشعبي، يا أيها الأحباب: الشعر الفصيح تكوين وإبداع له سياقه الخاص، وله شروطه، وله مناخه، وله مبدعوه، وله ثقافته، وله آليته، كذلك (الشعبي) له أهله ومحبوه وسوقه، وله نجومه وأمسياته، فلا مجال للمقارنة بينهما، المتفق عليه أن الاثنين (شعر).

*** شعراء الفصحى غير معروفين.**

من أثبت هذا؟ ثم هم غير معرفين عند من؟ ألم أقل قبل قليل: إن لكل إبداع مجاله؟ قد يوجد لدى جمهور الشعبي من لا يهتم بالفصيح وبرموزه، كذلك ثق تمامًا أن مدائن الفصيح لا تعرف أناس الشعبي ولا قائليه..نعم، هذا الحاصل.

*** المرأة الشاعرة..تحمل ثقل الصراع مضاعفًا لأنها امرأة ولأنها شاعرة.**

لا أجد في الحقيقة أي فرق بين المرأة الشاعرة والمرء الشاعر، وإذا كانت مسألة النوع أو الجنس معتمدة في مثل ذلك الحكم، فإن المرء أو الرجل الشاعر يحمل ثقل الصراع أضعافًا مضاعفة، وإذا كانت المرأة تستطيع أن تحتمي عند اللزوم بشرنقة الزمان والمكان، فإن الرجل مطالب بالوقوف وحيدًا في وجه الريح والعاصفة والاحتمال الذي يأخذ بعضه برقاب بعض.

*** التيار التقليدي ما زال حاضرًا وبقوة في الحركة الشعرية في المملكة.**

الكل حاضر، والجميع موجود، وأنا لا أريد أن تكتفي بالأمسيات ولا بعمليات النشر التي تأخذ شكل الإعلان، ولكن اذهب إلى المكتبة واطلع على الدواوين والمجموعات، واقرأ إن شئت الملحقات الثقافية في الصحف والمجلات المختلفة.

*** نريد حرية عصرية تحارب الوهم، وتسعى إلى الحقائق، وأن يحتكم الناس إلى ميزان الذوق والعقل والعلم.**

الحرية يا عزيزي موجودة، والوهم يتقلص، والحقائق جاهزة، والذوق والعقل والعلم تكتسب إن لم تكن مكتملة، هذا إذا أراد الإنسان أن يقوم بدوره الفاعل، لكن المشكلة أن كثيرًا من النماذج الإنسانية تكتفي بالتفرج والسلبية، فتهرب الحرية، ويكبر الوهم، وتضيع الحقائق، ويفلت الذوق والعقل والعلم من عقل الإنسان...لا شك نريد ونريد لكننا نعاني كثيرًا من الخذلان.

*** إعلامنا حر.. وبعيد كل البعد عن الحيادية.**

إعلامنا ليس حرًا ما دام يرسف في الرسمية وربقة الجهاز الحكومي، ولم يحظ بعد بأن ينطلق في مضامير المؤسسات المستقلة، ومصطلح (الحيادية) لم نصل إليه بعد، لأننا ما زلنا في مرحلة ما قبل تحديد المواقف.

*** يجب إنشاء لوبي إعلامي محترف وليس حكوميًا ليواجه الإعلام الغربي.**

عبدالله الزيد

وإذا كان هناك اضطهاد ما فلست الوحيد الذي يعانيه ، هناك كثيرون مضطهدون ، ثم إن الاضطهاد الذي يحصل لشخص ما قد يكون هو نفسه من أسبابه ، وله دوره الواضح فيه

لم يكن كتاب «الحداثة في ميزان الإسلام » في مستوى الأدب المعاصر والنقاش الحي ، إنه باختصار أسلوب عقيم قديم موجه للعوام والدهماء والمسطحين الذين لا يحتفلون بالعمق وإنما يكتفون بالنبرة الخطابية والظاهرة الصوتية .

يا ليت.. أتمنى ذلك، ومستعد لأن أسهم في هذا اللوبي بكل ما أملك.

*** اعتماد ثقافة المجتمع السعودي على العادات والتقاليد أمر يحقق الأمن الثقافي.**

ليس الأمر كذلك، بمعنى أنه لا ينبغي الاعتماد كليًا على كل ما له صلة بالعادات والتقاليد لكي يتحقق الأمن الثقافي، هناك بالإضافة إلى ذلك تحقيق ما يتطلبه التفوق، وما تستوجبه العبقرية الإنسانية، الأمر الذي يعمل على توظيف العادات والتقاليد كما ينبغي لإنسان معاصر وإيجاد سياقات أخرى لها نكهة المواجهة.

*** لا لفصل الثقافة عن الإعلام.**

بعكس ذلك، أنا أحد الذين يؤمنون بأن الثقافة شيء، والإعلام شيء آخر، هذا في أكثر التعبيرات مهادنة، وإلا فإن المؤشرات تفيد بأن الثقافة ضد الإعلام، وخصوصًا في عالمنا الثالث كما يقال، ولماذا لا يكون لكلٍّ وزارة؟

*** العولمة تمثل خطرًا على الهوية الثقافية.**

فقط عند المهزومين داخليًا، وعند غيرهم تشعل العولمة الهوية الثقافية، وتمنحها مزيدًا من القوة والوضوح والرسوخ.

*** ماذا يريد المثقف من وزارة الثقافة والإعلام؟**

- أن تمنح المسألة الثقافية شيئًا من الاستقلال عن السياق الإعلامي البحت.
- إيجاد المناخ الصحي للعمل الثقافي الذي يتمثل في :

*إيجاد رابطة أدباء.

* تصحيح أوضاع الأندية الأدبية.

* تنظيم عملية تمثيل المواطن في المناسبات الخارجية ليشمل جميع الأطياف الأدبية.

- الإسراع بتسمية الجهاز الذي يهتم بالثقافة والمثقفين في الوزارة (حتى الآن لا يوجد شيء من ذلك).

*** عبدالله الزيد..إعلامي يمارّس بحقه الاضطهاد.**

أنا لم أعلن شيئًا من ذلك، ولم أشتك، وإذا كان هناك اضطهاد ما فلست الوحيد الذي يعانيه، هناك كثيرون مضطهدون، ثم إن الاضطهاد الذي يحصل لشخص ما قد يكون هو نفسه من أسبابه، وله دوره الواضح فيه، العدل مطلوب، والكرة ليست في مرمى أحد.

*** كتاب «الحداثة في ميزان الإسلام» شوكة في حناجر الحداثيين».**

أبدًا.. لم يكن هذا الكتاب كما قلت، بل بعكس ذلك قدم خدمة عظيمة للحداثة والحداثيين بتسجيل تاريخ مهم من مسيرتهم، أما من حيث الكتابة والمنهج وطريقة الأداء فلم يكن الكتاب في مستوى الأدب المعاصر والنقاش الحي، إنه باختصار أسلوب عقيم قديم موجه للعوام والدهماء والمسطحين الذين لا يحتفلون بالعمق وإنما يكتفون بالنبرة الخطابية والظاهرة الصوتية.

*** لاعنو الحداثة بسطاء أو عاطلون عن العمل.**

هم في الأغلب كذلك، لكن هناك من كان ذا هدف ما، وكان هناك من اصطاد في الوحل، وأكثرهم أولئك الذين يسرهم أن يشتعل الخلاف لذات الخلاف وأن يقضي كل طرف على الآخر.



عبدالله الزيد

*** التذكير في اللغة قام على استلاب التانيث فيها.**

المسألة ليست بهذه الفداحة، المسألة تتعلق بسياقات معرفية ومصطلحات،وأعراف ثقافية معينة، والتحقق من ذلك ما زال قائمًا فالجانب التاريخي والاجتماعي لم يحسم بعد.

*** وزارة الإعلام جسر يعبر منه الإعلاميون للفضائيات.**

هناك جدلية ما في العلاقة بين وزارات الإعلام والفضائيات، فقد يعبر الإعلاميون من الوزارة إلى الفضائيات، وقد يعبرون من الفضائيات إلى الوزارات، وقد يعود جزء منهم إلى مواقعهم السابقة.

*** زيادة قنواتنا الفضائية مواكبة للتطور أم للاحتياج؟**

الأصل أن يكون الدافع احتياجًا، لكن هناك عين متلهفة على التطور، ولا يمكن أن نتصور في الوقت الحاضر أي إنجاز إعلامي أو ثقافي لا يضع في حسبانه مسألة المواكبة والتطور، ويتوق إلى تحقيقها بشكل ما.

*** نحتاج إلى إعادة هيكلة نظمنا الإعلامية.**

نعم.. هذا مؤكد، وأهم خطوة في هذا المجال، وأكثرها فاعلية هي تحرير وسائل الإعلام وخصوصًا الإذاعة والتلفاز، من ربقة الرسمية وتحويلها إلى مؤسسات.

*** الإعلام..منبر حر!**

إذا كان القائم عليه، والمسؤول عنه، والعامل فيه ذوي أفكار حرة وآفاق خلاقة تبدع وتضيف وتتفوق. ■

تصدر في سلطنة عمان وتختص بالتربية والتعليم

«التطوير التربوي»: القراءة عثرة في إتمام العملية التعليمية


لغة التعامل مع الطالب

صدرت النشرة التربوية الشهرية «التطوير التربوي» التي تحررها المديرية العامة للعلاقات والإعلام التربوي بوزارة التربية والتعليم بسلطنة عمان من سبتمبر إلى مايو من كل عام للعاملين في المجال التربوي والمهتمين. وتهدف في مادتها الإعلامية إلى النهوض بتجارب الحقل التربوي والعملية التعليمية من خلال طرح الشأن التربوي ومناقشته واستقطاب الرؤى والتجارب التربوية المتميزة والتجديدية.

النشرة في عددها الأخير ومن خلال «ملف العدد» ناقشت قضية القراءة وتدني مستوياتها في

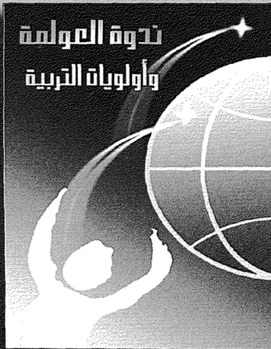
تنظمها كلية التربية بجامعة الملك سعود الشهر القادم

ندوة العولمة وأولويات التربية تتساءل: ما الأدوار الجديدة لمؤسسات العمل التربوي؟

تحاور ندوة «العولمة وأولويات التربية» التي تنظمها كلية التربية بجامعة الملك سعود خلال الفترة من ٢٧- ٢٨ /٢/ ١٤٢٥هـ الموافق ١٧- ١٨/٤/٢٠٠٤م عددًا من القضايا التربوية الهامة في ظل العولمة إيمانًا بأن التربية إحدى أهم العمليات الاجتماعية وأكثرها ديناميكية، وبالتالي إعادة ترتيب أولوياتها النظرية والعملية في ضوء التغيرات السريعة والمتداخلة، وتحديد المواقف والأدوار الجديدة، لمؤسسات العمل التربوي، وبحث آلية المحافظة على الهوية المجتمعية في ظل الهجوم العولمي. وحددت كلية التربية المنظمة للندوة ثلاثة محاور مهمة لهذه الأهداف يتركز المحور الأول حول العولمة والهوية الثقافية التربوية ويناقش عددًا من المعضلات أهمها العولمة وأسس الهوية الإسلامية، عولمة التربية الإسلامية ومفهوم المواطنة والانتماء والتنوع التربوي والثقافي في ظل العولمة. أما

السلطنة بصورة خاصة والعالم العربي بصورة عامة. ومما استشهدت به النشرة للتدليل على ضعف الإقبال على القراءة ما كتبه الأستاذ ناصر صالح الغيلاني، اختصاصي إعلام تربوي، تحت عنوان «كيف نبني مجتمعًا يقرأ؟»: «تكشف حركة الترجمة من اللغات الحية إلى اللغة العربية حقيقة موجعة عن واقع القراءة في بلداننا العربية، فالعالم العربي يترجم سنويًا حوالي ٣٣٠ كتابًا وهو يمثل خمس ما يترجمه بلد مثل اليونان سنويًا، كذلك يقدر ما تمت ترجمته من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية منذ عصر المأمون إلى الآن بحوالي ١٠٠,٠٠٠ كتاب وهو يعادل تقريبًا ما تترجمه إسبانيا في عام واحد فقط». وركز الملف أيضًا على علاقة الطالب العماني بالقراءة وكيف يمكن تفعيلها وتوسيعها ودورها في دعم العملية التعليمية.

كما شملت النشرة بعض التجارب التربوية المبتكرة لخدمة المدرسة في مجال الإنجاز التعليمي والاجتماعي ومشاركات كتابية لبعض المنتمين لحقل التربية والتعليم، ووضع القائمون عليها الموقع الإلكتروني bulletin@moe.gov.om للتواصل مع النشرة والتعرف على مادتها التربوية.



المحور الثاني فجاء تحت عنوان: الثابت والمتغير في قضايا المناهج، ويناقش قضايا جزئية مثل المنهج بين ضغوط العولمة وخصوصية الثقافة وتطوير المنهج والتغيرات الثقافية. والمحور الثالث في هذه الندوة يناقش العولمة وتغير أدوار المعلم والمتعلم.

وحُددت فعاليات يومي الندوة بالبحوث العلمية والحلقات النقاشية وأوراق عمل لجهات تربوية من داخل المملكة وخارجها، ومحاضرات عامة لعدد من المفكرين والمتخصصين. كما دعت الكلية المنظمة جميع العلماء من المهتمين بالشأن التربوي للمشاركة في الفعاليات لتعم الفائدة وتتنوع مصادرها فيما يخدم أهداف الندوة ومساعيها.

الوزير معاتبًا «المعرفة» :

أرجو أن لا يصدق الناس ماكتبتموه !

أخي الكريم زياد الدريس

المدير العام للإعلام التربوي، رئيس تحرير مجلة المعرفة بعد التحية الطيبة

حيث عدت البارحة من رحلة عمل أخذتني إلى تونس، وجدت العدد رقم ١٠٥ من المعرفة أمامي، وأخذت أتصفحها وأقرؤها بنهم كعادتي، ولقد ذهلت بعنوان في صفحة ١٥٤ يقول: (الرشيد: الأزمات لا تأتي إلا من خلل التعليم). ومصدر ذهولي هو أن هذا مضاد لموقفي من أن التعليم ببرنامجه ومناهجه براء من كل الأزمات والعنف، ولم أقل تلك المقولة على الإطلاق.

كل ما أردده هو أن أي عمل مشين، أو جرم يرتكب يجيء، نتيجة تشوه فكري وانحراف ذهني.

أخي زياد، المفروض أنك والزملاء في المجلة أحرص الناس على الدقة وتحري الصواب فيما تنقلون، وإني أحس بكثير من الكدر أن تقولوا عني أو تنسبوا لي ما لم أتفوه به مباشرة أو غير مباشرة، بل إنه نقيض موقفي، وأرجو ألا يحمله الناس محمل الجد ويصدقون ما كتبتموه.

تعليمنا ليس كاملاً وليس مثاليًا، ولكن بالمقابل ليس كما يظن أناس قليلون ـ أنه عامل في التشوه الفكري.

لتدم مجلتنا المعرفة، ولتكن دائمًا وأبدًا لسان صدق وناقل حقيقة. والله يرعاكم والسلام.

أخوكم: محمد بن أحمد الرشيد

الخيمة

في اللقاء الثالث لرؤساء أقسام التربية الإسلامية

الرشيد: الأزمات لا تأتي إلا من خلل التعليم





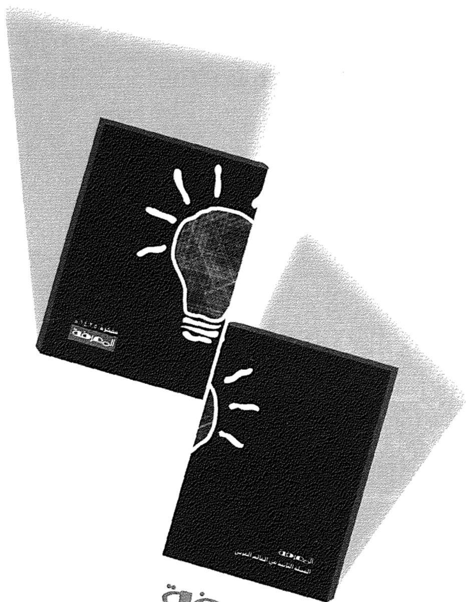
* المحرر :

لا نخفي ـ قرائنا الأعزاء ـ غبطتنا بهذا التعقيب أو العتاب من معالي الوزير المشرف العام على المجلة الذي يوضح إلى أي حد نحن نعمل في هذه المجلة بروح الفريق لا بمركزية القائد الأوحد!

قد يبدو أن عنوان المادة التي نشرت في العدد الماضي يوحي أن «تعليمنا الحالي» مسؤول عن الأزمات والعنف الذي بدا بعض مظاهره في الفترة الماضية. ولكن العنوان يوحي أيضًا أن الخلل في التعليم في أي بلد في العالم يسبب الأزمات المختلفة.. الاقتصادية والاجتماعية والأمنية... إلخ، وعلى هذا فإن من أهم الأولويات لكل مجتمع ألاّ يحدث خلل في تعليمه وأن يكون «الجميع» مسؤولاً عن نظامه التعليمي ومراقبًا لمسيرته على الدوام.

هل هذا تبرير لموقفنا؟ لا ندري، لكن الذي ندريه هو أننا ـ فريق التحرير، ومن يريد أن يشاركنا من القراء ـ نبتهج جميعًا بالأجواء «الديمقراطية» التي تتيح للمجلة أن «تسيء فهم» أقوال المسؤول الأول عنها، ثم تتيح له ـ كما بقية القراء ـ أن يوضح ما أشكل أو التبس من فهم... فشكراً له ولكم.

المعرفة





زياد الدريس
ziadd101@almarefah.com

تغيير رئيس التحرير!

لن يستطيع أي رئيس تحرير مهما أوتي من قوة أن يقنع الجميع بأن يحبوا مطبوعته، ولكن بالمقابل فإن أي رئيس تحرير مهما أوتي من ضعف فإنه سيجد حتمًا من يحب مطبوعته!

أي أن الرضا المطلق والسخط المطلق هما شعوران غير متحققين في الصحافة.. وفي أمور أخرى كثيرة غيرها.

ولذا فإن مساعي رئيس تحرير مطبوعة لكسب جميع القراء هي هدر للوقت والجهد والمال. ولو سُجلت في تاريخ الصحافة حالة واحدة لنجاح مطبوعة في كسب جميع القراء لما تكاثرت الصحف كل يوم وتعددت وتنوعت ونجحت كل مطبوعة جديدة في كسب شريحة من كعكة القراء!

لكن هل يمكن جعل هذه المرافعة تبريرًا لكل رئيس تحرير، يقذف به كل من يوجه انتقادات إلى مطبوعته من القراء أو الملاّك؟!

إن هناك حدًا أدنى من الرضا ينبغي أن يكون متوفرًا للمطبوعة لا يقل بأي حال عن حجم السخط وعدم الرضا الذي يجب أن يفتح رئيس التحرير أذنيه له، بل ويسعى للتنبيش عنه عبر الاستفتاء والسؤال والهمس!

فإذا زاد عدد الساخطين على عدد الراضين عن المطبوعة، عندها فليس أمام المطبوعة سوى أحد خيارين: إما تغيير نمطها، وإما تغيير رئيس تحريرها. وفي الغالب فإن المطبوعة التي تبقى جامدة دون تطوير حتى يفيض فيها الساخطون على الراضين من الخير لها تغيير رئيس تحريرها الذي حتمًا لن يكون قادرًا على تغيير نمطها لو بقي.

ما الذي دعاني لهذا الحديث اليوم؟

لن أقول مشاهدتي لبعض الصحف والمجلات التي تحتضر اليوم، بعد أن كانت يومًا مضى ملء السمع والبصر.

بل سأقول: مشاهدتي لعدد من المقالات في الصحافة المحلية تنتقد مجلة «المعرفة» وأنها أصبحت في الآونة الأخيرة مملة ورتيبة ونخبوية. وهي انتقادات محل احترامنا وتوقعنا، فنحن لم نطمح يومًا أن نبلغ الكمال وأن نكسب الرضا المطلق من القراء.

الذي يخفى على هؤلاء الإخوة الناقدين هو أن مصدر غضبهم وامتعاضهم هو في ذات الوقت مصدر رضا وثناء من قراء آخرين يدفعوننا نحو المزيد. ونحن لا نفضل هؤلاء القراء على أولئك، لأننا عندما رسمنا هذا النمط الجديد للمجلة لم نكن نعلم مسبقًا من سيكون معنا ومن سيكون ضدنا.

لكننا - لحسن الحظ - مطبوعة شهرية، وبالتالي لدينا القدرة على تنويع الرضا بين القراء من عدد إلى آخر، ولذا عمدنا إلى رسم خريطة فصلية لأعداد المجلة بحيث يصبح الموضوع الرئيس لأحدها: تربويًا، والآخر: ثقافيًا، والثالث: بلدانيًا، والرابع: منوعًا، وهكذا أعداد السنة دون التقيد الحرفي بذلك.

وموضوع هذا العدد الذي بين أيديكم هو «بلداني» عن: العراق. ونحن نعلم أن طوله وامتداده على معظم صفحات العدد سيسخط البعض، لكن بعضًا آخر سيقول لنا: ليتكم أشبعتموه أكثر وتحدثتم عن كذا وكذا، فالعراق ثري مثير يستحق أكثر من ذلك!

ونحن لا نقول سوى: إن هؤلاء محقون وأولئك محقون، لأن الزبون دائمًا على حق.

لكن عندما يزداد عدد الساخطين على عدد الراضين عندها يجب التفكير فورًا في تغيير رئيس التحرير!



ليس له مثيل

